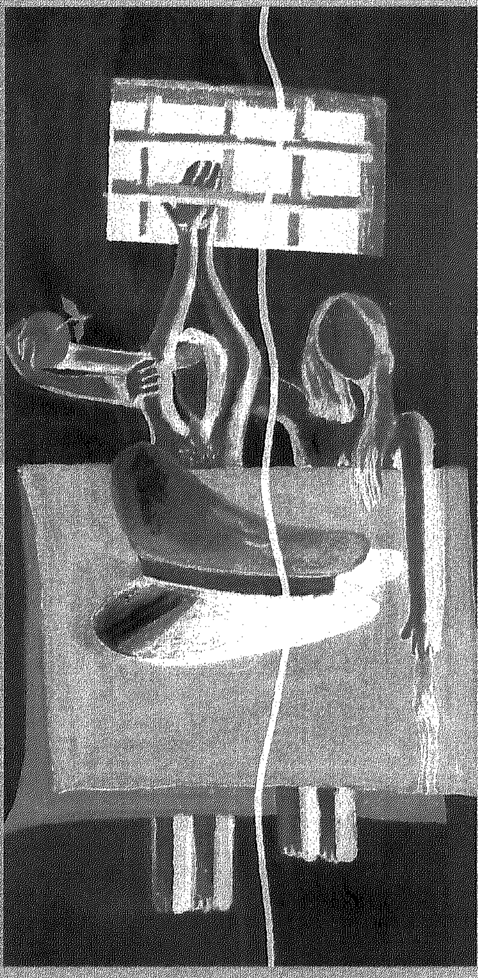
غراهام غرين

إنها ساحة معركة

رواية



إنها ساحة معركة

الطبعة الأولى - 1995

دار الطليعة الجديدة

سوريا - دمشق - ص.ب 34494

هـ: 7775872

تصميم الغلاف: جمال سعيد

غراهام غرين

إنها ساحة معركة

ترجمة: حسام خضّور

- 1 -

كان مساعد المفوض يهتم بمظهره عندما يقابل أشخاصاً أصغر منه سناً، يمتلك الثقة نفسها التي يضفيها اللباس لمأدبة في الغابات الشرقية. فتح باب الخزانة ومسح بذته السوداء أمام المرآة، ومال بوجهه الأصفر الهزيل إليها حتى كاد يلامسها. اتصف الشبان بسمات همجية معينة ــ كانوا يتحركون بسرعة، ويحملون أسلحة مسموحة أحياناً. مسح ببطء، وعلى نحو متزامن مع حركة تلافيف عقله المتهادية. قال لسكرتيره: «وضعت رقم هاتفي على الطاولة. إذا حصل طارىء...» وكالعادة قبل إنهاء جملته، يضيع في متاهات التعبير. لكنه متمهلاً، وبتراكم عفوي لأصوات مترددة، يشق طريقه إلى الأمام. «أم... طارىء، إذا سمحت، أم... دق الرقم وأم... اطلبني». عَبرَ الممرات المصفوفة بالحجرات الزجاجية الصغيرة مرتدياً قبعة سوداء مستديرة وعلى ذراعه اليسرى مظلة. رنّت أجراس الهاتف وأزّت الأجراس الكهربائية مثل الزيزان على طول طريقه، فيما تحركت أفكاره بحذر دون انحراف أو تأخير وغير مسرعة بالتأكيد.

حينما وصل إلى الساحة، قرر أنه غير معني بالسياسة. وفي شارع نور ثمبرلاند، قال في سره ليس شغله العدالة.

بزغت الأنوار حول ساحة ترافلفار، تنخس المساء الخريفي الرمادي النقي. هدرت الحافلات على طول شارع البرلمان وانعطفت وانتظمت في دائرة كبيرة. عرف شرطي، عند زاوية الشارع، مساعد المفوض وحيّاه، فأومأ له، ومرّ بحذر حيث أشارت اللافتات، فكر، ليست العدالة شغلي، شغلي، ببساطة، أن أقبض على الشخص المطلوب فقط، ولم يمنعه تيار الهواء البارد من التفكير بالأزقة الرطبة تطلق أبخرتها في الجو الحار تحت الأوراق كالأيدي الشَّعرَاء. عليه أن يسعى بهذه الطريقة أو تلك، ولكن عندما

لاتوجد أية وسيلة لمعاقبة القاتل بحرق قرينه. ليس للعدالة أي شأن بالقضية. إنه يدعها للحكام والقضاة والمحلفين وأعضاء البرلمان ووزير الداخلية.

توقف للحظة أمام واجهة محل في بول مول مليئة بالسجاد. لايمكن لمن يعيش في الشرق طويلاً ألاّ يتعلم شيئاً عنها. كان مهتماً. لكنه لم تكن لديه فكرة عن التلوين جميلاً كان أو رديئاً، والنموذج مرضياً أم منفراً؟ كان مهتماً لأنه يستطيع أن يطبق صيغاً معينة فيقرر فيما إذا كانت السجادة مصنوعة في الشرق. وقد أرضى نفسه طالما أمكنه أن يعرف أن السجاد كان أصلياً، دون أن يلمسه، قبل أن يتابع سيره إلى ناصية شارع الهاي ماركيت. لم يخطر له أن يشتري واحدة أبداً. كان لديه في شقته، بعض البسط على أرضيات الخشب القاسي. لفت نظره مانشيت في إحدى الجرائد: استئناف دعوى دروفن، وواحد آخر بعيداً في نفس الشارع، استئناف دعوى سائق الحافلة. دار في باله أنها فرصة سانحة للتحقيق، اشترى صحيفة، سائلاً البائع فيما إذا ظهر أي اهتمام خاص بالأخبار تلك الليلة. هز الرجل رأسه وأشار إلى فمه، كان أخرساً، وتابع مساعد المفوض سيره واجماً.

من البيكاديللي، انعطف إلى شارع فرعي، لم يكن ليضيع مشيته حتى لو كان على موعد. كانت تخرج نسوة من المكاتب في الطوابق الأرضية لمبان عالية عادية لاشيء يميزها. توقف أمام بناية ذات رقم معروف. حصلت ضجة مؤخراً في صحف الأحد حول المواخير في لندن، وكانت الشرطة توجّه اهتماماً خاصاً إلى إحدى الشقق. زمّ مساعد المفوض شفتيه اللتين استنزفتهما الحمى وتركتهما جافتين وشاحبتين إلى حد كبير. ما عاد يعتبر الأخلاق همه، مثلها مثل السياسة. كان مستحيلاً أن تبقى المواخير مغلقة، فقد كانت تنبت مثل الفطور بين عشية وضحاها في أبعد الأماكن احتمالاً: أحدها، كان يعرفه، أقام لسنوات بجوار أحد أكثر النوادي احتراماً. لو وضعت تحت المراقبة، لرشوا الشرطة، الأفضل تركها وحالها. لحظ شرطيين في نهاية شارع برلنغتون أكاد، وآخر واقفاً خارج أحد المعارض. في الجهة المقابلة من الشارع، كان شارع فاين ستريت يوزع رجاله بطريقة جديدة، وتنبّه أن عليه أن يطلب من بولين الاتصال بالمفتش.

دخل البيركلي مرتاباً. كان يفضّل مواعيده في سكوتلانديارد أو في منزل الوزير. ولم يستطع أن يدرك لماذا جيء به إلى مطعم. هيجته ألوان الورق الشاحبة و الأرائك والمرايا التي عسكت تحاعيد وجهه المريقن من كل الاتجاهات مثلما يهيجه أصيص ورد على طاولة مكتب.

«عزيزي المفوض». رأى السكرتير الخاص الطويل، ذا الملامح الناعمة المستديرة والشعر الرمادي، الذي شعّت شهرته، وامتلك جاذبية، ووعي صور لاتحصى، يتملص من امرأتين. كان وجهه مثل واجهة بللورية كبيرة لمخزن باهظ الأسعار. بإمكان المرء أن يرى، بوضوح تام وبتأثير كبير، عدّة أشياء منتقاة: علبة مجوهرات فضية، مجلد لفولتير حسن التنضيد، صورة شخصية بريشة فنان تشيكوسلوفاكي معاصر ورائج. «عزيزي المفوّض». حيا السكرتير الخاص الرجل الأكبر سناً ثانية ببهجة وترفّع وصراحة ورياء، واضعاً يده على ذراعه يقوده إلى زاوية نائية. «كأس شيري؟»

قال مساعد المفوض ببسطء: «أفضّل قدح وسكي و ام...صودا». أحس فجأة أنه عجوز ومغبر كأنه عاد لتوّه من إحدى مشياته الحارة المملة بعد أن ترك رجلاً معلقاً في الغابة تنقره العصافير ليقابل في مقر القيادة مراسلاً شاباً بارداً أرسله الحاكم. قال السكرتير: «الوزير آسف جداً لعدم رؤيتك شخصياً. إنه النقاش البرلماني كما تعلم حول منح التراخيص لايمكن مغادرة مجلس العموم للحظة، بصراحة أنا قلق عليه سوف ينهار، في البداية تخطيط المدينة، ثم الجانحين الأحداث، والآن منح التراخيص الرسمية».

لم يصغ مساعد المفوض. تعلم أن يوفر سمعه. عاد بذهنه إلى عمل ما بعد الظهيرة كان عمل الصباح قد رسا في فكره وهو يتناول طعامه من طبق في غرفته. أولاً تقرير خبراء البصمات عن آثار رتليدج، ومعرفة أن كلّ العمل في قضية بادينفتون ترنك يجب أن يُعاد ثانيةً، فكائن من كان قاتل السيدة جانيت كراول إنه ليس رتليدج. ثم التقرير حول اختراع اللاسلكي الجديد، والدلائل في جريمة ستريت هام كومون، والاغتصاب الذي تمنى أن يفحصه شخصياً ـ منديل صدىء بالدم وقطعة شعر مضفورة، وبيريه صوفية رخيصة.

«إنها ساحة معركة»، قال السكرتير «إنه يـزرع ردهـة المجلـى إيابـاً ـ وذهاباً. أنا متأكد، لم يتناول كأس شايه».

سوف أعيد فحص الأرض بنفسي، فكَر مساعد المفوض. صورة الكرسيين الخشبيين والعشب المنضغط لم تنبىء ما فيه الكفاية.

«لا أريده أن ينهار الآن، ثمة سنتان خاليتان من التعقيدات قادمتـان طبعاً، عند حلّ البرلمان سيحصل على رتبة شرف».

استعاد مساعد المفوض أفكاره بصعوبة مـن فيـلات سـتريت هـام. «كـان ذلك عن ام... عن دروفـر...؟ شـرع أحدهـم يضحـك في زاويـة أخـرى مـن الصالـة. «يـا عزيـزي، كـان ذلـك رائعـاً. لقـد ربطـوا عربـة الأطفـال فـوق التاكسي، ومايكل...»

«نعم»، قال السـكرتير. «كـان ذلـك عـن دروفـر. والآن علـى اعتبـار أن الاستئناف قد سقط فكل شيء يتوقف على موقـف وزيـر الداخليـة. الرجـل المسكين العزيز قلق، قلق جداً، كل ذلك إضافة إلى منح التراخيص الرسميـة أيضا». تلألأ وجه السكرتير العريض الشاحب برقة تحـت الأضـواء الخفيـة وانحنى إلى الأمام بملامح تؤكد على الصراحة، بتأثير ريـاء غـامر. «سـأقول لك الحقيقة، كان سيسره. كان سيسعده كثيراً لو قبلوا الاستئناف».

«مستحيل»، قال مساعد المفـوض، «لم تكـن ثمـة طريقـة ام... ممكنـة، يستطيع الدفاع أن يسلكها».

«تماماً، كنت في المحكمة. ظنّ الوزير، تعرف، أن هيئـة المحلفـين قـد تقدم بعض المبررات لتخفيض الحكم. لكن لم يكن أي شـيء علـى الإطـلاق يدعو إلى ذلك».

«مات الشرطي»، قال مساعد المفوض بعناد، «وقد قبضنا على القاتل».

«لكن الوزير، تعرف، لايريد دم الشيطان المسكين. لا أحـد يريـد ذلـك. لقد كان اجتماعياً سياسياً. كانوا جميعاً مهتاجين. ظـنّ دروفـر أن الشـرطي سيضرب زوجته، كانت السكين في جيبه. ذلك، طبعـاً، هـو الأسـاس. لِـمَ حمل السكين؟»

«كلّهم يحملونها»، قال مساعد المفوض. «تساعدهم في كشط المواد الزيتية والأوحال وفي تقطيع الخبز وام... الجبن».

ـ هل تريد قدح وسكي أخرى؟

ـ لا ،لا ، شكراً.

وضع السكرتير الخاص يداً كبيرة بيضاء على ذراع مساعد المفوض: «تعلّم يجب أن نساعده. إنه في حالة يرثى لها».

ـ تقصد ـ دروفر؟

ـ لا ، لا ، الوزير طبعاً. لو رأيته هذا العصر، ياعزيزي. الشياطين لقد أكرهوه على القتال كل أنش من طريقه ـ قانون الخيار المحلي، البيوت المتحالفة. ولايكون في حالة جيدة أبداً عندما يفوته كوب الشاي. حقاً، تعلم، كدّت أبكي، إذ كان علي أن أخبره أن استئناف دروفر قد سقط. ينبغي أن نساعده وإلا فلن يتجاوز جلسة الاستجواب.

«أي شيء يمكنني عمله»، بدأ مساعد المفوض يسلك طريقاً حرجة. كان محرجاً لأنه ما عرف ماذا عنى ذلك، وكان منزعجاً أن عقله منغلق هكذا. لقد انتهت قضية دروفر، وقضية بادينغتون، وجريمة ستريت هام تتطلبان كلّ التفكير الذي يمكنه أن يعطيه لهما. عرف أن عليه أن يتركهما لمرؤوسيه في دائرة المتابعة ـ المختصون في بصمات الأصابع وفحوص الدم، ومفتشو الشرطة السرية القادرون على متابعة روتين الاستعلام ـ معصوبي العينين. لكن ذلك كان موطن ضعفه، فقد كانت قوته حتى في الشرق، في الحرارة الموهنة، إنّه لايستطيع أن يترك دائرته وحدها أبداً.

انتشر ود السكرتير الخاص بسرعة مثل نبات معرّش سريع النمو. «عرفت أنه يمكننا الاعتماد عليك» وتابع ليضع الأمر بإيجاز الصيغ البرلمانية: النقائض و القوانين المتوازنة ولمسات السخرية المحسوبة حينما تكلم عن المعارضة التي لم تعن له سوى التعليل لمساعد المفوض كأنّها رطانة ناقد فني. «تقصد» قال، «أنّ وزير الداخلية يفضّل أن يخفض حكمه؟»

«آه»، أعول السكرتير الخاص بنعومة، مسنداً ظهره إلى الأريكة الجلدية الخضراء، قادحاً بلطف مرة بعد أخرى قداحة آلية. «كم تبسّط الأمور. القضية أكثر تعقيداً من ذلك. ومع ذلك يمكننا الانطلاق من هذا الأساس ـ الوزير يوّد التخفيض. لكن، كما تعرف، هنالك الإضرابات».

ـ إضرابات؟

ـ عمال القطن مضربون، وقد يضرب عمال السكك الحديدية الأسبوع القادم. دروفر شيوعي. هل سيعني تخفيض حكمه إقراراً بالضعف؟

فتح مساعد المفوض فمه ليتكلم. أراد أن يؤكد أن السياسة ليست شغلة، أيضاً؟ هل سيتصورون أننا نخشى أن نتحلى بالشهامة؟.

سأله المفوض: «من هؤلاء؟».

ـ «الشيوعيون».

ـ «عشرة.. ام... آلاف عضو».

ـ نعم، نعم، رسمياً، لكن كل مضرب إبان الإضراب، هو شيوعي بصورة أو بأخرى. المرء لايربكه اختلاف الألوان».

ـ «ومع ذلك ماذا بوسعهم أن يفعلوا؟».

انحنى السكرتير الخاص وأبدى ملاحظة على نحو مؤثر: «إذا استمر الإضراب، بسبب الاستياء، أسبوعاً آخر، إن أبقتهم الثقة المفرطة مضربين أسبوعاً آخر، فستتكلف البلاد خمسين مليوناً». وربت على ركبة مساعد المفوض، «مزيداً من الضرائب، ونخسر الانتخابات القادمة هل ترى ماذا يحصل عندئذ؟»

لم يُجب مساعد المفوض. كان منحنياً فوق العشب الموطوء في ستريت هام كومون، وماكان ليرفع عينيه لعرض ألعاب نارية في قصر الكريستال، مهما كانت السماء ساطعة بالصواريخ المشتعلة، ضحك السكرتير الخاص وقال، مرة أخرى بصراحة أضفت انطباعاً لمكر عميق: «لامرتبة شرف للوزير على أية حال، ولا وكيل وزارة لي».

«لا أفهم»، انطلق مساعد المفوض. كانت العبارة مفضلّة لديه، وكان عدد المناسبات التي استطاع أن يستعملها فيها غير اعتيادي: في الليالي الأولى،

وعند مناقشة آخر قضية في السوق، وفي معرض صور، وعندما يواجهه أحدهم بمثال عن الفساد. ولكنّه عندما يقلب في ذهنه البيريه الصوفية ويلاحظ النسيج ونوع الحبكة، يفهم أكثر من الفنان الأكثر رهافة ويلاحظ أكثر من المرأة الأشد فضولاً.

- «الوزير مقتنع بفكرة أنك، أنت أكثر من أي فرد آخر، تحسّ بلندن، وبالمناطق الأكثر فقراً خاصة».

لم يُبدِ الوجه الأصفر النحيل أي ارتياح - أحبّ مساعد المفوض الدقة، «المناطق الأكثر فقراً خاصة. إني لاأفهم..ام... هذا المكان».

«آه»، قال السكرتير الخاص بمرح مصطنع، «يمكنني أن أجيب عن هذا المكان إذا كان بمقدورك الإجابة - لنقل - عن الأرصفة وبادينغتون ونوتنغ هيل و كينغز كروس والضواحي، وبالسام وستريت هام...».

«ستريت هام»، جمجم مساعد المفوض، مقاطعاً السيل التافه لكلام السكرتير.

- «لو تتمكن خلال أسبوع من إرسال تقرير خاص عن رأيك بما سيكون عليه تأثير تخفيض حكم الإعدام».

- «لايعجبني ذلك»، قال مساعد المفوض، دون تردد خلافاً لعادته.

- «خدمة شخصية، ياعزيزي» توسل السكرتير الخاص إليه، «لأنه تعب جداً قلق جداً...»

- لديه تقرير بالقضية، وملاحظات القاضي.

- لكنك لو تراه الآن، مقاتلاً كل إنش من طريقه: الخيار المحلي، والبيوتات المتحالفة.

- إذا كان يجد صعوبة في اتخاذ قرار فبإمكانه أن يرى الرجل بنفسه.

«أهذا ممكن؟ ليس الوزير طبعاً. إنه مشغول جداً بقضية منح التراخيص الرسمية لكن، ربما، أنا». ابتسم السكرتير ونفض سيجارته. «إنه يعتمد، كما تعلم، كثيراً على نصيحتي». أظهر اتكال الوزير عليه متواضعا تحت الضوء الخفي كفضول نزوي وكشيء عتيق بشع بصورة غير مألوفة.

ـ سآخذك إلى السجن الآن، إذا كان ذلك..ام... يهمك أو يساعدك.

ـ «هل يعني ذلك أنك موافق على إعلامنا»، قدح قداحته الآلية ثانية. «كيف سيفسر الناس ذلك؟»

صححه مساعد المفوض مرة أخرى: «في المناطق الأكثر فقراً؟» وثانية بإيماءة مدروسة نحو الأرائك الخضراء والمرأتين اللتين تركهما واللتين ابتسمتا له الآن من زاوية بعيدة، أجاب السكرتير عن دائرة بيركلي: «أن، يمكنني أن أتحدث عن البقية».

قال مساعد المفوض بحدةٍ وهو يغرز أظفاراً ثليمة في الأريكة، منتصباً بجذعه، «هل دخلت سجناً ذات مرة؟»

ـ أبداً.

«سيثير اهتمامك». راقب الوجه العليل بنفور، لم يكن يثق بأي امرىء يظهر عليه أنه موظف. ولم يعن له العمل السهل أو العمل الجزئي شيئاً، وهو الذي يركز كامل ذهنه الحاد البطيء على كلّ صغيرة في عمله: بيريه مطرزة، بنطال مستعمل، كرسي حديقة عامة، بطاقة حجرة الإيداع. ولا الرجال الذين قضى معهم أيامه موهوا حقيقة أنهم عملوا ـ عملوا بجدية، بشعور بالمسؤولية ليستمروا في الحياة ـ تحريون، سائقو باصات، وسطاء، رهائن، لصوص.

ـ مثير للغاية، أنا واثق.

فَضّل المتفرجون المروعون على بوابات السجن ينتظرون دقة الساعة وإرسال الكتاب المطبوع (محمولاً بحضور الحاكم، وطبيب السجن...) مرتعشين في الشتاء ببرد الصباح الباكر ومتأثرين في الصيف بالشمس الباردة الشاحبة وقد أحيطوا علما بالسبب الذي أبقاهم في منجاة خلف نضد محلاتهم، في سيرهم من السماك إلى البقال: عرفوا شيئاً عن الحجارة والحبل والكلس كان الجلاد بيربونت.

ـ «لم أرَ قاتلاً»، قال السكرتير الخاص. «في حدود علمي، طبعاً».

ـ «أجل»، فكّر مساعد المفوض، إني أفضل أولئك الآخرين. قال: «يمكننا أن نستقل باصاً من الرتين». لم يدرك لماذا على البلاد أن تدفع

لتاكسي كي ترضي اهتمام السكرتير الخاص أو تساعد وزير الداخلية لاتخاذ قرار عليه أن يكون قادراً على الوصول إليه دون صعوبة، كون كل الأوراق أمامه، بما فيها ملاحظات القاضي.

ـ لدي سيارة عند الزاوية تماماً.

شيء ما أقلق مساعد المفوض. فوقف متردداً على عتبة البيكاديللي. شيء ما قيل لم يفهمه، كان ينتمي لعالم غريب، ومع ذلك كان واجبه أن يفهم، شيء عن... كانت الأنوار قد أضيئت والفتيات احتشدن على الرصيف في الطريق إلى المترو. «ماذا كانوا يقولون؟» سأله، «عن عربة أطفال... ام... على تاكسي؟»

ضحك السكرتير. عربة أطفال على تاكسي ـ أنّى لي أن أعرف؟ ضحك بصوت عال إلى حد جعل فتاتي محل تلتفتان إليه بوجهيهما الصغيرين المشرقين. وشاب في ثياب قاتمة يحمل حقيبة دبلوماسية توقف فجأة وحدّق إليهما، وأخذ يراقبهما ينعطفان عند الزاوية، ويردد العبارة مرة تلو المرة: (عربة أطفال على تاكسيٍ) مقتنعاً أنه لن ينسى النكتة السخيفة التي جعلت الرجلين يضحكان كثيراً.

جلس السكرتير وقبعته المستديرة السوداء فوق ركبتيه، ذارعه اليمنى مرتخية، يتكلم عن أمور شتى، قرقعت الستائر في واجهات الموضة في نايتس بريدج موريشس، وغابت ناصية شارع سلون في الضباب الأزرق، أما في الكنغر رودس فكان يعاد إدخال الأثاث إلى المحلات. (لكنك ربما لاتقرأ الروايات). أقبلت النوارس فوق جسر باترسي تنزل خافقة حتى مستوى الزجاج، وطافت أنوار رصيف التايمز فوق النهر الرمادي ملامسة مركبين محملين بالورق ولتستقر على الطين والقوارب الراسية وجدار المطحنة. «كل ذلك يتوقف على زوجها، طبعاً». كانت محلات السمك ورقائق البطاطا فاتحة أبوابها، وطول الطريق من جسر باترسي وحتى عقدة كلابهام، عبر ازدحام الحافلات ومحلات الألبسة المستعملة، والمراحيض العامة والمعاهد المسائية، أعجب مساعد المفوض، مثلما أعجب مراراً، بجمال الوجوه الفتية الملونة برقة. تناول أصحابها أكياس صغيرة من الشيبس مقابل بنسات

قليلة. اصطفوا في أرتال من أجل المقاعد الأرخص في دور السينما، وفي الغبار والظلام، والتفسخ قهقهوا وهذروا مثل العصافير. كانوا فقراء، مجهدين، ليس لهم مستقبل. لكنهم عرفوا الميل الصحيح للبيريه، واللون الصحيح لأحمر الشفاه. «إني أفضّل أوسلو». إنهم رائعون، فكر، وفيما ابتعدت السيارة عن الحشود وخطوط الحافلات، حزن للحظة كمن يغادر بيته. لاحت الفيلات الفيكتورية على طريق قندهار وخيبر تراس، وكابول ستريت في الضباب مثل خوذات مزدانة بالرياش في الحروب الإمبراطورية القديمة.

تسلقت السيارة تلاً وقطعت خط السكة الحديدية جانب فندق. ولدى انعطافها سقطت أشعة مصابيحها الأمامية على بعض الأشجار العارية وحفرة رملية حيث كان الأطفال يلعبون في العتمة. ثم سلكت طريقاً طويلة مستقيمة حذاء حافة السكة الحديدية، وقد تجاوزهم قطار منطلق إلى الجنوب مطلقاً شرره فوق السقف. أومأ السكرتير صوب كتلة داكنة خلف السكة الحديدية. «أهذا هو السجن؟»

ـ هذه مدرسة بنات.

انعطفت السيارة ثانية. فتح شرطي باب صندوق أزرق جانب حانة، وتلألأ لسان أحمر من الضوء في مصباح زجاجي على سطحه. ساروا بين أراض مستأجرة وحديقة حضانة نحو بوابة بارتفاع عشرين قدم، وخلف جدار، سقوف أبنية مربعة وبرج عال سداسي. «لقد وصلنا»، قال مساعد المفوض، وجلس كلاهما صامتاً للحظة في السيارة، بينما مرّ إلى جانبهم قطار غير مرئي خلف الأراضي المستأجرة وحدائق الحضانة. غريب أن يسمع المرء هذا في زنزانة، قال السكرتير بلهجة كئيبة.

ـ يمكنهم أن يعرفوا الوقت بواسطته، قال مساعد المفوض.

فُتحَت البوابة بلطف، يدفعها حارس على سكة معدنية، ثم انغلقت خلفهم. كانوا محاطين بالأبنية الحجرية وبالأضواء الباهرة. كان عدد كبير من الرجال يغنون في مكان ما. لدى الجناح (جـ) حفلة موسيقية، أوضح رئيس الحرس. وقد سمعوا إيقاعات بيانو لم يُدوزن منذ زمن بعيد أثناء

عبورهم القاعة. وفوق، في الغرفة الزجاجية، في قمة البرج السداسي، كان الحراس في حركة دائبة جيئة وذهابا.

- «الحاكم في الحفل»، قال رئيس الحرس.

- لاتزعجه. هذا السيد يريد أن يلقي نظرة على دروفر.

أدار رئيس الحرس عينيه العجوزين الطيبتين نحو السكرتير: «هل سبق للسيد أن جاء إلى هنا؟».

«لا.» قال السكرتير. «لا، إنه لأمر مثير جداً». في القاعة، كان ثمة رجل يتحدث برتابة. التقط مساعد المفوض بعضاً من كلماته: «طوينا خيامنا مثل الأعراب».

تردد رئيس الحرس «آه، هذا أدامز. إنه راوية رائع. لدينا هنا فنانون حقيقيون. يجعل بعضهم الحمار يبكي».

- «ماذا فعل؟» سأل السكرتير.

«حاول قطع عنق أحدهم أو شيئاً سخيفاً من هذا القبيل»، قال رئيس الحرس بلطف. «آه، لكن استمعوا إلى هذا. إنه متعة». علا صوت جهوري يغني. وقد تخيل مساعد المفوض أنه يمكنه أن يسمع وقع أقدام الحراس يزرعون البرج عبر هواء الليل البارد بين مقطع وآخر.

تابعوا مسيرهم، ورئيس الحرس يشير إلى كتلة صخرية مكعبة ضخمة واحدة بعد أخرى، وشرع يشرح للسكرتير جغرافية السجن. «ذلك الجناح (آ) مخصص للسجناء الجدد. إذا حسّنوا سلوكهم ينقلون إلى تلك المجموعة هناك - الجناح (ب). الجناح (جـ) الذي مررنا به هو المنزلة الأعلى. طبعاً إذا صدرت أي شكوى ضدهم ينقلون إلى الأدنى، مثل مدرسة تماماً». قال رئيس الحرس رافعاً عينيه العجوزين الوديعتين بتعبير من المهابة تجاه الجناح (آ).

«وماذا يحصِّلون في الجناح (جـ)؟» سأله السكرتير.

- لهم امتيازات معينة. يحصلون على العدد الذي يريدونه من كتب المكتبة. و ينالون زبدة أكثر مع خبزهم.

جرس أجوف ثقيل أخذ يقرع في البرج.

«كل إلى زنزانته، إلا الجناح (جـ)»، أوضح رئيس الحرس.

«أكيد»، قال السكرتير، «مقارنتك مع المدرسة كانت صحيحة. وكم من الوقت يحتاجون ليرتقوا إلى الجناح (ج)؟»

«ينجح بعضهم خلال عام»، قال رئيس الحرس.

طاف ضوء كشاف، في أعلى البرج، حول السجن ببطء مظهراً كتلة حجرية رمادية بعد أخرى، فيما الحرس يضرب الأرضية بقدميه ويضرب. ثم توقف الحرس، وخبا الضوء وفقدت المصابيح فوق كل زاوية وفوق الممر قوتها للحظة بعد اللمعان، وسقطت الظلال مثل التراب من رفش مائل.

«كالأطفال تماماً»، قال رئيس الحرس. «نرعاهم كالأطفال تماماً. لا أعتقد كان لديك سجون مثل هذه، خارجاً، في الشرق، ياسيدي؟»

«لا»، قال مساعد المفوض، «ليس...ام... كهذا تماماً».

«يُفضَّل أن ترى المخابز»، قال رئيس الحرس للسكرتير. «نخبز خبزنا كلّه هنا إنه خبز جيّد شهي. يحصل الضباط على نفس الخبز كالسجناء تماماً».

تابعوا سيرهم، وقرقعة أحذيتهم مسموعة على الأسفلت. «ترى تلك؟ إنها كنيسة الروم الكاثوليك. ثم هناك الكنيس، وكنيسة الانغليكان. ذاك البناء هناك، هل تراه؟ هناك يشاهدون زوارهم. مثل أكشاك الهاتف. زجاج في الوسط وهاتف في كل جهة. عندما يريدون المشاهدة ينظرون عبر الزجاج، وعندما يريدون التكلم يهتفون عبر الجهاز. إنها لبراعة، أليس كذلك؟ بعد سنة، إذا تصرفوا حسناً، طبعاً، نسمح لهم بالعناق. يمكنهم الخروج والجلوس مع زوارهم».

«إنسانية، إنسانية جداً»، قال السكرتير. أومأ مساعد المفوض ووجهه أكثر صفرة من ذي قبل تحت ضوء المصباح. ليس للنزاع القديم بين العقاب و الوقاية من معنى بالنسبة له ـ لم يكن له أية علاقة بالسجن، وماكان

عقله لينفعل كما هو الآن برفيق غير ملائم لمزاجه، كان ذلك يسره. كان عمله، ببساطة، أن يحافظ على النظام القائم، ولم يجعله ذلك يستغرب إذا حكمت العدالة على امرىء بالحياة في زنزانة عامة في سجن مداري صغير، حيث لديه مساحة الأرضية ـ بالكاد تتسع له والشمس تلتهب عبر القضبان أو في زنزانة خاصة في الجناح (جـ) مع طاولة لكتب المكتبة وغناء لمرة في الأسبوع. لقد رأى رجالاً سعداء في الزنزانة العامة يقامرون من أجل خبز إضافي، ويغنون حينما يدير السجان ظهره، وقد سمع أن رجالاً قد جنوا في السجون الإنكليزية أحياناً.

«تلك البناية هناك؟» سأله السكرتير: «ماتلك؟ قاعة بليارد؟ قاعة جمباز؟»

«غرفة الإعدام»، قال رئيس الحرس، مسرعاً خطوه، لكنه مبتهج في اللحظة التالية عند رؤية كتلة حجرية مكعبة ضخمة أخرى محاطة بالقضبان، «وها نحن في الجناح (آ). هل ترغب في التحدث إلى دروفر، يا سيدي؟».

«لا، لا»، قال السكرتير. «ليس مفيداً. لن يرغب الوزير أن أنعش آماله».

لم يكن الممر الطويل الخالي ذو الأبواب على جانبيه هادئاً تماماً. كان مليئاً بتنفس بطيء. تسرب الصوت هابطاً من أرضية معدنية تلمع بالأضواء الكهربائية. قرقعت جزمة حارس على الدرجات المعدنية فيما شق طريقه فوق رؤوسهم صاعداً إلى الأعلى سقط التنفس عليهم، وقد وقفوا وسط المبنى مثل تساقط التراب الناعم.

ـ لديهم ساعة للقراءة قبل إطفاء الأنوار.

كانوا مدفونين ليس تحت تنفس أربعمئة رجل فحسب، بل تقليب الصفحات أيضاً. أمكنهم سماع الحفيف الخفيف كفئران التبن على طول الممر الذي وقفوا فيه. وصلهم ضعيفاً جداً أحياناً من الطبقة التالية للزنزانات على ارتفاع عشرة أقدام فوق رؤوسهم، إنما على ارتفاع أربعة طوابق حتى جزمة الحارس الصاعد عبر الوهج الأزرق لم تكن مسموعة.

نزلوا عبر القاعة إلى أخرى أصغر لم تستعمل منذ زمن طويل. «ذات مرة»، قال الحارس، «وضع الأحداث المشاغبون هناك. على الطاولة في مركز القاعة، حيث أطعم الفتيان، كانت بعض الورود الخالدة، في مرطبانات المربى، جمعت الغبار. زنزانتان في النهاية البعيدة، تم دمجهما إلى واحدة كي تؤوي المحكوم واثنين من حراسه».

لم يكن دروفر يقرأ، تجسسوا عليه عبر نافذة بقياس بطاقة بريدية في باب الزنزانة. كان نائماً وهو جالس على كرسيه، ويداه المضمومتان معلقتان بين ركبتيه. ربما كان جالساً لرسمه في ثيابه الرمادية الفضفاضة غير الاعتيادية، مرئياً في وضع أفضل منه نصف مختفٍ تحت غطاء الباص، لكنه في أحلامه بدا كأنه مازال في باص. ضغطت قدمه على الأرضية، ويداه انفرجتا قليلاً والتوتا. ثم تباعدت جفونه وظهرت عيناه مثل السكاكر الزرقاء الصافية التي يمصها الأطفال. أعطى مظهر قوة و عناد، مظهر من هو جدير بالتعويل عليه، مظهر بلادة خفيفة. كانت حركاته كلها لطيفة. عندما التقط كتاباً تحركت يداه الكبيرتان بارتباك واستنكار وقد أمسكتا بالكتاب بالمقلوب للحظات.

قال السكرتير: «تعلم، يبدو أني أعرف وجهه. لا أظنه على الخط ١٣؟»

«لا، ١٠ آ»، قال رئيس الحرس.

«أعتقد أنه نموذج»، دمدم السكرتير، وعندئذ مرّ بخاطره موكب كامل لرجال ضخام بمعاطف ثقيلة هادئين جلسوا في أقفاص زجاجية يديرون عجلة القيادة هذا الاتجاه وذاك، يصارعونها عند المنعطفات الحارة، رافعين إبهاماتهم في الطرق الريفية لسائقين آخرين متجهين إلى بيوتهم تحت المطر من ميدنهيد..

«إنه هادىء، قال رئيس الحرس، نحاول أن نبهجه قليلاً لكنه يبدو لايعرف أين هو بالضبط. أظنه غبياً بعض الشيء. جاء عدد من زملائه ورأوه منذ أيام. لم يستطع أن يدرك في البداية أنهم لايمكنهم سماعه إذا تكلم عبر الزجاج. أراد أن يرى ويسمع في نفس الوقت. ومع ذلك لم يكن

لديه الكثير ليقوله على أيّة حال. اهتم بعض الشيء عندما سمع أن الخط ١٠ آ قد بدل. لا»، قال رئيس الحرس هازّاً رأسه، «ليس سهلاً أن تعرفه. مهما يكن، عليه أن يتبدل الآن على اعتبار أنه يشارك اثنين منا. إذا لم يصبح أليفاً قليلاً فالحال لن يكون أفضل من جنازة».

ساروا عائدين عبر الساحة الإسفلتية. مشى الحراس رائحين غادين في البرج، وكان الرجال ذوو الثياب الرمادية يخرجون من غرفة الاحتفالات ويعبرون إلى الجناح (جـ). «هل زارته زوجته؟»

«إنها هادئة أيضاً»، قال رئيس الحرس. «إنهما زوج هادىء».

«يا للمرأة المسكينة»، قال السكرتير بطريقة صعبة، وعادت أفكاره إلى الليدي كولينز، التي ذاع اسم زوجها في سوق الأسهم قبل أن يدخل السجن لخمس سنوات، وإلى الهدوء والظلام في البيت، في ساحة مونتاثمو والمصاريع مفتوحة والناظر يرد على المكالمات الهاتفية. لكن مساعد المفوض فكر بالشائعات في محلات السمك والشيبس، وبالجيران اللطفاء، وبآلام صباحات الاثنين إذ الغسيل منشور في الحديقة الخلفية، وبالأصوات تنادي جيئة وذهاباً فوق الأسيجة الخشبية. لم يكن ذلك أسوأ الآلام، الأمل والخوف في زنزانة، زيارات القس. كانت لديه ذكرى غامضة أن أحدهم رسم خريطة جهنم على شكل دوائر، وفيما دار الضوء الكاشف وجلاهم وتجاوزهم، وتوقف الجرس عن الرنين للجناح (جـ) ليعودوا إلى زنزاناتهم، فكر هذه هي الدائرة الخارجية فحسب. انزلقت البوابة الكبيرة على سكتها المعدنية وعبرت السيارة خارجة. وضع السكرتير ذراعه على المسند وقال بلطف، وبلسان بارد كحجر: «ستخبرنا إذاً، أليس كذلك؟ بماذا سيفكر الناس، وما التأثير...؟»

كان الرجل الذي يمزّق نماذج ورقية والسوبرانو الرجالي يؤديان مشهداً أمام صفوف القسم الخلفي، ارتفعت مصاريع المحلات، واتجهت الموسات غرباً. وقد أعيد عرض الأفلام الرئيسية للمرة الثانية في دور السينما الممتازة، ومواقف التاكسي كانت تذوب وتعود تتشكل. في مقهى فرنسا، في شارع ليتل كومبتون قدم بارمان فنجاني قهوة وباع كيساً من الحلوى. أنتج مصنع

الكبريت في باترسي آخر عشر آلاف علبة، بعمل إضافي. تصادمت السيارات في مدينة ألعاب شارع إكسفورد وانطلقت بسرعة، وسلمت صحف المساء إلى المطبعة للطبعة الأخيرة ـ اغتصاب وقتل في ستريت هام. آخر التطورات، السيد ماكدونالد يطير إلى لوزي ماوث، مؤتمر نزع السلاح يتأجل. خدمات خاصة للاعبي كرة القدم، أسرة من زوج وزوجة لديهما بوليصة تأمين تربح عشرة آلاف جنيه. أمّن اليوم، في كل محطة، في الدائرة الخارجية، توقف قطار كل دقيقتين.

- 2 -

فتح كوندر إحدى الحجرات العازلة للصوت في الطابق العلـوي، وأغلـق الباب. وحالاً انقطع صوت كل الآلات الكاتبة في الغرفة، سقطت مفاتيحها بلطف كأنها من الريش. قوطع رئيس المحررين، الجالس على مقعده وذقنه تضغط علـى ركبتيـه، في منتصـف الجملـة: «انتظـرت عنـد ونسـتون كـلّ الصباح، وعندما خرج و رأسه مضمد كله، قال فقط ـ» جلس كبار الكتـاب في الطـابق الأسـفل إلى مكـاتب ودخنـوا ومضغـوا سـكاكر، بانتظـار الكلمـة المناسبة، باحثين في المعاجم، موجهـين الـرأي العـام، في الطـابق الأسـفل، جلس مساعدو التحريـر إلى طـاولات طويلـة و مـرّوا بـأقلامهم الزرقـاء علـى النسـخة، خربشـوا عنـاوين رئيسـية علـى قصاصـات ورقيـة، وثبتـوا كـل المجموعة لولبياً بقوقعة معدنيـة وقذفوهـا تئـن وتقعقـع إلى غرفـة التنضيـد. القسم ٢٣٠١.

في الطابق تحت، دار البـاب الـدّوار، ودار، وجلـس البـواب في كشـكه يسأل: «هل لديك موعد؟» كانت لفّات الورق تتدحرج كإسطوانات رخاميـة صوب المكنات التي درت ودارت تلفـظ: رقيـب المسـاء مضغوطـة ومطويـة: السيد ماكدونالد يطير إلى الوطن إلى لوزي ماوت. هل لديك بوليصة تـأمين؟ مرزومة في مجموعات من مئة عدد، وتدفعها بقـوة إلى منحـدر معدنـي عـبر مساحة من الظلام، إلى العربة المنتظرة.

ـ مكتب الصحافة، من فضلك.

ركض مراسل إلى الطوابق العلوية من غرفة مسـاعدي التحريـر إلى غرفـة رؤساء التحرير، ومنها إلى دائرة التحقيقات: «أين توبولـو بـامبو؟» سـقطت مفاتيح الآلات الكاتبة صامتة في غرفة المراسلين، جلس الرئيـس إلى طاولتـه وفمه ينفتح وينغلق، بينما غشّى تنفس كوندر الزجاج البارد.

«نعم، أنا كوندر. هل حصلت على أيّة معلومات حول جريمة تريت هام؟ ألا تستطيع أن تختلق شيئاً ما؟ آه، حسن. لا الرئيس ليس مهتماً كثيراً بدروفر. ماذا عن بادينفتون؟ أظنكم ماتزالون متمسكين برتليدج. ليست الأدلة كافية؟ تعني قبضتم على الرجّل الخطأ ثانية، أعرفكم. ربما كان هناك خبر في ذلك لو تناول الرئيس وجبة سيئة. لاتلمني. أجل، سأذهب سريعاً. زهري، زهري هذه الأيام. هل هي قصّة جيّدة؟ زوجتي تريدني في السرير عند الساعة الحادية عشرة. آه، حسن. الرجل الأخضر في العاشرة وخمس وأربعين دقيقة. كل الأطفال يرسلون حبهم».

قطع كوندر المكالمة وفتح الباب. قرقعت الطابعات مثل فرقة خيالة، وقال رئيس المراسلين: سألتها، لكن مـذا كنت تفعلين في بيجامته؟ «لمع وجه كوندر ورأسه الأصلع بلطف تحت المصباح، قال بكآبة معتادة: «لاشيء يحصل في سكوتلانديارد».

ـ «لا شيء عن ستريت هام؟».

ـ «لا، وقد أطلقوا سراح رتيلدج. لم يكن الرجل المطلوب. حاولوا أن يعطوني فكرة مبتذلة عن دروفر».

ـ الرئيس غير مهتم بكشوفاتك الحمراء».

ـ «لا، هل أستطيع الذهاب؟ لدي لقاء في اجتماع حزبي هذا المساء».

«متعاطف مع الحمر؟» سأله رئيس المراسلين بقلق.

«زهري، زهري جداً»، قال كوندر بصوت خفيض حزين وحيوية تنحط بوضوح.

ـ «علينا أن نحصل على سطر عن رتليدج للطبعة الأخيرة إذا تمكنا. لاحق هذه القصة حتى الطباعة وأعرضها على مساعديّ التحرير في طريقك».

أخذ كوندر المصعد إلى الطابق التحتاني. كان أسرع لو مشى، لكنه لبضع ثوان، فيما اهتز نحو الأسفل في القفص المعدني العتيق، كان زعيم الصناعة مغادراً غرفته كمدير في الإمبريال كيميكالز. خطا خارجاً، وعاد ثانية الصحافي الناجح، الرجل العائلي مع زوجته المخلصة وستة أطفال

يعيلهم، دافع الضرائب، العمود الفقري للبلاد. لكن وجهه المستدير الوضاء ورأسه الأصلع وفمه الكئيب وجفنيه الثقيلين لم تتبدل أبداً.

مرّ به رجل في الكريدور يمشي بسرعة وناداه من فوق كتفه: «حسن، يا كوندر، كيف الحمر؟» أومأ كوندر دون ابتسامة. كوندر الذي لم يعد العمود الفقري للبلاد، بل اليد الخفية. كوندر الثوري. لكنه سرعان ما تبدلت شخصيته وتغيرت كما تقلب صفحة في كتاب، وجانب كرسي مساعد رئيس التحرير استمال ثانية الصحفي القادر والزوج والأب: «كيف الأولاد يا كوندر؟»

ـ «أخشى السعال الديكي. الأصفر. لقد عادهم الطبيب هذا العصر. سأعرف عندما أرجع إلى البيت. هل أحاول أن أضع خبر رتليدج هذا تحت خبر ستريت هام؟»

ـ قد يضطرون إلى وضعه في خانة الأخبار المفاجئة. «هل يساوي قيمته برأيك، ياكوندر؟» وسرعان ما صار كوندر الرجل الذي يعرف أسرار سكوتلانديارد، المراسل الجنائي، لكن الصوت الكئيب نفسه الذي حكى عن السعال الديكي أجاب: «أمر تافه». سأله الكاتب في غرفة التنضيد: «كيف الزوجة، ياسيد كوندر؟» بينما فتّش الأوراق على مكتبه بحثاً عن مخطط الصفحة، وسأله المنضد وهو يفكّك لوحاً كبيراً من الأحرف المعدنية ليقحم خبر كوندر: وكيف يناسبك البيت الجديد، ياسيد كوندر؟ لأنهم فيما جهلوا زعيم الصناعة وضحكوا على الثوري وابتسموا في سرهم على صديق سكوتلانديارد الحميم، فقد قبلوا لعشر سنوات الرجل صاحب العائلة، مع أن ذلك أيضاً كان واحدة من الشخصيات الكثيرة التي ينتحلها عقله الحزين وغير الراضي. لكنه لم يستغرب أنهم اختاروا عشوائياً قبول ذلك على أنه الحقيقة بين تلك الأكاذيب ولا حتى خلال الدقائق القليلة من اليوم حينما يكون هو كوندر الحقيقي، الرجل العازب ذو مجموعة القطع النقدية الأجنبية الذي عاش في غرفة واحدة لجلوسه ونومه في شارع ليتل كومبتون.

ـ إنّا نعاني مشكلة في الحمّام.

ـ آه.

ـ «كم أحسدكم أيها الشباب العازبون»، وكان صحيحاً: فكوندر الرجل المتزوج مع السعال الديكي في البيت الجديد والحمام المعطوب والزوجة التي تريده في السرير عند الحادية عشرة، حسد استقلالية المنضد الشاب، حسده مع علمه أنه سيكون هو نفسه خلال عدة ساعات شاباً ومستقلاً منغمساً في شهواته الحيوانية، يدوّر شمسيته في البيكاديللي أو عبر الحديقة العامة، تبادره النساء بالحديث، لكنهن لايصطحبنه أبداً إلى ماوراء أبوابهن أو مداخل فنادقهن، لأنه على عتبة المتعة يمنعه كوندر، الثوري الذي يجب ألا تضعفه المتعة، أو كوندر، الرجل المتزوج. سار كوندر بعيداً على طول ممر شع بالمرايا المشوّهة.

❄ ❄ ❄

دقت الساعة في البرج العالي السادسة والنصف، وصرخت الصافرة خلال الغسق. لم يستجب أحد. استمر العمل الإضافي في مصنع الكبريت، في باترسي رايز. لكن الصافرة التي كانت موصولة كهربائياً بالساعة ظلت تصرخ لدقيقة ونصف، فيما قفزت مائة علبة كبريت زرقاء وبيضاء من الآلات إلى سير ضخم جرها بأناة، كأنها أكفان صغيرة في محرقة جثث، إلى تيار الهواء الحار في غرفة التجفيف. عملت الفتيات المئة والخمسون في غرفة الآلات بانتظام ضربات القلب، يد إلى اليسار، يد إلى اليمين، ضغطة قدم، علبة رطبة طارت خارجاً، دارت في الهواء، ووقعت على السير. كان مستحيلاً سماع العلب تقع، أو صوتاً يتكلم، بسبب ضجيج الآلات، الآلات في القاعة، الآلات في القبو حيث تقطع جذوع الأشجار إلى قطع صغيرة من الخشب، الآلات في الغرفة الأعلى، حيث سارت عيدان الكبريت ذات الرؤوس الوردية على طوق دوار خمسين إلى الأعلى صوب السقف وإلى الأسفل صوب رواقيد الكبريت.

حركت كاي ريمر يداً إلى اليسار ويداً إلى اليمين، وضغطت قدمها إلى الأسفل وغمزت بعينها اليسرى. غمزت الفتاة في الجهة المقابلة مرتين، مرّت الرسالة بين لفظ الآلات وقبل أن يتمكن السير من التحرك مسافة قدم ـ «هل ستصطادين الليلة؟» ـ «لا، اللعنة».

توقف رجلان للحظة إلى جانب الآلات، انفتح فم بصرخة يمكن سماعها كهمسة واهنة: «من هنا إلى التجفيف» لكن الكلمة الأخيرة دفنت بتحطيم الصوت أعمق من أن يميز. غاب المدير والزائر عن الأنظار وأبرقت الحواجب رسائل من فوق وتحت الآلات: «هل تقبلينه؟» «لن أقبلَه حتى لو دفع لي».

يد إلى اليسار، يد إلى اليمين، ضغطة قدم.

أشار المدير في الساحة: « ذلك الجناح (آ): يذهب المستخدمون الجدد إلى هناك لأبسط العمليات. بعدئذ، إذا عملوا جيداً ينتقلون إلى الجناح (ب)، وهكذا إلى الجناح (جـ). كلهم في الجناح (جـ) مهرة. أي خطأ ينقل صاحبه إلى الجناح (ب)».

«أظنهم يتقاضون أجوراً أعلى»، قال الزائر.

- «وامتيازات أخرى: ربع ساعة أكثر وقت الغداء، واستخدام غرفة الحفلات».

يد إلى اليسار، يد إلى اليمين، ضغطة قدم. ارتفعت الحواجب في الأسفل في غرفة الآلات في الجناح (جـ) وخفقت جفون الأعين طالعة نازلة محادثات صامتة تمزق حاجز الضجيج بيسر. «سينما؟»، «كيف ابنك؟»، «سأخرج الليلة». مئة وخمسون علبة كبريت كانت محمولة إلى غرفة التجفيف.

- «طعام شهي في الندوة. الطعام نفسه يُقدَّم إلى الإدارة».

- «ملايين علب الكبريت في الشهر»، قال الزائر. «هذا رائع عندما تفكر به».

- «لدينا حتى مشفانا الخاص طبعاً، هناك حوادث أحياناً. لايمكن للمرء تجنبها. إهمال، حماقة...»

يدٌ إلى اليسار، يدٌ إلى اليمين، قدم تضغط أسفل. انقطع أصبع من أصله كأنه لم يكن أبداً. انسحقت قدم بين عجلتين دوارتين متعارضتين. «ذلك لم يؤذها أبداً. لم تعانِ شيئاً. وهنت عند رؤية الدم». «شجاعة جداً». ثرثرت طول الطريق محمولةً على النقالة إلى غرفة العمليات. منافع المرض نصف

الأجور، عجز، اعتذارات الإدارة. وقفت الفتيات بين خطوط الآلات ملوّنات الشفاه، مجعدات الشعر يطرفن جفونهن، غير قادرات على الكلام بسبب الضجيج، يفكرن في الفتيات والأفلام ونجوم السينما: نورما، غريتا، مارلين، كاي. وقفت الفتيات بين الموت والتشوه، البطالة والتسكع، العجلات المسننة والناقل إلى أن دارت عقارب الساعة من الثامنة صباحاً وحتى الواحدة ـ حليب وبسكويت في الحادية عشرة ـ وبعدها الحركة البطيئة الطويلة إلى السادسة. تحركت مئتا علبة كبريت أعلى إلى غرفة التجفيف. أشارت عقارب الساعة إلى السابعة إلا خمس دقائق. حركت غريتا يداً إلى اليسار، نورما يداً إلى اليمين، ضغطت مارلين قدمها إلى الأسفل، حاولت كاي رايمر أن ترسم صورتها في الهواء المغبر الجامد الرأس مائل برغبة حسيّة كسولة واهنة، والشفتان البرتقاليتان منفرجتان قليلاً. دقّت الساعة وسكنت كلّ الآلات فوراً. بقي الكبريت نصف مغطس في منتصف الدائرة، انخفضت إضاءة المصابيح الكهربائية بنصف طاقتها، وهرعت الفتيات إلى المدخل والأدراج. كسب كل مستخدم في الجناح (جـ) تسعة بنسات عملاً إضافياً.

في غرفة اللباس، وضعت نورما قبعتها، ومشطت غريتا شعرها ومكيجت مارلين وجهها، قالت نورما: «كاي أين ستذهبين الليلة؟»

«إلى اجتماع حزبي»، قالت كاي.

«ياللقذارة»، قالت غريتا. ابتسمت كاي رايمر، استطاعت تحمل الابتسام. كانت ذاهبة حيث خمسون رجلاً لكل امرأة. ستمضي غريتا المساء مع فتى واحد في سينما، نورما مع بضعة رجال شاحبين من الجوقة في اجتماع كنيسة. الفن، السياسة، الكنيسة، لقد جربتها كاي رايمر كلها.

لن تقابلي أحداً في تلك اللقاءات، قالت نورما. جربت كاي رايمر اسم جولز على لسانها. تركت سلسلة أسماء تسقط وهي تبتسم ابتسامة واثقة غير واعية على مدى الممر الطويل إلى البوابة: تيري، هربرت، أرثر، جو. رحبت برنين اسم أي رجل بسعادة وفضول وجهل مطبق. بيتر، بيل، جنجر، فرانك.

واجهها اسم دروفر بالأحرف الكبيرة من ملصق على البوابة، والسعادة والأمل هجراها. اسم الرجل الذي رأته على طاولة الإفطار طيلة ثلاث سنوات وهو يقطع رغيف الخبز أو يحرك فنجان شايه، الرجل الذي تزوجته أختها، هبّ عليها من الصحيفة المجعدة. قرأت الملصق مرتين: سقطاستئناف دروفر. فكرت، عليّ أن أعود إلى ميلي. يجب ألا أذهب إلى الإجتماع. بيتر، بيل، خنجر، فرانك. وقفت على الرصيف فركت الحافة بقدمها. تيري، هربرت، أرثر، جو. لقد قابلتهم جميعاً مع دروفر. يجب أن أذهب إلى البيت. ستكون ميلي يائسة لكن اسماً آخر وقع في الميزان: السيد سوروغيت.

مارغبت ميلي قط أن يصطحبني جيم إلى الإجتماعات. أحبته ميلي وكانت غيورة. كنست ريح باردة الرصيف، حاملة مزقة ورق فضي من علبة شوكولاته تحت ضوء المصباح. أحبته ميلي. لفت كاي رايمر نفسها للدفء وفكرة الحب، تباعدت شفتاها البرتقاليتان، وتصارع على وجهها بؤس أختها مع الإثارة والأمل ولمسة رجل في الظلام. طبعاً، يجب أن أذهب إلى البيت، لكنها أسقطت الاسم الأخير، جولز، برفق وسرية.

بينما مرّت بسرعة أمام نوافذ محل كان مايزال مضاء انعكس وجهها للحظات ضارياً دفاعاً عن السعادة عبر أحذية غرفة النوم واللحوم المطبوخة الجاهزة. كان ثمة ضراوة حتى في خطوها، خفيف وسريع كحيوان يفشخ فوهة كهف حماية لصغاره. ميلي تحبه، لكنها هرعت لنجدة سعادتها وهي تتنفس بثقة ضعيفة في الظلام. الملصق لايعني شيئاً على الإطلاق. سيخفضون حكمه. إنه ليس قاتلاً.

كان هناك شخص ينتظر عند ناصية الشارع. ظنته في البدء غريباً، لأنه كان في الظل. ثم فكرت لربما كان جولز. وعندما صارت على بعد عشرين ياردة عرفته أنه أخو جيم دروفر. تطلعت إليه بعدوانية فيما وقف في لباسه الأسود، يد نحيلة تحمل حقيبة دبلوماسية. عرفت أنه كان ينتظرها.

ـ هل رأيت ذلك؟

ـ نعم.

ـ أين ذاهبة؟.

«كونراد، لدي اجتماع». هتفت، فارقتها السعادة والبهجة والمتعة. وقالت بصورة واهنة: «أعتقد، ينبغي أن أذهب إلى البيت».

ـ هل ميلي وحدها؟

ـ نعم.

قال: «لا أرى لماذا أنت مضطرة للذهاب إلى البيت. أنا ذاهب. لا تعرفين أخي كما عرفته. ميلي وأنا يمكننا أن نتحدث». استند إلى واجهة محل ورأت خلفه صفاً من المعاطف المستعملة بتلاشي المحل المعتم. «كنت في المحكمة طوال اليوم». نظرت إليه بسرعة، لأن الفكرة التي خطرت لها: إنه سيبكي، سيتوقف الناس ويحدقون فينا. لكن وجهه لم يكن أكثر بياضاً مما كان عليه دائماً. أعصابه مشدودة بتلك الطريقة نفسها تماماً منذ عرفته. شاحب، رثّ، متوتر بشدة، لقد تقدم من مركز إلى مركز في مكتبه للتأمين بتحمل رجل ينتظر صرفه من العمل. وفيما راقبته فقدت الإحساس بكلماته ولم تكن لديها أدنى فكرة عن مقصده لما قال: «مزحة سخيفة». سألها: «هل حملت الناس على توقيع الاسترحام؟»

كررت: «استرحام» فغضب، وهو يقبض على حقيبته الدبلوماسية. «لابد من عمل شيءما. يجب أن تقدم استرحاماً».

أوضحت: «لكن لايمكنني الطلب إلى الناس أثناء العمل، ولم أستطع أن أخبرهم أن الأمر متعلق بزوج ميلي». وجّه طعنة بحدة شاحبة: «ترفضين فعل شيء بسيط»، لكنه أحبطه مظهرها. كانت كل آلات المصنع خلفها. وقد قاتلت اتساقها وفولاذها الرمادي بشفاه برتقالية وشعر متموج، ومع ذلك كانت كواحدة منها مثل مسحة دهان براق على مدخنة. «لن يرضى المدير بذلك. سيطردني عندما تتاح له فرصة».

لم يكن الجبن من التكلم بل الواقعية. «مافائدة دزينة أسماء؟ على المرء أن يعيش. الأمر مختلف بالنسبة لك». بيّنت بلطف كم يختلف هو. كان موظفاً رئيسياً، لا يمكن الإستغناء عنه بالنسبة للمكتب. لايمكنهم بمجرد أن يخرجوا إلى الشارع أن يجدوا رئيس كتبة آخر. «كل امرىء يقدر أن يقوم بعملي. أما أنت»، أخذت بالإعتبار المعطف الأسود والياقة المنشاة والوجه

الفتي الهرم، بكبرياء وازدراء، كأنهـا تقـول، ليـس كـل امـرىء يمكنـه أن يصير مثلك، وليس كل امرىء يرغب بذلك، «أنت لديك عقل».

استندا بطولهما إلى المحل ليدعا فتيات المصنع يعبرن، واهتزت خلفهما المعاطف المستعملة والبلوزات القـذرة باقـتراب صـاحب المحـل منهـا. قـال كونراد دروفر متذمراً: «من حظنا أن يمتلك أحدنا عقلاً». لكنّها لم تستطع أن تدرك من نبرة صوته كم تمنّى أن يكون غيره صاحب العقل. عنى العقل له أن عليه أن يعمل بمشقة أكبر في المدرسة الإبتدائيـة وأن يعـاني أكـثر في المدرسة الثانوية من أولئك الذين ولدوا متحررين من إسـاره. مـازال بإمكانـه سماع الكورس الخبيث يخبرونه أنه المفضل عند الأساتذة، ويسـخرون منـه للإسم الطنان الذي ربطه به ذووه مثـل علامـة مميزة للعقـل منـذ الـولادة. العقل، مثل حرارة رهيبة، أحـال العـالم حولـه إلى صحـراء، وعـبر الرمـال مميزة في السراب العرضي رأى الحشود الغبية تلعب وتضحك، ودون تفكير تستمتع بالرقة والحنو ورفقة الحب.

ـ «قل لي الآن: هل تريد شراء معطف أو بلـوزة أو بنطلـون؟ بذلـة صيد رائعة بخمسة وعشرين شلناً. لاحاجة بك للذهاب إلى سـافيل رو للتسـوق». كان صف الألبسة مايزال يرتعش خلفه.

«لا، لا،» قال كونراد دروفر. «لا أريد شيئاً».

ـ «حسن. إذاً قل لي: أتراه عدلاً أن تغلق محلـي بحديثـك مـع فتـاتك؟ يجب أن أكسب عيشي، أليس كذلك؟ حسن. قل لي...»

«تعال، نبتعد»، قالت كاي، لكنه بقي متردداً، يتسـاءل فيمـا إذا كـان البائع على حق، لم يكن عدلاً. يجب عليه أن يشـتري ربطـة عنـق أو زوج جوارب، شيئاً ما رخيصاً يستطيع تحمله.

ـ «آه، لا. انتظر لحظة، قل لي...»

«اخرس»، قالت كاي رايمر آخذة كونراد من ذراعه تسحبه بعيداً قليـلاً وسط الشارع.

❄ ❄ ❄

تضحية، فكر السيد سوروغيت، وهو يحدق من نافذة غرفته العارية والأنيقة إلى البركة الزرقاء العريضة في ساحة بلومزبيري. نشرت أشجار البلوّط أذرعاً شاحبة تحت ضوء المصباح، وانطلق ساعي البريد يدق باباً بعد باب. تضحية. مشى السيد سوروغيت بخطى واسعة إلى الباب وعاد ثانية إلى النافذة. متوقفاً للحظة عند المرآة فوق حافة الموقد من طراز آدم ليفاجىء نفسه غير واع بصورة قلقة، إنه ممتلىء وأشقر وشعره شايب فوق الأذنين، وفمه يبدو عليه التصميم.

لكنه صححّ ذلك واعياً ذاته للحظة حينما لمح العينين الرمحيتين التتاريتين لـ لينين في التمثال النصفي الجصي. أيها الرفاق، رجل واحد يجب أن يموت في سبيل الشعب. نحن نقبل تضحية الرفيق دروفر، عارفين ــ عاد إلى النافذة، دورة على الكاحل، ومرة أخرى الوجه البورجوازي بتحديقته الوقحة.

كان ثمة طرقة على الباب. انفتح بحذر، ويدٌ دسّت رسالة إلى اللوح الجانبي. «شكراً لك، ياديفيز، شكراً لك».

ـ «لقد تجاوزت السابعة، ياسيدي».

ـ «شكراً لك، ياديفيز، أدرك الوقت تماماً». أيها الرفاق، بدأ السيد سوروغيت ثانية. أيها الرفاق، يجب ألا نروع. ليس من تضحية أكبر من اللازم... توقف ثانيةً وتمعن بعصبية في كتابة اليد الجميلة الغامضة. فتح المغلف متردّداً وحلّ بصعوبة مغالق الدعوة إلى العشاء التي توضعت مثل بيضة عارية بيضاء في عش شرقي معقد من الحروف المزخرفة. فكر، كارولين مهتمة بدروفر. لم يأخذ أبداً أية دعوة لقيمتها الظاهرية. في عمق وعيه المعقد، قبع تواضع مفرط.

كان يرغب أن يرفض، لكنه عرف أنّهُ سيقبل، وأنّه سيقاسي ساعات الشهادة جالساً أمام لوحات زوجته المتوفاة المعلقة على كل حائط: المناظر الطبيعية الأنيقة المنتقاة بعناية والمشاهد المزدحمة الخضراء التي انبثقت ببساطة وثقة من عقلها الخبيث المشاكس. كانا قد كشفا بعضهما بعضاً لـ كارولين بوري خلال زواج طويل مخلص وغير سعيد وبدون أي تكتم،

والآن أن يزور كارولين يعني أن يكشف نفسه مرة ثانية ـ تضحية. كان ثمة لحظات تبصر قاس لما كشفت السبب وراء فلسفته وسياسته ـ لقد أذله عجزه عن إخفاء أي شيء مرات كثيرة إلى أن اضطره لتكوين فلسفة الذل، لتأسيس نجاحه على الفضح الذاتي. «كن متواضعاً فربما تتمجد»، ومن عمق الذل سيطلع متجدداً إلى سمو الكبرياء.

ـ هل أصفّر لتاكسي، ياسيدي؟

ناداه خادمه عبر الباب المغلق، «ألاتستطيع أن تدعني وشأني، ياديفيز؟ يمكنني العناية بنفسي». وماثلاً هذا الصوب وذاك في نواس المجد والاتضاع بين النافذة والباب، بين المرآة والتمثال النصفي لـ لينين، سمع صوت زوجته يقول بكراهية ضارية: «لم تتمرن على هذا التعبير كفاية». وفجأة، خلال السكون، مثل شبح الأعشية القديمة، سمع قرقعة بندق. جمد ساكناً، شبه متوقع أن يشمّ شذى خمرة البورت، أن يسمع قرقعة كأس، إنما ساد صمت، إلا من هسيس مدفأة الغاز، ومن الطقطقة الواهنة لساعي البريد في الجهة المقابلة من الساحة. تكرر الصوت حتى عندما أخذ يذرع الغرفة بخطوات واسعة ـ كان بلا جدال صوت تكسر بندقة.

حدق السيد سوروغيت إلى وعاء البندق الزجاجي على الطاولة الجانبية. ثم دنا من خزانة الكتب خلسة. امتد سجل تقدمه الفكري على طول رف واحد: السير نحو التجارة الحرة، العودة إلى الحماية، في طبعتهما الإنكليزية والأمريكية، ثم وصل بكتابه، مصادرة رأس المال إلى الناشرين الأوروبيين والألمان والتشيكوسلوفاكيين. لاحقت عيناه باعتزاز سجل تواضعه المتزايد: تأميم الصناعة، مع ملحق عن درجات التعويض، تلاه العنوان المقتضب المنتصر: لاتعويض. لم يكن الرف ممتلئاً تماماً. فكانت الطبعة الأمريكية لكتابه، دكتاتورية العمال، مستندة على زاوية عند نهاية الرف. حنا السيد سوروغيت رأسه ووضع أذنه على كتاب، مصادرة رأس المال. انكسرت بندقة على نحو صاخب في العتمة خلف الكتاب.

مدّ السيد سوروغيت يده وسحب فجأة ثلاث نسخ معاً من كتابه: لاتعويض. هناك، جلس فأر تفاجأ أثناء الطعام وبندقة بين بَراثنه. كلاهما،

السيد سوروغيت والفأر، جفلا. ولبرهة طويلة حدّق كل منهما إلى الآخر، حتى أن الفأر لم يرم البندقة. لعله أمل أن يبقى غير ملحوظ. ربما لم ير مطلقاً وجه إنسان بهذا القرب، لايبصر منه أكثر من طول ذيله، وربما أخذ المدى القمري الأبيض الواسع شكل ظاهرة طبيعية. ثمة، حوله، وعلى امتداد خزانة الكتب بقايا وجبات لاتحصى، وأسوأها: فتات خبز، قشور مقضومة، بقايا مغلفات قديمة ومخطوطات مهملة وأوراق سكاكر، لأن السيد سوروغيت كان يحب الحلوى. كان واضحاً أنه يتعشى كل ليلة عشاء حسناً. تراجع السيد سوروغيت بحذر، وانطلق الفأر رامياً حبة البندق، إلى الظلام خلف مصادرة رأس المال.

وإذ امتدت يده لتسلبه ذاك الملاذ، صار رحيماً. رق وجهه كله واسترخى. «أيها الفأر الصغير المسكين». تدلى فمه مفتوحاً قليلاً، وتوجه نحوه في مخبئه. «أيها الفأر الصغير المسكين». فكر بالكاتب الروسي العظيم في سجنه السيبيري تعزية زيارة فأر كل ليلة. «أنا أيضاً، هذا العالم سجني» واغرورقت عيناه بالدموع وهو يتراجع عن مصادرة رأس المال، ليتطلع إلى المصابيح وأشجار الدلب عبر النافذة. ذهب إلى الخزانة الجانبية ووجد بعض فتات من الجبن.

قاوم الفأر لبعض الوقت إغراء الجبنة. كان واضحاً أنه شكك بنوايا السيد سوروغيت. قبع خلف مصادرة رأس المال تماماً حتى خشي السيد سروغيت أن يكون قد هرب إلى حجره. بدأ يشعر أن فأراً قد أهاجه. سحب الجبنة و سخنها للحظة أمام نار الغاز.

كان لرائحة الجبن الساخن تأثير فوري. ظهر الفأر، التقط قطعة الجبن وتوارى خلف مصادرة رأس المال. كان ذا ردف حريري لماع، وعليه مسحة احترام كبير. يتوقع المرء رزمة متدلية من خصره، لكنه فضل أن يأكل منفرداً، في غرفة مدبرة المنزل. لم يحضر السيد سوروغيت قطعة جبن أخرى. كفّ أن يكون رحيماً. حل ملل سيبيريا في البيت بصورة مريعة وانتقل إليه إذ فكر بأي شخص يعتمد على فأر في تسليته. دقت الساعة السابعة إلا ربعاً.

ـ «استدع تاكسي، ياديفيز. سوف أتاخر».

وجد قبعته ونظر مرة وراءه من الباب. كان الفأر مايزال مختبئاً. كان قد قرض زاوية من ديكتاتورية العمال، وكان مؤكداً أنه لم يستخدم رف الكتب للوجبات فقط. «ديفيز»، قال السيد سوروغيت، «ضع مصيدة فئران جانب خزانة الكتب».

❄ ❄ ❄

جفّف جولز برايتون يديه بالمنشفة المعلقة خلف النضد، ودفأهما قريباً من وعاء التسخين النحاسي الضخم. انحنت عاهرة فرنسية على النضد، وتحدثت إليه. كانت قد تركت مكانها في شارع ليزل لتتناول بعض القهوة. رد عليها جولز بفرنسية جيدة حذرة صعبة. لم يكن مسموحاً له أن يتكلم الإنكليزية طالما أمه حية نتيجة حقدها على زوجها الذي ترك لها تجارة مفلسة واختفى إلى موطنه الأصلي. مازار جولز فرنسا قط، لكن أمه غرست فيه بقسوة وبكل الأصولية الإنكليزية فكرة عن فرنسا كشيء مخزٍ وغامض، وليلاً لما كانت تحنُّ، تحت تأثير الشراب، إلى حبها المفقود تضيِّف فكرة عن شيء بهيج وجميل. عنت فرنسا نساء يتسكعن مجهدات مثنى مثنى جيئةً وذهاباً في شارع واردور، وقطع النقود المزيفة تدس في صناديق بيع التبغ الآلية، وموسيقى القداس في العتمة، وكنيسة نوتردام المزينة بصورة سيئة، واللوحات الفرنسية وبطاقات البريد الفرنسية، والرسائل الفرنسية. كان لها مكر الشهوة وكآبة الدين وبهجة السجائر المسروقة.

انفتح باب المقهى، ومدّ جولز يداً إلى كوندر متقدماً عبر البخار، «لدي شيء جيد لك».

قال: «تعال إلى الطابق العلوي، إذاً»، قال كوندر. كانت غرفة كوندر الواحدة المعدة للنوم والمعيشة في الطابق الأول. كان ثمة صورة للعائلة المالكة مأخوذة قبل الحرب معلقة على الجدار، الملك والملكة وحشد أطفال مجهولين خائفين في بدلات بحارة، وأميرة ذات شعر جعد منفوش وحدبة كبيرة. حسن قال كوندر، «ما الأمر؟»

«روبل ورقي»، قال جولز. فرده على زغب اللحاف.

ـ «كيف حصلت عليه؟»

ـ «وجدته على الأرض عندما كنت أكنس».

«حسن، هذا جيد، حقاً، إنه جيد»، قال كوندر، واقفاً، ومحدقاً إليه، ومارّاً بيده على رأسه الأصلع. «لم أتوقع قط الحصول على روبل. لايسمح لهم بإخراجه، كما تعلم. لن أكون مندهشاً إذا كانت قيمته ــ حسن، شلنين. لهاو، طبعاً». أحضر علبة صفيح، كانت علبة بسكويت بالشوكولاتة سابقاً، من درج طاولته وقلب محتوياتها على الفراش جانب ورقة الروبل. كان كلما حصل على قطع نقود معدنية أو ورقية جديدة يتفحص مجموعته القديمة. «هذا رائع، هذا الشلن الأوسترالي وهذه النقود اليونانية. هذه التركية التقطتها في باص. يمكنني أن أقصّ حكايات طريفة عما التقطته في الباصات». حمل القطع المعدنية برقّة وأخذ يصقلها بمنديله، ثم أخذ يسوي تجعدات النقود الورقية. تراقصت أسماء أجنبية على لسانه: ثيلات، ليبرات، بنفوات، شلنات، زلوتات، سنتيمات، قروش، آنات، لاتات، ستافات، سنتات.

نظر جولز إلى مرآة حلاقة كوندر ومن ثم في قطعة نقود نحاسية. «أظنني كثير الشبه بنابليون الثالث، لو أطلقت لحية صغيرة...»

«لدي مجموعة كاملة الآن من هذه القطع النقدية الإيرلندية»، قال كوندر.

ـ «امبراطوري».

ـ «هذا الخنزير».

تنقل ذهن جولز من الإمبراطور إلى سيدان، ومن سيدان إلى باريس، ومن باريس إلى الكومونة.

ـ «هل ستذهب إلى الإجتماع الحزبي؟ علينا أن ننطلق».

ـ «شخص رمزي يمثل الأكثرية».

ـ كوندر، ماذا جرى بشأن دروفر؟.

ـ «رفض نقضه. زارع ومحراث».

ـ «أعرف أخت زوجته».

ـ «تشخص رمزي يمثل السلام».

وضع كوندر القطعة المعدنية بتأن مع الأخريـات علـى اللحـاف المـورد. «هل قلت أنك تعرف زوجته؟».

ـ «أختها. تعيشان معاً».

«قد أخرج بمقابلة صحفية من ذلك». قال كوندر ببعض الإهتمام.

ـ «ستكون في الإجتماع».

نظر كوندر إلى ساعته. يجدر بنا أن ننطلـق. غـادره الإنتعـاش الطـارىء لِهاوٍ. عاد صحفياً ثانية، غير راضٍ عن دخله ومهنته وحياته.

ـ «هل سيشنقونه؟»

ـ «لايمكن للمرء أن يتنبأ». كان يفترض بصحفي أن يفهم شـغل العـالم، لكنه قضى حياته في تعلم غموض أولئك الذين يقـاضون ويعفـون، ويكـافئون ويعاقبون. العالم، فكر، وهما يسيران بين أكشاك القهوة وأمام المطاعم المضاءة ومحلات بيع الصحف الأجنبية و المداخل المفتوحة، محكوم بنزوات بضعة رجال ـ نزوات سياسي وصحفي و أسقف وشرطي، يشنقون هذا ويعفون عن ذاك. يزجون أحد المختلسين في السجن ويرسلون آخرين من نفس العجينـة إلى البرلمان. احمّر كوندر الثوري قليلاً للظلم في ذلك، لكنه عرف جيداً، بما فيه الكفاية، أن ذلك لم يكن ليدعى ظلماً بطريقة منهجية.

ـ «آمل ألا يشنقوه. اعتاد أن يحضر الإجتماعات أحياناً، لكنـه لم يكـن يتحدث قط».

ـ «عليك أن تسأل أسقف لندن».

ـ «أنى له أن يعرف؟»

ـ «طبيعي أن يعرف».

ـ ألا ينفع فعل شيء ما؟ عرائض استرحام؟ أي شيء؟»

ـ «إنه الشيء نفسه. لايمكن للمرء أن يتنبأ. لقد وقّعت استرحامات لكل قاتل سبق شنقه. الناس البسطاء الطيبون يوقعون استرحاماً لأي كان. هذا الاغتصاب والقتل في ستريت هام ستوقع مئات النساء استرحاماً لفاعله عندما يقبضون عليه».

ـ «إذاً»، لافائدة. لن تفيده عريضة استرحام؟»

ـ «آه، ليس بمقدور المرء أن يتنبأ. قد يكون لها تأثير مرة من خمسين. يلتقط الوزير الأوراق ويرى اسماً يعرفه. قد يكون الإسم وليس الرجل ما يجعله ينظر ثانية ويفكر قليلاً. أو يكون قد تكلم لتوه في اجتماع حاشد وهتفوا له، فيشعر أنه ديمقراطي، وأن الشعب يعرف الأفضل. أو يكون تناول وجبة شهية. أو يكون في غاية السكر. وربما يكون الوزير الوحيد في عشرين سنة الذي يشرب كثيراً، وهذا ما يخلق الفارق. ليس بمقدور المرء أن يتنبأ. يجب أن يحاول. لا أحد يعرف أية دوافع قد تحثهم على شنق دروفر أو تخفيض حكمه. السياسة والدين كلاهما متداخلان بذلك».

انعطفا نحو الظلام وهدوء شارع تشارلوت. راقب الشرطي قدومهما عند الزاوية التالية بلهو ساخر. قال جولز فجأة:

«نحن نمثل».

ـ «ماذا نمثل؟»

ـ «أننا حمر».

شقّت سيارة مغلقة ذات بوق نبّاح طريقها جانبهما، تمزق الشارع بأنوارها الأمامية الساطعة، فظهرت المداخل وواجهات المحلات وملصقات بائعي الصحف والمجلات ثم غابت. عبرت السيارة الزاوية بانعطافة واسعة واختفت باتجاه كينغ كروس. حيّاهما الشرطي عند الزاوية «من هم أولئك؟» سأل جولز. كان قد لمح فيها وهي تعبر قمرة مضاءة محشورة برجال ضخام يضعون قبعات ناعمة، جالسين في صفين، يحدق بعضهم إلى بعض دون كلام.

«الفرقة السريعة»، قال كوندر.

فكر جولز في صمتهم وفي الكلام الذي كـان ذاهباً إليـه. رجـال سـيلقون خطابات إلى ساعة متأخرة، يعيدون بنـاء انكلـترا نظريـا، ويمحـون الفاقـة على الورق. أحس بغربة وعـدم رضـا عندمـا لـف الزاويـة جـانب الشـرطي والتقت نظرته بنظرة الرجل الضاحكة. رغب بشيءٍ مـا يسـتطيع أن يتبعـه بحماس. إذ كانت الشيوعية كلامـاً وليسـت فعـلا علـى الإطـلاق، وحيرتـه الوطنية. لم يكن إنكليزياً، ولم تعن فرنسا أي شيء سوى التمـاثيل المقدسـة ونابليون الثالث، والعاهرات والسجائر المسروقة. أراد أحدهم أن يقـول لـه: «أفعل هذا. أفعل ذاك. تعال هنا. إذهب هناك». أراد أن يتحـرر مـن نضد البار ووعاء الشاي والحلوى وقمة المقهى عديمة الشفقة.

ـ «هل سيفعلون شيئاً ما بشأن دروفر الليلة؟»

ـ «أتوقـع أن يتحـدث سـوروغيت في الأمـر، وبنيـت أيضـاً. وقـد يـأتي مندوب من المرآب». كان يمكـن أن يكـرّس نفسـه لأيـة قضيـة، لأي فـرد، حتى لامرأة، لو أعطي دافعـاً ليكـون جـاداً كرجـال الشـرطة الستة أولئـك الذين كانوا منطلقين في شارع تشارلوت.

«هذه الفتاة»، قال كوندر، «أخت دروفر...»

ـ أخت زوجته.

ـ هل هي جميلة؟

أومأ جولز. لم يرضه شيء تلك الليلـة. كـاي جميلـة، ودودة، متقلبـة، مثلي أنا، قال جولز في سره.

وصلا متأخرين إلى الإجتماع، وفيما عبرا الردهة غير المضاءة، بعد شباك التذاكر الخالي، استطاعا سماع شذرات من خطاب. ارتفعـت المقـاطع المملـة ووقعت مثل أقدام متعبـة. بمقـدور المـرء أن يسـمع زحـف المتظـاهرين ضدّ البطالة في كل أرجاء القاعة، ويرى اللافتات المؤقتة البشعة تخفق وتسقط في الشغب الذي لا أمل منه في أيام الآحاد الحمراء التي لاتحصى. تـأثر جولـز لإخلاص الآلاف الذين لم يسعوا للقيادة، الذين كانوا مستعدين أن يسـتمروا بصبرٍ وفاقة. رأى كاي رايمر في الصف الثالث الأمامي تبكـي ورأسـها بـين

يديها. همس لكوندر: «يجب أن ننقذ دروفر بطريقة ما. نحن نعد بالآلاف.» وحتى بداية الخطاب التالي خال أنّه وجد القضية التي أراد.

«كل واحد هنا»، قال السيد سوروغيت، «يود أن يتبادل المكان مع الرفيق دروفر بسرور. لا أحد غير الوضيع للغاية إلاّ سيوجه الضربة نفسها ضد الاضطهاد والرأسمالي بقلبٍ مبتهج». لكن على نبرات صوته، تراجعت الوقائع مثل الجزر، لم تكن لديه حتى صورة ذهنية عن زنزانة المحكوم بالإعدام والقناع والسير إلى المشنقة. شاهد قيصراً يقع، وسمع بروتس يتكلم. نادى بصوت أجش عبر المقاعد المتدرجة الارتفاع والوجوه الخضراء، في أرجاء صالة السينما غير العاملة، إلى أنطوني الواقف مستنداً إلى الجدار البعيد: «من تصل به الحقارة ليريد أن يكون عبداً؟ فليتكلم، إني له أسأت». كانت هناك، في مكان ما، في الظل، فتاة تنتحب، فنادى السيد سوروغيت ثانية عبر شوارع روما الإمبراطورية: «ليس ثمة سبب للحزن. كل عقيدة تتطلب تضحياتها. عندما يموت دروفر، سيبدأ عصر الحزب الشيوعي في بريطانيا العظمى». صرخ المفكر ذو النظارات ذات الإطار القرني: «يعيش! يعيش!» وصفق.

سأله رجل يدعى بنيت: «ماالخطوات التي تمّ اتخاذها؟»

رفع السيد سوروغيت يده. «كنت سآتي على هذا. لست في اللجنة التنفيذية للحزب. إني أتكلم باسم الأعضاء العاديين. أقترح أن نجمع فوراً، هنا، مساعدة لأرملة الرفيق دروفر، وأن نخصص نسبة من التبرعات التي جمعت مؤخراً في لندن لصندوق القتال لإقامة نصب تذكاري مناسب».

قال بنيت: «لكنه لم يمت بعد».

ـ «لا نقدر على أن نخفي عن أنفسنا أن ثمة أملاً ضعيفاً. طبعاً، سنسلم لكل منكم عريضة استرحام عند خروجه».

وقف رجل في معطف مطري سميك، وقال: «لقد أرسلني اتحاد سائقي الباصات إلى هنا. ألا نستطيع أن نتخذ الآن، فوراً، قراراً ما، يطالب البرلمان...».

نهض المفكر ذو النظارات ذات الإطار القرني جانب السيد سوروغيت وقال: «مستحيل تماماً، مستحيل تماماً. نحن أكثر من عشرة أشخاص. حسب قانون تشارلز، الفقرة الثانية، البند الأول، كلنا عرضة للسجن. هذا ليس موضوع سؤال».

«اجلسوا»، نادى بنيت، فجلس السيد سوروغيت والرجل مندوب اتحاد سائقي الباصات بسرعة «اجلسوا»، كرر بنيت.

قال أمين الصندوق: «أنا لاآخذ أوامري منك، يارفيق بنيت. إن كان الإجتماع...».

- «اجلس».

انحنى السيد سوروغيت فوق شريط حذائه. كان يتساءل بمرارة فيما إذا انتهت كل الحركات في مناوشة أفراد يسعون للقيادة. فكر في الجمعية الغابية الأولى، في السيدات بلباسهن من تصميم والتركرين، بشعورهن المقصوصة وسجائرهن وإيمانهن بإمكانية كمال الشخصية الإنسانية ورعايتهن لورش الدهانين والسمكريين. تذكر المناقشات في منتصف الليل أثناء ذهابه إلى البيت عبر جسر شلسي بعربة جر مع رفيقة منتقاة.

«الآن»، قال صوت بنيت فوقه، «يمكننا الدخول في الموضوع». رفع السيد سوروغيت رأسه ونظر بعيداً. إنه يعرف جيداً حيلة عقله في تذكر القضايا في إطار إنساني. يتذكر الجمعية الغابية في إطار المناقشات الذهنية الصافية في عربة منتصف الليل حول موضوع الحب الحر وتحرر المرأة مع فتاة ترفض الجدية حتى في السرير.

«أو هل هناك أي مفكر آخر يريد أن يشنف أذنيه بصوته؟» تابع بنيت وعيناه على السيد سوروغيت، ومع ذلك بقي هذا الأخير ينظر بعيداً بيأس عميق. مضت سنوات حتى الآن ماراً بكل مرحلة من مراحل الإشتراكية، مؤمناً تماماً أنه سيحتك يوماً ما بالعمال، لكن السمكري الذي كتب مقالة فابية، كان رجل تلك الطبقة التي عرفها بحميمية قصوى. كان الوحيد، كبير السن، بنظارات معدنية وخلفية دينية وتعليم رديء، جاداً بصورة

كاملة، والذي استطاع أن يتقاذف مع السيد سوروغيت العموميات التي أحبها: الإصلاح الإجتماعي، تكافؤ الفرص، وسائل الإنتاج.

شخصيات! ارتعد السيد سوروغيت، هي التي خانته دائماً. نساء تمنى تحريرهن، تلاعبن به، وعندما أغرته التجريديات الشيوعية الرائعة بالإنضمام إلى الحزب ـ الرفاقية، العمال، الإيديولوجيا، لم يجد هناك إلا بنيت. استاء حتى من تدخل دروفر كفرد يجب إنقاذه وليس ضحية ينبغي تزيين المذبح بها. في قضية كانت إبهاجاً، تمجيداً، إحساساً بالحرية، سبب أفراد ألماً بقسوتهم وحقدهم وقلة فهمهم. استطاع أن يعيش في عالم أديان وأحزاب سياسية وعقائد اقتصادية ويوشك أن يجن حاكاً كتفيه عند كل مفترق مع منقذين وسياسيين وفقراء يشحذون لقمة الخبز.

ومع ذلك لم يتمكن أن يبلغ السعادة وحيداً بين أفكاره التجريدية الفاتنة، أراد رفيقاً يساعده على تأكيد إيمانه أنّ هذه الأشياء حقيقية ــ الرأسمالية والإشتراكية، الغنى والفقر ــ وليس تلك الأشياء الأخرى: الشمبانيا والحفلات الخيرية والنساء اللواتي يحملن طفلهن الثاني عشر في غرفة مكتظة.

«هل تلك الفتاة هنا؟» سأل كوندر.

«سنلحق بها بعد الإجتماع»، قال جولز.

«ثمة قصة لجرائد الصباح»، قال كوندر، «لكن كيف لي أن أقدمها؟ سيضعف ذلك إخلاصي للحزب». مرّ بيده متحسيراً فوق رأسه الأصلع، متابعاً الكلام بصوت خفيض، مصغياً لما كان بنيت يقوله، مفكراً بعدة أمور معاً. زوجة دروفر، قد تكون هناك مقابلة جيدة، «ليس الجلوس تحتها مثل نخبة لعينة»، افترض أنه يوجد صحفيون آخرون هنا، الكراسة ٣٦ يجب عدم المخاطرة بالطرد من الحزب، إذا نشرت في صحف الصباح فسوف أُلام، ثلاثة متطوعين عن البوابات، سوف ألام، سوف ألام.

ـ «إني مندوب في اتحاد السائقين. يريدون أن يعرفوا ما الذي ستفعلونه من أجل دروفر؟»

- «سأتحدث عن دروفر بـالتفصيل في حينـه»، قـال بنيـت «ثمـة حملـة لتوقيع عريضة. هل تتوقع منا أن نهاجم السـجن؟ مـا الفـائدة مـن تحطيـم واجهات المحلات؟ إذا عزموا على شنقه فسيشنقونه».

- «المشاعر ثائرة في الإتحاد».

- «إذاً عقدوا اجتماعاً في الإتحاد، وادعو بعض المفكرين ليتحدثـوا حتى تشعروا بأن كل شيء على مايرام. لقد جئت إلى هنا لمواجهةالحقائق».

- «ينبغي عمل شيء ما».

- «في هذا الإجتماع ما هو أهم من دروفر ليعنى به. من هـو دروفـر علـى أية حال؟ أنا لم أسمع أنه عمل شيئاً لأجل الحزب قط. لدينا مهمة عظيمة الآن، لايمكنها انتظار دروفر».

صاح أحدهم في وسط القاعة: «هذا هو العجوز الطيب بنيت»، وضحكـوا جميعاً.

- «إنهم يصرخون في وجهي دروفر ـــ دروفـر. ليـس دروفـر مهمّـةُ الآن. ليس الموضوع شرطياً نريد قتله. أنا لسـت ثرثـاراً. إنـي رجـل يقـوم بعمـل. لدينا مفسدو إضرابات كفاية. إنهم في الحزب، إنهم في هذه القاعـة، شـئنا أم أبينا. جواسيس ومفسدو إضرابـات. رجـال مـا فعلـوا شـيئاً البتـة لعمـل شريف، ثرثارون، مهوسّون، علينا أن نطردهم».

«حقاً»، قال كوندر، ضارباً رأسه، «لقد تمادى. إنه يشكك بنزاهتنا».

جلست كاي رايمر ورأسـها علـى يديهـا وعيناهـا علـى الأرض. فكّـرت بالشوارع الطويلة بينها وبين باترسـي، اليهـود في طريـق شـيرينغ كـروس، العاهرات في شارع كوفنتري، تل بيكاديللي الطويل، وعنـد الطـرف الآخـر مروراً بكنفزرود وخلف مواقف سائقي التاكسيات، وراء النهر الهادىء الممل والمستودعات وخطـوط الحـافلات، انتظـرت ميلـي، مـع حزنهـا الـذي لا يطاق، مع الخوف في المطبخ، والترقب والقلق في غرفة الجلـوس، مـع الألم على كل درجة. «إنهم يصرخون في وجهي دروفر ـ دروفر». دروفر الـذي لم يتطفل قط، الذي جلس صامتاً كزائر حتى في بيته، مطلوب منه كل شيء: النبتة لم تُسْقَ لأنها كـانت شـغله، ليـس في البيـت بـيرة، لأنـه اعتـاد أن

يحضرها. أريد أن أمتع نفسي، فكرت، لايهمني جيم، يمكنني أن أكره ميلي في سبيل ذلك، ولما نظرت إلى الأعلى رأت خد السيد سوروغيت الناعم وشعره الباهت.

«هي ذي كاي»، قال جولز ولوّح بيده. لاحظ ثانية أنها كانت تبكي. استمر بنيت يدمدم فوق رأسه. كان غضبه مثل عاصفة تقرب شخصين، إذا كانا معا في غرفة، بظلامها وانحباس هوائها. سمح لنفسه لوهلة بالتفكير بحب كاي. كانت متفردة بعينيها النديتين. صفا عقله مؤقتاً، الذي كان مشوشاً بالندم، غامضاً جراء الطموح، وخطر له ربما كل ما يحتاجه هو امرأة. الحب مسألة حظ إذا كان المرء مفلساً، يتلقفه حينما يأتي لكن ذلك قلما حصل. كانت النساء يردن شيئاً ما بالمقابل: زيارة إلى مرقص، شوكولاته، سينما، يفكر أن الفوز باللذة كمكافأة بذاتها ذلاً، وإلا صرن قمريات، مؤيدات متحمسات للزواج الأحادي، وعندما أراد أن يضحك ويحب ويثير ضجة أراد أن يكنّ هادئات في الظلام، وحيدات معه. غير أن كاي لم تكن كذلك، كان لها من الأصدقاء أكثر مما يسمح لها أن تنسل إلى الزوايا، وأعتقد أنه سيكون بإمان إذا أحبها. لم تخفه دموعها، عنت له أنها ستسر بالرفقة، هو نفسه يبتئس عندما يُترك وحيداً، وكان مستعداً لدفع كل شيء يملكه حتى لرفقة كوندر، كان يحس بالضياع ويشعر بالخوف. فقط امرأة، فقط ضجة، فقط غرامافون يعزف أو أناس يتكلمون، يمكنهم أن ينقذوه من غرق العودة إلى ذاته، ملتقياً بأمه المزعجة على العتبة، العودة إلى أنين صرخات السكارى السابقة، العودة إلى ماضي النزاعات في الغرفة المجاورة، العودة إلى القبلات والحلوى والنوم المبكر، العودة إلى العدم. الصراخ، الغناء، التواجد في حشد كما هو الآن، أفضل من البحث في الظلام عن شيء ما ضاع ميئوساً منه كالجنين في الرحم. «جولز، نسيت هذا... جولز، نسيت ذاك... لعنك الله، كم من الوقت عليّ أن أنتظر؟» سيرفع متمهلاً، يعتذر ويوضح الأسباب.

ظنه أصحاب العمل والزبائن الذين عليه أن يتعامل معهم كسولاً، لكنه نسي بنفس السهولة أشياءه ذاته، منديله، معطفه عندما يكون الجو

عاصفاً، واليوم، في هذه اللحظة بالضبط، تذكر الرسالة التي جاءته معنونة بصورة مكررة، وذات طابع فرنسي «سأفتحها وقت الغداء». لكن عند الغداء كان عازف أرغن يدوي يطوف في الشارع، وولدان يرقصان بمئزرين مرفوعين، ورجل عاطل عن العمل يصفق ليساعدهما بالإيقاع، واستطاع جولز أن يقف ويضحك ويثرثر، ويشعر لعشر دقائق أنّه جزء من الشارع، جزء من لندن، جزء من البلد، وليس شخصاً انتبذ بموت أمه ليشق طريقه في أرض كانت له بمصادفة الولادة ليس إلا.

كان سطح العقل مدركاً حديث بنيت، مبصراً السيد سوروغيت حانياً رأسه فوق حذائه، شاعراً كاي تحاول ملاقاة عينيه، تراقصت أخيلتهم عبر دماغه كحبات المطر على زجاج ولم تخلف أثراً. كان قد ابتعد، ينشد ما فقده، ولم يعتد على فقده، اتكال تام، شيء محدد (ليتنفس، لينمو، ليولد)، استحالة الوحدة.

«هيا»، قال كوندر، «لقد انتهى. عرفت أنهم لن يفعلوا شيئا لدروفر. إنهم لا ينفعون لشيء غير الكلام».

«لِمَ تأتي؟» سأله جولز.

دُفعا إلى بعض للحظة عند المدخل. أقحم أحدهم أوراق العريضة إلى يديهما، وباعد ثانية بينهما ضوء مصباح وقدم من الرصيف. شيء ما في ذاك التماس غير الطوعي أثر بكوندر، كان مثله مثل شخص يشارك امرأة غريبة في سيارة خدمة بعد حفلة ومصادفة التلاقي تولد الثقة بين شارع وآخر. قال: «أعتقد، عندما يسوء كل شيء إلى درجة كبيرة، حتى الكلام عن شيء ما أفضل...» نظر إلى جولز جانبياً بخجل وأمل عارم.

كان الشارع مليئاً بالناس، يضحكون وهم ذاهبون إلى بيوتهم. تاق جولز أن يكون معهم. قال لكوندر: «هي ذي كاي»، ولِـ كاي: «هوذا كوندر». رفع كوندر قبعته واستقرت عيناها على الرأس الأصلع بإحباط وملل وحقد دفين.

«هل نستطيع أن نرافقك إلى البيت»؟ سألها كوندر.

«لكني لاأريد الذهاب إلى البيت الآن»، قالت كاي. مايزال الوقت باكراً. مالت إلى صندوق البريد المثبت على عمود الإنارة وضغطت خدها على الحديد.

«هيا بنا إلى الحديقة، إذاً»، قال جولز.

ـ «ستكون باردة».

ـ إلى مقهى».

«هيا كلاهما معي»، قال كوندر، «لتناول كأس في الفيتزروي».

ـ «لقد شربت كثيراً في الفيتزروي. ألا يمكنك اقتراح شيء جديد، شيء مثير؟».

رفع كوندر يده إلى رأسه. «كنت سأسألكما أن نتناول العشاء معاً، لكن لديّ موعد في الساعة الحادية عشرة إلا ربعاً». ابتسمت غير مصدقة. يستطيع الرجال أن يفكروا بعذر جديد.

«يمكننا الذهاب إلى السينما لساعة»، قال جولز.

ـ «لا أريد الذهاب إلى سينما أو مقهى أو مرقص، ولا أريد الذهاب إلى البيت ولا التسكع في الحديقة العامة» وقف الرجلان حولها بوجهين مرتبكين ومهتاجين. يجب أن يفهما، فكّرت، ما سيكون عليه البيت مع ميلي تنتظرها، لاتنام، لاتخلع ثيابها، مرتبطة بلا رجاء مع رجل ليس هناك، مع رجل لن يأتي أبداً. تساءلت بنوع من حسيّة مغيظة محيّرة، ماذا يشبه ذاك الإحساس، أن تكون امرأة مرتبطة بقوة إلى رجل. هذان رجلان يقفان حولها، يعرضان القهوة والبيرة والسينما، ولايتصوران أبداً ـ بإمكان المرء أن يخمن ذلك من الوجهين الكئيبين ـ أن الشيء الوحيد الذي أرادته آنئذٍ، تلك اللحظة، تلك الليلة، كان معرفة ذلك الإحساس أن تكون امرأة مرتبطة بقوة إلى رجل.

«إنها تقارب الحادية عشرة إلا ربعاً، ياكوندر». قال جولز.

تفرّست ناقلة نظراتها من أحدهما إلى الآخر، من كوندر، القصير، الرث الثياب، ذي الرأس الأصلع والأصابع الملطخة بالحبر، وأظفاره غير الحادّة

بسبب الآلة الكاتبة، إلى جولز ذي النظرة الشاردة، قالت في سرّها، سيكون الحب سهلاً.

ـ «ألن يحكي أحدٌ منكما شيئاً مسليّاً؟ أريد أن أضحك». عرفت فجأة أن جولز قد فهم، أنّه لو لم يكن كوندر هناك، لكان طارحها الغرام، لكن هذه المعرفة أثارتها، وإذ نظر كوندر إلى ساعته، وقال: «نعم، فعلاً. يجب أن أذهب». بذلت كلّ سحرها لتبقي كوندر، تبتسم وتبوّز، استحضار باهت لمثلة سينمائية شهيرة في دور ثانوي في فيلم قديمٍ مبتذل. «آه لكني أعرف أنك غير مهتم بي فحسب. لست على موعد فعلاً».

ـ «آنسة كاي، صدقيني»، قال كوندر، «ليس ثمة أحد أفضله عليك لأبقى وأتحدث معه، لو لم يكن موعدي مهماً. آمل أن تسمحي لي بالإتصال بك في مكان عملك، وأرافقك إلى الغداء يوماً ما...»

ـ «ماهو على أية حال؟»

«آه، لكن النساء لايحفظن الأسرار»، قال كوندر، منحنياً بصورة مؤثرة، أشرقت معالمه بسرعة إلى درجة أنه ارتبك هو نفسه، غير واثق فيما إذا كان هو الثوري، أم الصديق الحميم لسكوتلانديارد، أم كان هذا دوراً جديداً، الجاسوس الكبير. رفع قبعته وتحرّك بسرعة حول الزاوية إلى شارع تشارلوت ورأسه محني قليلاً ناطحاً دفقة باردة من الريح.

«كاي» قال جولز.

«انظر»، قالت بسرعة، «هو ذا السيد سوروغيت». خرج من مبنى السينما وحيداً أكثر شحوباً منه عندما دخل. لقد أغلق على نفسه في مرحاض حتى تيقن أن المكان قد خلا، لأنه لم يرغب في مواجهة بنيت. خطر له، أن ذلك كان سيوقظ شعوراً سيئاً، يجب ألا ينشقّ الحزب إلى مجموعات، ومن حين إلى آخر، عندما يسمع وقع خطىٍ حول المغاسل يشد السيفون على نحو مقنع. تكدّر وجهه لما سمع اسمه، لكنّه صفا ثانية عند رؤية فتاة تحت صندوق البريد المعلق على عمود الإنارة. مشى عبر الرصيف متعمداً. كان ذلك مثل الأيام الخوالي للمنظمة الغابية تماماً. «حسن،

يارفيقة؟ مارأيك بفنجان قهوة؟» نظر إليها عن كثب أكثر «هل أنت الفتاة التي بكت؟»

- «جيم دروفر صهري».

تراجع السيد سوروغيت بغتة. دروفر ضحية، دروفر رفيق، بموت دروفر سيبدأ عصر الحزب الشيوعي البريطاني. «أنا آسف»، قال: شعر أن فردية الرجال أزعجته وخانته.

- «لست مضطراً لأن تأسف لي»، قالت: «إنها أختي من يتألم. أملت بأن أحمل لها بعض الأخبار. لا أريد أن أذهب إلى البيت وأقول لها لاشيء سيتم فعله».

«لا يستطيع الحزب أن يفعل شيئاً»، قال السيد سوروغيت.

- «أخاف مما ستفعله ميلي. إنها امرأة هادئة. لاتعرف بماذا تفكر. لكني أعرف كانا سعيدين. كانا مملين كثيراً معاً، ماكان بوسعهما أن يكونا أي شيء إلا سعيدين». كاد السيد سوروغيت أن يناشدها أن تتوقف. كان الألم لايحتمل بالنسبة له. تنفر منه أعصابه. تذكر باشتياق جدران شقته العارية المؤطرة بالخشب، وهج مدفأة الغاز، المرآة، ورف الموقد ماركة آدم. شخص واحد يتغلغل هناك، لكنها ماتت ويمكن صرفها ونسيانها بكتاب.

- «مضى على زواجهما خمس سنوات».

- «اسمعي»، قال السيد سوروغيت، «مازالت هناك العريضة».

- «إنها لاتؤمن بذلك».

- «هناك أمور بوسع المرء أن يفعلها - سراً. أناس بوسع المرء أن يقابلهم. سأتحدث إلى كارولين بوري».

- «ليت ثمة شيء يمكنني أن أخبر به ميلي».

- «سوف يكون هناك شيء، أعدك». يجب أن يعيد ترتيب المساء الموعود بطريقة ما، ويتخلص من المعاناة «تعالي سنجد شيئاً».

- «هل أفعل؟»

- كاي، اذهبي»، قال جولز، آملاً أن السيد سوروغيت سيدعوه لمرافقتهما، هو أيضاً أراد أن يفعل شيئاً لأجل دروفر. سيستمتع باحتفال بدلاً من فراش، بقليل من الشراب، بكثير من الكلام، وبعد أن ينهوا المناقشة، بشيء من الموسيقى. لكن تشجيعه أغضب كاي. «الوقت قد تأخر كثيراً»، قالت.

اندهش السيد سوروغيت. لقد نسي في مقاومته للألم أنها كانت فتاة، شخص يمكنه مناقشة السؤال القديم المستعمر عن مساواة المرأة. «تلك أفكار بورجوازية».

قال: «إني مندهش» ولوّح لتاكسي.

❄ ❄ ❄

فتح كوندر باب غرفة التدخين. جلست المرأة المتكلفة في رداء مخملي أسود كالعادة إلى جانب طاولة عليها زجاجات. فوق الموقد صورة معلقة لأدميرال ذي وجه سئم من الملذات وقبعة مائلة. على الجدار صفيحة تُنبىء أن ضباط نادي البحرية قد اجتمعوا في هذه الغرفة بين ١٩١٤ و ١٩١٨.

«هل سأل أحدٌ عني؟» سألها كوندر.

- «لا، لم يكن السيد سيمبسون هنا الليلة، ولا السيد بارهام، ياسيد كوندر. كان المكان هادئاً للغاية». صوتها المتكلف جعل الكلمات ترن مثل: كواك، كواك.

- «سأنظر في البار». نزل كوندر إلى الطابق الأسفل، لكنه لم يفتح باب البار لأنه رأى بنيت عبر الزجاج. كان مستديراً بظهره إليه وقد رفع كأساً من جعة مُرّة إلى شفتيه. ملأ أصدقاؤه البار، إلى حد جعل كوندر يقف لحظةً جامداً بلا حراك، شاعراً نفسه أنه محاصر بحشدٍ معادٍ. انفتح الباب الخارجي، ودخل رجل ضخم ذو قبعة ناعمة، يرتدي ثياباً عادية كأنها تنكرية.

«مرحباً، سيد كوندر»، قال. رفع كوندر إصبعه إلى شفتيه. «اسكت»، قال و تراجع إلى أعلى السلم. «اسكت». تبعه الرجل الضخم وفي طريقه أخذ نظرة كافية إلى داخل البار. «ماذا بك؟» قال.

ـ «سأخبرك حالاً. هل تتناول كأساً؟ لقد تأخرت».

«كم رائع أن ترى وجهاً جديداً»، قالت المرأة ذات الثوب المخملي الأسود.

«كأسين، باس»، قال كوندر. عادت المرأة إلى زاويتها تجر نفسها جراً، وزجاجة فارغة في كلتا يديها، تتصرف كمضيفة من العهد الإدواردي.

«ماذا بك؟» قال الرجل، رافعاً كأسه.

ـ «اسمع، باتمور»، قال كوندر، «قد تقحمني في المشاكل، بنيت في الطابق الأسفل. إنه متلهف إليها. إن رآني معك...»

ـ «كوندر، لماذا، ياسيد كوندر، ألا تستطيع استقبالي؟»

ـ «باتمور، ثمة شيئان ربما تكون أحدهما، شرطياً أو حاجب محكمة». أفزعته فكرة أن بنيت في البار وأهاجته. «باتمور، لقد مللتكم حتى الموت، ياأصدقائي في سكوتلانديارد. إنكم مجموعة نعامات تدفنون رؤوسكم في الرمل، وتظنون أن لاأحد يراكم. لقد أخليتم سبيل رتليدج. ليس لديكم أدنى فكرة عن جريمة ستريت هام. الرجل الوحيد الذي تستطيعون النيل منه مسكينٌ مثل دروفر».

ـ «سيد كوندر، هل تريد أن تحدثني عن ذلك؟»

ـ «ومساعد المفوض... ربما كان يعرف كيف يشنق بعض الوطنيين في الغابة، لكنه لاينفع في لندن».

ـ «لن أقول أنك مخطىء بشأنه، ياسيد كوندر. هناك كثيرون منا في سكوتلانديارد لايحبونه. مشكلته يريد أن يعرف الكثير جداً. إنه لايدع الأشياء وشأنها. سكوتلانديارد مكان مقعد. لايمكن للمرء أن يحيط بها كلها. لايمكن له أن يعرف كل شيء عن بصمات الأصابع إذا كان راغباً بمعرفة كل شيء عن اختبارات الدم. لن يفهم ذلك. إنه يدس إصبعاً في كل فطيرة. كوندر ستندهش لو عرفت أين كان الليلة، على سبيل المثال. سيكون خطأه لو لحقه أذى يوماً ما».

وضع كوندر كأسه فجأة، واندلقت البيرة على غطاء الطاولة الرخامي. «ماهذا؟» ملأ بعضهم السلم. «كرمى لله، كف عن شغلك، ياباتمور. إنهم

يصعدون». ذهبت المرأة ذات الثوب المخملي الأسود صوب الباب «بهدوء، بهدوء، ياسيد روليت»، زفرت لأحدهم في الخارج. دخل شاب متورد الوجنتين «إسمعي، يا آنسة شيك»، قال.

«جميل أن أرى وجهك». قالت الآنسة شيك.

ـ «دفعني الوحوش من الخلف. كلهم سكارى في البار. يجب أن أستدعي شرطياً». حدق إلى باتمور بعين زائغة، ثم خرج ثانية بسرعة. «يجب ألا تظنان به سوءاً». قالت الآنسة شيك عائدة إلى زاويتها جراً ومعها زجاجات البيرة.

ـ «باتمور، المكان ليس آمناً هنا»، قال كوندر. «ذاك الرجل، بنيت، مخلوق شكاك. لن يفهم أبداً أن لا أذى من لقائي معك».

ـ «سيد كوندر، كل ما أريد معرفته، هو ما الذي قيل عن دروفر هذه الليلة؟»

ـ «لماذا؟»

ـ «نريد أن نعرف كيف تناولوا القضية».

ـ «ها أنت تكرر ذلك ثانية، إنها سكوتلانديارد مرة أخرى. تستمرون قلقين من رجل في قبضتكم، لكنكم لاتعرفون شيئاً عمن قطع عنق السيدة كراول. باتمور، إني أقول لك الصحفي يرى كثيراً، لكن ذلك الصندوق أحدث أكبر صدمة في حياتي، موديل قديم، اعتادت أمي أن تأخذ شيئاً مشابهاً له عندما تذهب للبحر، وفي الداخل كثيف بالدم. نسيج ذو خطوط زرقاء كقميص وكثيف بالدم».

ـ «يمكنني أن أزيدك علماً عن ذلك، ياسيد كوندر. لسنا بالبطء الذي تظنه».

رشف كوندر جعته، وأحنى رأسه الأصلع اللامع، وللحظة نسي بنيت بينما تابع قصة عبر الشوارع المظلمة نحو يوستن في أعقاب سيارة سريعة. «لقد أخليتم سبيل رتليدج لمجرد عدة بصمات».

ـ «ليس لدينا ما يدعو لتوقيفه».

ـ «لكنكم تستمرون قلقين بشأن دروفر».

ـ «ما أريده، ياسيد كوندر هو هذا، ماالذي حدث الليلة بشأن دروفر بالضبط؟ كانت هناك خطب طبعاً، لكن هل خططوا لشيء؟ أية تظاهرة؟ أية دعاية؟ كيف تناولوا الأمر؟»

ـ «إنك تطلب كثيراً، ياباتمور»، قال كوندر. «تطلب مني أن أخون أصدقائي. كأسين باس، أيضاً، يا أنسة شيك».

ـ «الأمر مجرد تبادل قصص، ياسيد كوندر. سوف أكون قادراً على إعطائك نبأً مثيراً من الدرجة الأولى لطبعة الظهيرة».

ـ «هل يمكنك أن تعد بذلك، خبر أنفرد به ولاتعطوه لأحد؟».

ـ «نعم، ياسيد كوندر».

ـ «حسن، سأخبرك. تكلم سوروغيت وبنيت، وحاول أحدهم من اتحاد سائقي الباصات أن يتكلم. هذا كل شيء. لن يحصل شيء بشأن دروفر. كلهم سيوقعون العريضة طبعاً. لكن يمكنك أن تعتمد على كلامي، لقد نسي دروفر. تماماً كأنه مات منذ الآن. ما يهمهم هو ذاك الشخص في الدرشوت الذي حكم شهرين لتوزيع الصحف. سيخلقون جحيماً من الضجيج بشأنه».

ـ «شكراً لك، ياسيد كوندر. ذلك كل ما أردت معرفته».

ـ «حسن، إذاً، إشرب كأسك واخرج».

ـ كيف الأولاد، ياسيد كوندر؟»

ـ «الأولاد، آه، الأولاد. كلهم بخير. بالمناسبة، أحدهم يعاني من سعال ديكي». وفيما شرب جعته، وسع كوندر حكايته، البيت الجديد، العطب في الحمام. كل كلمة، كل عبارة، كل صورة مختلقة، كانت اتهاماً، اتهاماً موسوماً بدقة كي يفسح منفذاً للبراءة، ضد الحياة، حياة دون أولاد أو زوجة أو بيت.

ـ «الحساب، يا آنسة شيك».

ـ «ليلة هانئة، آنسة شيك».

فتح الباب، وكان بنيت واقفاً خارجاً.

كان مستحيلاً القول فيما إذا كان يتنصت، تمايل سكران على بسطة الدرج ويداه في جيبه. سمع كوندر باتمور داخل غرفة التدخين يودع الآنسة شيك وداعاً حاراً، وسمع الآنسة شيك تقول: «كان رائعاً أن نراك. المكان هادىء دائماً هنا» رأى بنيت يتأرجح قليلاً إلى الأمام والخلف. خاف أن يتابع طريقه خشية أن يسد بنيت الطريق، وخاف أن يبقى خشية ما قد يكشفه باتمور. ثم خرج باتمور إلى البسطة وقال بطريقته المرحة الثقيلة: «آسف أني جعلتك تنتظر، ياسيد كوندر. إنها فتاة تسحر الألباب».

خطا كوندر إلى الأمام، خطا بنيت جانباً، وتابع باتمور كلامه طول الطريق إلى أسفل الدرج. بدت كل كلمة كحدوة في جزمة شرطي بالنسبة لكوندر.

ـ «ذاك الرجل هناك، بدا مهتماً، قال باتمور، حدّق إلينا طول الطريق إلى الأسفل هل هو أحد أصدقائك؟»

لم يشعر كوندر أنه كان مهزوزاً مثله الآن أبداً. وقف برهة على الرصيف، بعد أن غادره باتمور، وحاول إشعال سيجارة، لكن عود الكبريت أنطفأ مرتين بين أصابعه. ثم شعر أنه مهدد بخلو الشارع، فركض إلى أول ناصية مضاءة. هدر باص إلى جانبه، اهتزت أنواره عبر الزجاج الشفاف لمحل غير مضاء مهجور. شرائط ورقية قرمزية كتب عليها: «تنزيلات قبل انتهاء عقد الإيجار. تنزيلات قبل انتهاء عقد الإيجار». ركض مسافة أبعد قليلاً واستند إلى واجهة محل. قالت امرأة ذات وجه أعادت ترميمه: «لم العجلة ياعزيزي؟» وتابعت سيرها بلا أمل. «تنزيلات» كانت النشرة على باب المحل. تنزيلات. مقتنيات خربها حريق. كانت مسترهنات والنافذة محصنة بقضبان حديدية. ساعات، عقود قديمة، ساعة جدارية وأدوات صينية، بندقية، أظهرت الرفوف دمار مئات البيوت.

هزته غريزته غير القانعة بالأمان. بـدا لـه أن الشـارع كـان يتهـاوى حولـه بالياً، حرائق وعقود منتهية وزمن يصفع الوجه لم يعد هو ذاته ثانية حتـى وجد رقم منزل محرر الأنباء في كشك هاتف عبر الطريق. آنئذٍ فحسب، يده علـى المسـتقبلة، وشـفتاه علـى الفوهـة السـوداء، عـادت ضربـات قلبـه طبيعية.

ـ «أنا كوندر، سوف أحصل علـى سـبق لطبعـة الظهـيرة. شـامل. جريمـة رتليدج، على ما أظن. الفرقة السريعة انطلقت في طريق يوستن. لن أدهـش إذا لم تكن هناك قصة من الدرجة الأولى في هذا. أجـل؟ أجـل؟ لا. هـل لـك أن تضع في فقرة خبراً عن عريضة بشأن دروفر إبقاؤه حياً؟ مايزالون مهتمين في سـكوتلانديارد. لاأعـرف السـبب»، لكنـه قبـل رفـض محـرر الأنبـاء دون اعتراض، مرمياً في الشارع، مهجوراً فوق كبل علـى مسـافة عشـرة أميـال: «الرئيس غير مهتم بدروفر».

❄ ❄ ❄

أسند السيد سـوروغيت ظهـره مسـترخياً في التاكسـي، وأغمـض عينيـه نصف إغماضة. استقر في الماضي، ماض لم يتسع لا لِ بنيت ولا لِ دروفـر، لكنه لم يستعبد امرأة شابة تهتز مقابله فيما ارتجت عربة الخيل فوق جسر شلسي. «حقوق المرأة» قال.

ـ «أكيد، لا تؤمنين بالآراء القديمة» وبعـد برهـة وجـيزة، بينمـا عـبرت التاكسي شارع جوبر، «تحديد النسل»، قال: «يجـب أن نمتلـك مشـافي»، ووضع يداً ودودة على ركبة كاي رايمر. أطلق مصباح شارعٍ شـعاع ضـوء إلى الداخل المعتم، والسيد سوروغيت سحب يده فجأة لامحاً توقعهـا السـاخر. على المرء ألاّ يكون متهوراً، كان سهلاً للغاية أن يساء فهمه. وصعـد الـدرج أمامها بلطف بالغ إلى الطابق الأول، خائفاً من احتمال خروج صاحب الدار مـن غرفـة جلوسـه القريبـة مـن المدخـل. كـان مسـروراً أن ديفـيز ينـام في الخارج.

«أعيش وحيداً هنا»، قال، جاسئاً وحزيناً قليلاً، زوجتي متوفاة».

أشعل مصباحاً وأشرقت الجدران البيضاء حولـه. «هـل تتنـاولين بعـض البندق ريثما أشعل الموقد؟» ركع وانطلق هسيس اللهب من عود كبريته.

«المكان جميل. يا للكتب الكثيرة التي لديك». قالت.

«إنها من تأليفي»، قال.

ـ «لابد أنه رائع أن يكتب المرء».

ـ «يحـاول المـرء أن يمـارس تأثيراً. هـل ترغبـين برؤيـة الشـقة؟ إنهـا صغيرة، لكنها ممتازة، كما أعتقد. طبعـاً». أضـاف بصـوت خفيـض متسـم بالإحترام، «ينقصها اللمسة الأنثوية. إنها وكر رجل». لكن كلمة وكر كانت تسمية خاطئة حينها. انتقل من غرفـة إلى غرفـة يضـيء المصـابيح وحيثمـا ذهب أطر بيضاء، جـدران سمينـة، جـدران بلـون الجـاد الشـاحب وقعـت بانتباه كالعسس. لم ينظر حوله البتة، مدركاً رضاها الصـامت خلفـه. ليس لأية امرأة ذوق أكثر ملاءمة، لقد اختيرت الأشياء القليلة التي غطت علـى عري غرفة الجلوس وغرفة الطعام، بـإدراك لايخطـىء، علبـة الشـاي ذات الورق المعجن، الزجاج الملون، طاولة ملكية ضئيلة مطليـة في غرفـة الجـاد. خطا إلى الأمام، مضيئاً الأنوار، لايعير شيئاً انتباهاً، برأسه الأشقر النـاعم، منحنيا باستنكار، ربما لأنه كان القيم المتواضع على كنوزه. مـا كـان لأحـد أن يخمن الكبرياء القاسية المكبوحة الـتي أحنـت رأسـه في اعـتراف لكمـال ذوقه.

«غرفة نومي»، قال بطريقة جافة بعـض الشـيء فاتحـاً البـاب الـوردي ومضيئاً عدة مصابيح. أطلقت كاي زفرة سرور للزهور المعلقة وللسرير نصـف الدائري وللغطاء الحريري كأنه بقايا تويجات ساقطة.

«آه،» قالت، لامحة المرآة الضخمة بانعكاسـاتها العميقـة الـتي أطرتهـا أكثر من رجل منمق الكلام. «آه،» قالت ثانية عنـد رؤيـة الصـورة الوحيـدة على الجدران، «كم هي جميلة. من هي؟»

أجاب دون أن ينظر: «زوجـتي». كـانت قبالـة السـرير. كـانت الوجـه الأول الذي يراه كل صباح. كـانت تحييـه قبـل ديفـيز، بجمالهـا وحقدهـا واستقامتها.

«لابد، أحببتها كثيراً»، قالت برقة، وللحظة تحت تأثير الوجه، تمنّى لو يقول الحقيقة، إنها معلقة هناك كتذكار لبغضه، كرضا باتضاعه، كتذكير بالمرأة الوحيدة التي ما أخفقت يوماً في أن تراه على حقيقته. «دعيني أريك المطبخ»، قال بسرعة.

كان المطبخ مثل ثلج ذرته الرياح بخزائنه البيضاء وأقمشته البيضاء وطاولته البيضاء وفرن الغاز المطلي، وجدران سقفه الأزرق الغامق. انعكست الأنوار في الغرف الخلفية للبيوت المواجهة متوهجة على الجدران، وشكت سيارة في المرآب التي توسطت الأبنية. «يمكنك أن ترى ما يفعله كل منهم»، قالت كاي واقفة عند النافذة. من شقّ في ستائر الطابق العلوي، رأت امرأة تسرّح شعرها، سريراً مزدوجاً انتظر شاغليه، خادمة وضعت إفطاراً، رجلاً كتب رسائل، سائقاً انحنى من نافذة شقة صغيرة فوق مرآب ودخّن غليونه الأخير.

«كلٌّ يفعل شيئاً مختلفاً»، قالت، عائدة بنظراتها إلى السرير المزدوج وأفكارها على الغطاء الوردي في الغرفة الأخرى وجولز، ونصف رغيف أفضل من لاشيء وصورة المرأة الجميلة اللامبالية المتوفاة على الجدار. كان جسدها مستعداً للمتعة، وقد غطّى السلام الحسي كل مخاوف وإحراجات النهار، ما أحست مطلقاً أنها في مأمن أكثر منها بين ذارعي رجل.

❄ ❄ ❄

سار كونراد ودروفر، وحقيبة دبلوماسية بيده طول الطريق إلى باترسي. لم يستطع أن يجبر نفسه على تبذير أي قرش على الباص أو المترو بدلاً من إنفاقه على عريضة أخيه. كان أخوه الرجل الوحيد الذي أحبّه في العالم، وها هو يحتاجه لأول مرة في حياته، لأول مرة احتاجت العضلات عقلاً. سابقاً، كان العقل هو الذي يحتاج إلى القوة دائماً، الذكاء هو الذي احتاج الغباء. ركض صبي كل الطريق نزولاً إلى شارع أوكلي وعلى جسر الامبانكمنت مسرعاً إلى زاوية الملعب حيث ضرب أخوه كرة على الحائط. جاءت الحافلات تئزّ مثل إصبع تنسحب مضغوطة على زجاج صاعدة

منعطف جسر باترسي ونازلة إلى الشوارع السيئة الإنارة خلفه، وعلى الماء طفت النوارس نائمة. هبط كونراد، إلى ظلام المدرسة الثانوية وحيداً دون أخيه، تقاذف الاسفلت اسمه «إنه يدعى كونراد، كونراد، كونراد». جلس أخوه في القفص الفولاذي يسوق عبر المطر، يكسب ثلاث جنيهات في الأسبوع. جلس كونراد على مقعد مدركاً الكراهية خلفه، في المدرسة وفي المكتب. الإعتراف الفاتر بكفاءته عبر الباب الزجاجي لغرفة مدير المدرسة، ولغرفة مدير الشركة. كسب كونراد ست جنيهات في الأسبوع.

لامس الدرابزين البارد حول المعهد الصناعي في باترسي ظهر يديه. تابع كونراد دروفر مسيره نحو المرأة التي أحبها أكثر من أية امرأة أخرى. فتح الرسالة التي وصلته من أخيه على طاولته وقرأ بيأس. «تزوجت يوم الخميس». مرت أسابيع قبل أن يدرك أن ميلي لم تسرقه من غباء وصفاء وقوة أخيه. يافطة على الدرابزين قالت: «ممنوع رمي الحجارة على المعهد الصناعي».

لم يكن ثمة شيء قدر أي منهما، كوندر وميللي، أن يفعله لأخيه. ترعرعا معاً في إعجابهما وعجزهما، كأنهما جالسان في ظله بعيداً عن العالم الذي اهتز وزأر حولهما. لقد مضى الآن، وصار عليهما أن يمتلكا القوة. صلّى كونراد طوال اليوم أن يستعير الغباء، فربما لايدرك ما يحصل خلف اللمات الثلاث من الشعر الأبيض والأرواب الحريرية والهمسات والعقود: «إني أعرض، ياسيدي، لو نظرتم إلى قضية ركس ضد هندل»، والسعال والعوز التام إلى الإهتمام. مرّ به ولد يركض وراء كرة، وتمسك كونراد بالدرابزين لئلا يقع. فكر بمرارة بـ كايٍ إذ قالت: «سيطردني المدير. أنت مختلف. لك عقل». إذا رزقت طفلاً ذات يوم، فكر، سأصلي أن يولد غبياً.

وضع القاضي الأكبر سناً رأسه على يده وقال بقلق: «لقد منحنا محامي الدفاع فسحة كافية. وقد قضى وقتاً طويلاً في أمور لاصلة لها بالموضوع». بدا متفاجئاً ومصدوماً قليلاً من براعة محاولة انقاذ المتهم. براعة وليست عاطفة، أومأ المستشاران وأشارا وتبادلا التهاني، اختلفا مرة بشأن ركس

ضد هندل، لكنهما بعد ذلك رآهن كونراد في الممر خارجين إلى الغداء بيد. «طبعاً، لم أمتلك فرصة». «لقد قمت بعمل رائع. وقد رأيت التأثر على المحامين». وبعد ذلك، في البيكاديللي، على درجات بركلي، سمع الرجل النحيل ذا الوجه المريقن يقول: «عربة أطفال على تاكسي» وضحك. لقد عرفه كونراد دروفر. فقد استطاع مساعد المفوض أن يضحك لدعابة سخيفة في نفس اليوم الذي تقرر فيه مصير أخيه. كان أخوه مجرد واحد من كثيرين شنقوا لأجل العدالة. قال القاضي العجوز بصوت عطوف: «لقد ناقش محامي الدفاع بمهارة فائقة مسألة الدافع. وحاول أن يظهر أنه قد أسيء توجيه المحلفين...» قال محام شاب وراء كونراد مباشرة: «سأذهب إلى محكمة العجوز سيموند. لم يبق هنا ما يثير الإهتمام. أراك في القاعة». عندما انفتح الباب استطاع كونراد سماع أحدهم يندفع في الممر الطويل. قال القاضي: «لقد توصلنا إلى نتيجة أنه ليس ثمة سبب لإلغاء قرار المحلفين».

عاش أخوه في قبو قبالة أشجار الغار ودرابزين المعهد الصناعي. رنا كونراد إلى الأسفل وشاهد تحت قدميه الوميض الأصفر للمطبخ. تلاشى المبنى غير المضاء إلى السماء. كان مثل شاهدة فوق ضريح وأظهر ضوءان أحدهما كان حياً في القبر. قرع الجرس وانتظر. كان كلّ شيء كالمعتاد، حتى وقع الخطوات ولألأة النور الذي بقي مضاء خلف الباب، وحتى لحاقه بميللي بصمت هابطاً الدرجات الحجرية إلى المطبخ.

لم يكن ثمة ما يقوله أحدهما إلى الآخر يوماً أكثر منه الآن، لكنه كان صحيحاً، فكر، بينما فتحت الباب وقادته إلى وميض الغاز بين الأطباق المرتبة النظيفة، إنها المرة الأولى التي كانا فيها وحيدين تماماً. لا يحتاج المرء لأن يكون وحيداً مع ميللي ليحبها أكثر من أية امرأة أخرى. لم تكن جميلة. كانت ضئيلة وشقراء ونحيلة، وكانت يداها كبيرتين جداً وعظمتا وجنتيها عاليتين ناتئتين في وجه كان أكثر سخاء من أن يكون جميلاً. كانت بعض النساء مثل بيانات الحسابات المدققة، دخلت نسبة كل جزء في عمود ودققت ووجدت صحيحة، لكن حسابات ميلي كانت من شركة مفلسة، لم تكن متوزانة، لكن عدم التوازن هذا انعكس سخاء مترفاً.

تبادلا القبل بصورة رسمية سريعة، كأنها كياسة لابد منها قبل الشروع في عمل هام. نظر إلى الطاولة، إلى الفرن، «لم تتناولي عشاءك».

قالت: «لست جائعة»، ثم كذبت، «تناولت فنجان شاي كبيراً». لم تقصد الخداع بكذبتها. كانت إنذاراً، فهمه، يجب أن يقال كل شيء ويعمل حسب الطريقة المعتادة. لم تكن محصنة جيداً ضد العاطفة، إذ كانت خائفة تقريباً من كل شيء قد يفعله. قال: «سوف أقلي بعض اللحم»، ولم تجرؤ على القيام بأي احتجاج. وشرع يتكلم بسرعة كبيرة فيما طش اللحم في المقلاة، وسرعان ما صارت الكلمات مبهمة. «كانت لدينا قضية ممتعة أمس. حريق متعمد. أشعل الرجل النار في جزء من محله، هذا ماظنناه. كنا سنختبر إدعاءه، لولا أسقطه فجأة، فتركنا الأمر عند هذا الحد. هو نفسه أشعل النار، لذلك لم يصل الأمر إلى الشرطة البتة. اسمه بيرني. غرفة واحدة فقط، كثير من المواد احترق، وكثير غيره فسد. السؤال الآن، لماذا أسقط ادعاءه؟ هل خشي أن نتمكن من إثبات التعمد؟ الرئيس لايصدق ذلك. ويعتقد أنه لم يهتم بالإدعاء أبداً، بل أراد التخلص من المواد التي ربما كانت مسروقة، والشرطة كانت تراقبه فأثارت ريبته، ليس شأننا على أية حال». تطلع فجأة بهلع، يراقبها من الجهة الأخرى للفرن عبر الدخان الخفيف من الدسم المتناثر. كان مدركاً أفكارها المتعلقة بكلمات: حريق، شرطة، احترق، كما لو أنها قالتها بجلاء. «لا،» قال، «لا، يجب أن تهتمي بنفسك. مازال هناك أمل». كانت الكلمات صرة من قنابل يدوية انقذفت إلى متراسها. «أنت لاتصدق ذلك». راقب بألم وحنان وجهها الأبيض اليائس، وكتفيها المنحنيين قليلاً تحت ثقل خمس سنوات سعيدة. لقد وعى فجأة بصورة جلية كيف أن الظلم لاينتمي فقط إلى قاص عجوز تعب، إلى شرطي يمزح في البيكاديللي، بل إنه بنفس القدر جزء من الجسد كالعمر والمرض الذي لايمكن اجتنابه. ليس ثمة شيء يدعى عدالة في الهواء الذي نتنفسه، لأن أولئك الذين كرهوا وحسدوا وتزوجوا طمعاً بالمال أو الراحة هم الذين كانوا سعداء. لا يستطيع الموت إيذاءهم، أنه يؤذي الذين أحبوا فحسب. لايطاق ثقل هذه السنوات السعيدة، الأيام في الحديقة

والليـالي في دور السـينما، السـرير المشـترك، والطعـام المشـترك، والبـؤس المشترك.

قالت: «لم أكن لأهتم لـو كـان يحتضـر هنـا. بمقـدوري أن أعتـني بـه. سنكون معاً طوال النهار والليل». أقنعت نفسها كم ستسعد معـه يحتضـر في الطابق العلوي، ومضت عيناها للحظة بسعادة زائفة لحلم يقظتها: إنه كان يحتضر في الطابق العلوي. وقد اهتز حبه لأخيه لمرأى قنوطها.

- «لم فعل ذلك؟» احتج.

- «كـان الشـرطي سيضربني»، قـالت. «كلنـا كنـا مهتـاجين». بـدأت ترتجف بكاملهـا كمـا لـو أنهـا كـانت ثانيـة تتوسـط الحشـد قـرب زاويـة الهايدبارك. غذّت جموعهم السير عبر روتن رو يثـيرون الغبـار فيتحـول إلى سحابة رقيقة، وحوّل الخيالة ركابهم البراقة وأسرعوا متراجعين فيمـا ضج الحشد وسخر منهم. لوّح رجل عاطل عن العمل بلافتة قرب تمثال آخيل.

- «رأيت كاي، كانت ذاهبة إلى اجتماع حزبي. لابـد سيفعلون شـيئاً مـا لأجله».

استدرات الجموع وركضت فيمـا انحـدر الخيالـة بهـروات مشـرعة مـن روتن رو. ضرب الرجل جانب تمثال آخيل شـرطيين برايتـه فألقيـاه أرضـاً ولويا ذراعيه خلف ظهره. صرخ الرجل طلبـاً للنجـدة لكـنّ الجمـوع كـانت تصارع للهرب من أسفين الشـرطة الذيـن كـانوا يسـوقونهم نحـو البوابـات. كـانت مـروج الحديقـة الخضـراء الفسـيحة منقطعـة بالهـاربين في ثيـابٍ رثةٍ.

«لن يفعلوا شيئاً من أجله»، قالت ميلي جافلةً ثانية من الهراوة المرفوعة وخشية الألم الذي لم يأت أبـداً. كـان الشـرطيٍ راكعـاً بـنزق فـوق العشـب ويصرخ ويشهق وفجأةً صارت الجموع بعيدة جداً، وكانوا ثلاثتهم وحيديـن مـع العشـب ومقعـد حديقـة وشـعور بكارثـة. كـان وجـه الشـرطي مبتـلاً بالدموع.

- «يجب أن تتناولي بعض الطعام، هيا، اللحم جاهز».

ـ «لست جائعة». سحب كونراد كرسياً وجعلها تجلس. أخرج صحناً دافئاً من الفرن ووضع اللحم فيه. كاد يكون سعيداً لأنه جعلها تأكل.

ـ «ألا تستطيع عمل شيء، ياكونراد؟ أنت ذكي». لم تكن الكلمات منها إهانة كما كانت من كاي.

ـ «سوف أعتني بك حتى عودته. يجب أن يكون لديك رجل في البيت».

ـ «ليس لدينا غرفة لك».

ـ «سأضع فراشاً على الأرض».

ـ «حسن. لكني لست بحاجة لأحد. لست بحاجة لشيء». ومع ذلك ناقضت نفسها بعد لحظة: «أليس هناك شيء يمكنني عمله؟ فكر في شيء يمكنني عمله». سحب كرسيّاً إلى الطاولة وجلس إلى جانبها. «سأفكر في شيء ما لاتخافي». لكنّه هو نفسه، رأسه بين يديه، متظاهراً بالتفكير، كان دائخاً من الخوف. كانت تتوسل إليه. كان مطلوباً منه أن يساعدها، والمساعدة الوحيدة التي تدرب على تقديمها كانت الجمع والطرح والقسمة والضرب. اعتمد المكتب كلّه عليه، مدراء يقودون سياراتهم، يؤمنون حالياً فوق الطاولات المغطاة بالمخمل الأخضر في غرفة مجلس الإدارة، حملة الأسهم يثبتون على أقدامهم ويسألون بعناد ماعناه هذا الرقم، لماذا لم يحسب حساب هذا الرقم، لكن اعتماد فرد واحد جعله يدوخ خوفاً.

ـ «إني خائفة دونه هنا»، قالت. لقد جلس جيم للخمس سنوات الماضية في كرسي واحد، في مكان واحد، في المطبخ، وتكلّما وضحكا وقلّما لاحظا أن بلادته الجلّية قد هدّأت أعصابهما وعاقت براعتهما. «قل لي مالعمل. قال دائماً أن لديك عقلاً».

أطرق كونراد إلى الصحف المنشورة على طاولة المطبخ. استغل ذهنه للتهرب من مهمته، متنقلاً عبر أعمدة الطباعة، ملتقطاً عنواناً هنا وعنواناً هناك: سيطير السيد ماكدونالد إلى الوطن إلى لوزي ماوث، هل لديك بوليصة تأمين؟ اكتشف النجوم.

ـ «علينا استخدام النفوذ. كل شيء يخضع للنفوذ»، قال، مفكراً بالأخوة في مجلس الإدارة، ابن الأخت في غرفة الكتبة. لكنه أحبط في اللحظة التالية لضآلته هو نفسه وضآلة ميلي. سمع العالم يطن بأصوات الجنرالات والساسة والأسقافة والجراحين ومدراء المدارس، الذين عرفوا مايريدون، والذين عرفوا ماأراده كل امرىء آخر: لدي ابن عم، عم، ابن أخت، ابنة أخت. العالم يطن ويتذبذب بشد الخيوط. ضاع وجه ميلي بين الوجوه الخشنة الواثقة المثقفة. إنه لاينتمي إلى نفس العالم فهؤلاء ممتنعين على الألم والفقر والكارثة. لايستطيع المرء مناشدتهم من أجل العدالة، فالعدالة بالنسبة لهم كلمة أخرى مرادفة للسجن.

ـ «لكن كيف؟»

اكتشف النجوم، قرأ. هل لديك بوليصة تأمين؟ ماكدونالد... كانت هناك صورة لأمير ويلز يدشن مأوى جديداً للعاطلين عن العمل، كان محاطاً برجال يرتدون معاطف الفراك، ويحملون قبعات عالية، ونساء بمعاطف الفرو احتشدن حول حافة الصورة يحدقون في المفتاح الذهبي، خرج ضابط وعروسه من سانت مارغريت إلى وهج الدعاية تحت السيوف التي صنعت قوساً. امرأة رثة الثياب ببروش مرصع بدت غريبة على المكان على نفس الصفحة: السيدة كوني، زوجة الشرطي المغدور.

ـ هل رأيت هذه؟

أيقظتها الصورة للحظة من بلادة يأسها. كانت سعادتها ملوثة بالخبث دائماً. قنع زوجها بعمله ورأته صار شيوعياً، لم تعر هي ذلك اهتماماً، وقنعت بحبه فقط وشكت بالعالم الخارجي كله. لم تصدق أبداً أنهما سيُتركان وشأنهما ليستمتعا معاً. كان خبثها شكلاً من دفاع رجاء للآخرين أن: «اتركونا وشأننا». قالت آنئذ رانية إلى الصورة، بالنبرة المعتادة للبغض المبالغ به: «إنها تذكرني بـ... تبدو كـ...» لكنها فقدت سلاحها الوحيد، لم تذكرها المرأة بشيء إلا بالشرطي جاثياً على ركبتيه يصرخ بألم وخوف في الحديقة، محدقة بكآبة إلى غريب معادٍ، إلى المطبخ النظيف الدافىء.

«روحي، قابليها» قال كونراد. «إذا وقعت عريضة الإسترحام فالصحف كلها ستنشر الخبر، وسيتخذون إجراء ما. لم تعد الصورة لها أي وجود خارجِ المكان على تلك الصفحة لذوي الشهرة، السيدة كوني لها نفوذ أيضاً».

ـ لن تفعلها أبداً.

ـ «اذهبي وحاولي غداً. أعرف، سيكون الذهاب صعباً والتوسل...»

ـ «سيكون سهلاً»، قالت ميلي «لم أكن أفكر بذلك. كنت أفكر ما الذي سأفعله أنا، لو كان المقتول جيم وتلك المرأة (كوني، حقاً، تشبه جرذاً جائعاً) جاءت وسألتني أن أساعد زوجها». راقبها كونراد راضياً. فقد أعطاها شيئاً تفعله ولم تعد يائسة. عادت ماكرة إلى طبيعتها. «تابعي» قال، «ماذا كنت ستفعلين؟»

«ستكون رغبتي أن أشد شعرها وأخمش وجهها»، قالت ميلي، لكني أظنني حقاً ـ أظنني كنت سأوقع العريضة. فما حدث لايمكن استعادته، أليس كذلك، لكن القول المأثور عن مصادفات لاتحصى، عن الحليب المهدور، عن الزجاج المكسور، عن المعجنات المحترقة، أظهرها زائفة. قام كجدار عالٍ بين خمس سنوات سعيدة والحاضر. على المرء أن يتذكر ماالذي كان يحصل في الجانب الآخر. على المرء أن يشحذ تفكيره ليتذكر تفاصيل أمسيات لا أحداث فيها. يستحيل أن تتكرر. «فكر بشيء آخر يمكننا عمله. فكر. فكر».

فكر كونراد. لكن الفكرة الوحيدة التي خطرت له كانت عن آخر لقاءاته مع أخيه، في مكان بحجم كشك الهاتف، حيث لايمكن التكلم والرؤية في نفس الوقت. نظرة عبر الزجاج. كلمة عبر الخط، قال كونراد، ويده ممدودة فوق صورة السيدة كوني: «يجب أن نأخذ بعين الاعتبار شيئاً آخر».لقد سأله أخوه: «كيف ميلي؟ خلّ عينك على ميلي». لذا كان واجبه أن يدعها ترى الأسوأ. كان هناك شيء تأكد أن ميلي لم تأخذه بعين الإعتبار، لأنه لاينتمي إلى هدوئها وكرمها ومكرها، إنه ينتمي إلى ذكائه هو، ذكاء الجمع والطرح وموازنة الحسابات ذات القيود المزدوجة. «يجب أن نتذكر أنه إن حصل على تخفيض الحكم فسوف يسجن ثمانية عشر عاماً. إنه في الثامنة

والثلاثين الآن. وسيكون في السادسة والخمسين عندما يخرج، ستكونين في الخامسة والأربعين».

فاجأته. «فكرت بذلك، طبعاً، فكرت بذلك. لكن ما جدوى التفكير؟ أفضل أن يعيش من أن يموت، سأذهب لمقابلتها غداً». لكن الصمت الطويل بعد اعتراضها أظهر أنها لم تفكر بذلك. جاءتها الفكرة فجأة وجلية لما يمكن أن تخسره. أحست بها كذبول البشرة والقضاء على حياتها الجنسية. عندما يخرج من السجن. فستكون دون عاطفة أو متعة. «لاتستطيعين أن تطلّقي سجيناً»، قال كونراد. خشي من غضبها لكنها كانت مندهشة ليس إلا. «لن أطلّقه إننا نحبّ بعضنا بعضاً».

«طبعاً» قال. «يمكنني فهم ذلك. أنا أحبّه أيضاً. أكثر من أي شخص آخر أحبّه أكثر مما أحبك».

- «ليس لديك سبب لتحبني».

أراد أن يقول لها أن لديه السبب نفسه الذي كان لأخيه. أراد أن يسمعها وصفها، الشعر الأشقر الرائع، عظمتا الوجنتين العاليتين، الثغر الكبير، اليدان الكبيرتان، الجسد الضئيل، شجاعة مكرهاً، إخلاص يأسها.

- «ليس لديك سبب لذلك»، قالت ثانية، «سخرنا منك، أنا وكاي، مرات عديدة»، ثم قالت بتنهيدة طويلة تجسّد السنوات السعيدة الماكرة التي مضت، «لقد سميتك المرأة العجوز. وجهك الأبيض وارتعاشاتك. والآن»، تابعت، مبتسمة دون إرادة، «أنت أفضل من بيت لا رجل فيه، عندما يكون المرء متزوجاً لخمس سنوات يبدو غريباً أن يبقى وحيداً في بيت مع فتاة. وطبعاً»، قالت بسماحة، «لديك عقل».

- كاي لاتفكر بالعقل كثيراً، لاتعطي العقل قيمة كبيرة.

- آه، لاتهتم بما تفكر به كاي. ثمة شيء واحد فحسب تريده في الرجل، وهو ليس العقل.

- «سآتي غداً مساء»، قال كونراد.

نهضت عن الطاولة وجاءت وجلست على حافتها قريباً منه. «ينبغي أن تذهب إلى البيت لتنام الآن»، قالت. «تبدو تعباً جداً، لقد أجهدت نفسك

بالعمل كثيراً. حسناً فعلت أنّك أتيت. أشعر أني أكثر سعادة بتلك الفكرة للغد. لاأفهم أنّى لها أن ترفض».

ـ يجب ألاّ تتوقعي الكثير.

قالت ميلي بفورة غضب: «أنت لاتتوقع ما فيه كفاية، هو ذا أنت، تبدو دائماً كما لو أنك ستفصل من عملك، وأنت موظف رئيسي وتحصل على ستة جنيهات أسبوعياً. لم لا تردد كل يوم: إني ناجح، إني ناجح؟ لو أقمت عندي شهراً، لرأينا شيئاً مختلفاً».

ـ «نعم، ماذا؟ أخبريني؟» استراح مبتسماً ابتسامة حمقاء لفكرة صحبتها.

ـ سأقدم لك الكثير من العصيدة، وأجعلك تنام كثيراً. أعصابك كلها مضطربة. مدّ يدك. انظر كيف ترتعش. لن تنفع لاستخدام مسدس. آه لو تقيم هنا شهراً. سأصنع منك رجلاً. ها أنت أفضل منذ الآن. انظر نفسك مبتسماً أنت مختلف الآن.

ـ لست كما عرفتك. ما سمعتك قط تتكلمين كثيراً مثل اليوم.

ـ «ما احتجت لأن أتكلم البتة قبل»، قالت. خفق الانتعاش والنسيان في وجهها مثل قصاصة ورق في ريح عاصفة، تتقاذفها تيارات الهواء، طارت للحظة ثم اندفعت إلى الأرض إلى غبار البؤس. «ليس لدي شيء أفعله غير الكلام، الكلام».

ـ «أعصابك مضطربة كأعصابي». مسك بيديها وقال: «ساعديني وسأساعدك. تحدثي إليّ كما فعلت للتو، ولسوف، سوف...»

ـ ما الذي يمكنك عمله؟ ليس ثمة شيء يمكن لأحد أن يفعله. لن تستطيع تلك المرأة أن تفعل شيئاً. لاأحد. لقد أخذوه وسيحتفظون به. لا أحد يريد للناس أن يكونوا سعداء. لو لم نكن سعداء جداً، لما حصل ماحصل، لما كان طعن ذاك الرجل، ولبقينا معاً. ماأردت قط أن أكون سعيدة. كنت خائفة دوماً.

ـ «سأفكر بشيء ما». قال كونراد.

❄ ❄ ❄

فكرت بوعده ممتنة لكن دون كبير أمل فيما صعدت الدرجات الحجرية إلى غرفة النوم في الطابق الأرضي. بدا المنزل كله، حتى الطوابق غير المعروفة فوق، يكتنفه الفراغ. كانت القاطن الوحيد في الأسابيع الستة الماضية، منذ رحلت المرأة العجوز ذات اللحية على عجل في سيارة لراكبين يقودها شاب ـ هيكل سرير، كرسيان، طاولة زينة، تكومت كلها في المقعد الخلفي وعلى أرضية السيارة. بعد ذلك بيوم، حضر حاجب المحكمة، وأُنزلت قطع أثاث ثقيلة درجة درجة، هازة جدران غرفة نومها وقاشرة الجبصين عن سقف القبو.

خلعت ميلي ثوبها، ارتدت روبها، وأخذت تمشط شعرها. في الخارج، صرّ الباب الرئيسي بفعل الريح الذي حرك تياره المسحة. أي كان يمكنه الدخول لأن القفل مكسور، فتساءلت لماذا لم تطلب إلى كونراد البقاء. مرة أخرى أدهشها تغيرها أنها يجب أن تعتمد على كونراد، الذي لم يكن ذا وجود واقعي أبداً بالنسبة لها عندما كان هناك جيم، كان مجرد صفة افتقر جيم إليها، صفة عقلية، صفة عصبية، ليس إلا. استحال الآن إلى رجل، شخص هبط من الحياة البشرية ليجعل خواء البيت الهائل أقل اكتمالاً.

سبق لها أن بقيت وحيدة كثيراً من الليالي، إذ تكون كاي خارجا وجيم في عمله الليلي، مع مماسح ترتفع وأبواب تصر، لكنها ماهتمت، مستلقية على السرير وعيناها مفتوحتان في الظلام حافظة سعادتها طوال الوقت في ذهنها لأنها عرفت أنها لن تستمر هكذا إلى الأبد، كانت الصحبة التي احتاجتها هي ترمس الشاي الساخن وطبق الشطائر الجاهز في المطبخ، ولاغير ذلك.

صرّ لوح فوق رأسها وارتفعت ممسحة الأرجل. فكرت: ستعود كاي قريباً. ماالذي تفعله كل الوقت حتى الآن؟ هل يساعدون جيم؟ لكنها لم تصدق ذلك، يقع فكرها مرة أخرى على المروج الخضراء للحديقة والجموع تركض هاربة. استدارت عن المرآة إلى السرير الخالي، لكنها لم تذهب إليه. شذرته باشمئزاز حزين، الملاءة البيضاء المقلوبة، المخدتان. كادت لاتميزه. كان خالياً كالبيت، بارداً كتيار الهواء تحت الأبواب. وجب أن يكون جيم

مستلقياً فيه، منهكاً جرّاء عمل اليوم، ومع ذلك يكون منتعشاً حينما تنضم إليه. لقد شعرت أنها آمنة دائماً في السرير إلى جانبه، تتحسّس شكل عظامه مثل قساوة جدار. صار السرير خريطة لقارة غريبة الآن، فضاء خاوياً ينتظر من يكتشفه عبر سنين عديدة، وفكرت ثانية بحس من الذهول: إن لم يعدموه، فسأكون في الخامسة والأربعين. ضغط فراغ الطوابق الفوقانية عليها ثانية مثل فراغ السنين. أفضل أن يكون حياً منه ميتاً، فكرت، لكنها مااستطاعت أن تشعر بالثقة. كانت تعرف مايريده دوماً، عندما كانا معاً، عندما كانا في غرفتين منفصلتين، عندما كانت في البيت وهو في المرآب، لقد ومضت بنات ذهنه الغبي مشرقة في عقلها دائماً. لكنّها الآن، لأنها لم تتمكّن من تخيّل ما يحيط به، لم تستطع أن تتكهّن يقظان هو أم نائم، فقد امتنع التواصل بينهما، ومع أنهما أحبا بعضهما بعضاً، إلا أن عقليهما صارا مثل بلدين متحاربين، انقطعت الخطوط وارتفعت السكك الحديدة بينهما.

صرّ الباب مرة أخرى. تمنت لو تعود كاي، وهي تجلس على طرف سريرها، كادت فكرة الطوابق الخالية فوق رأسها تصبح لاتحتمل. غبار وأطر نوافذ وأبواب محطمة وفئران تركض خلف اللوح المتدلي. لقد أحسّت أنها كانت أكثر سعادة حتى مع العجوز الغريبة الأطوار ذات اللحية التي أقامت هناك فوقها. هي، أيضاً، لابدّ كانت بائسة، تخاف وكيل المحكمة، وتخطّط بسرّية هروبها مصطحبة هيكل سرير وكرسيين وطاولة زينة. وقبل سنة، قبل أن تحس ميلي بالحاجة إلى ملء الفراغات الخالية بالحياة الإنسانية، عاشت أمٌّ وستة أطفال في الغرفتين أعلى المبنى. إنها الآن لترحب بالبكاء ليلاً، والضجيج على السلم، والحركة المستمرة العنيفة، كأنها حلوى تغلي.

قالت بصوت عال: لاأستطيع تحمل هذا، وهرعت فجأة إلى الباب. كان ذلك كما لو أن آثار قدميها ذاتها على الغبار على الألواح سيجعل الغرف أقل خواء، كما لو أنها ستجعلها آهلة بتفتيت وتوزيع أدوار تعاستها. كانت المصابيح الكهربائية مطفأة على السلم وزجاجها قد سرق. تحسست طريقها درجة درجة فيما تصلب جلدها بالبرد. لم تخف عندما

صرّ لوح. سهل على متشرد أن يقضي ليلته على درج غير مستعمل، لكنّها حتى لو وضعت يدها على وجه، لما كانت لتجفل. ما استطاعت أن تعرف ماالذي منحها الشجاعة، ما إذا كان ذلك سببه أنه لايوجد شيء في الموت الآن لتنكمش مذعورة منه، أو ما إذا فكرة القتل لم تعد ترهبها لأن زوجها كان قاتلاً. لكن الدرجات كانت خالية مثل الغرف التي عبرتها، وقد جعلها ضوء القمر عبر الزجاج غير المستور مربعات باردة رثة كالجليد المستعمل عند باثعي السمك، وجدت في إحدى الغرف، على حاملة وقود كرة كبيرة من الشعر المشوط كجمجمة طفل، وعلى الأرضية في غرف أخرى فاتورة غير مدفوعة لزوج من المشدات النسوية. مضت إلى الأعلى، إلى الغرفتين حيث كانت رائحة هواء راكد وخفاش ميت كرزمة من خيوط بنية على الأرضية. لابد أنه نزل من المدخنة ولم يجد طريقه إلى الخارج ثانية.

انفتح الباب وانغلق في الأسفل، وجرّت ميلي أطراف روبها نازلة الدرجات العارية، على بسطة درج الطابق الأول شمت نفحة عطر، وفي الضوء الصادر من غرفة نومها رأت كاي تنزع قفازيها. شعرت بالخجل أمام أختها الأصغر منها، وقفت على حافة الوحدة، حاملة شيئاً من فراغ الغرف الخالية في عينيها الزرقاوين المرتبكتين، بينما جلبت كاي معها عالماً من الرجال. لقد أحسّت أنها وبعد خمس سنوات زواج غير خبيرة وبريئة بصورة غبية أمام كاي.

- ميلي، مابك، بحق السماء؟ ما الذي تفعلينه هناك، فوق؟

- لم أستطع أن أنام. هل حضرت الإجتماع؟

- نعم.

- هل سيفعلون أي شيء؟

- كلهم وقعوا العريضة.

نزلت ميلي الدرجات، وذهبت إلى حجرتها وجلست على سريرها.

«ميلي»، نادتها كاي من غرفتها الخاصة على الطرف الآخر للممر، «لكن هذا ليس كل شيء، سيقوم السيد سوروغيت بعمل ما. سوف يستخدم نفوذ سيدة يعرفها».

خلعت ميلي روبها، أطفأت المصباح واستلقت على السرير. شعّ النور من غرفة كاي عبر الممر وغرفتها. «ذهبت معه إلى البيت»، قالت كاي، «يا لها من شقة رائعة يملكها. زوجته متوفاة، وهناك صورة جميلة لها. ظننته سيطارحني الغرام، لكنه لم يفعل. تحدث فقط حول الزواج وتحديد النسل. كانت مثل محل بيع المطاط. سوف أقابله غداً مساء وعندئذٍ سنرى الشرر يتطاير».

صرّ الباب وارتفعت المسحة، وتكلمت كاي. طافت الريح حول باترسي ورسمت علامة رطبة على زجاج النافذة. «كانت تمطر وأرسلني كل الطريق إلى البيت بسيارة خدمة». فكرت ميلي: سأكونٍ في الخامسة والأربعين، وفي الإحباط المذهل للفكرة نامت خلال لحظة. «غداً مساء»، قالت كاي، وهي تفرشي شعرها مائة ضربة. حلمت ميلي، وقد ارتعشت خوفاً ومتعة أن جيم يغطيها بجسده، وأنهما ساكنان وسعيدان وراضيان من أعماقهما الآن. لكنها سرعان ما استيقظت ثانية لفكرة يد كونراد المرتجفة. يمكن لإمرأة أن تتزوج رجلاً هشاً أيضاً، فكرت بخبث مغرور لأن جيم كان صلباً كجدار وحتى غباؤه امتلك قوة، لكنها عندئذ تذكرت الحديقة والسجن والقاضي وغضبت لغبائه وقوته. تذكرت الغرف الخالية وكومة الشعر المشوط والفاتورة غير المدفوعة والخفاش الميت. ما نفع حبك لي إن فعلت هذا بي؟

قالت كاي: «لديه أجمل غرفة نوم وردية». جلست، وجبينها يوشك يلامس الزجاج، تسمع، كما فعلت كل ليلة، هدير الآلات وخشخشة العلب الساقطة.

❄ ❄ ❄

انزلني هنا، قال مساعد المفوض. عند ناصية شارع الغريت كوليج، وتصلب مثل كبار السن المهتاجين عندما وقعت يد السكرتير على ركبتيه. لن تنسى، قال السكرتير، بيل العجوز يعتمد عليك. صار ودياً على نحو متزايد مذ غادر السجن، كان مقياس وده أنه تحدث عن «بيل العجوز». آنئذ وليس عن «الوزير». تساءل مساعد المفوض بدون ثقة بنفسه، ماذا

سيفعل فيما إذا خاطبه الشاب بالإسم أيضاً، دون الإشارة إلى رتبته. لم يكن معتاداً على هذه الحميمية في المخاطبة كانت خلفيته مليئة بأنباء الأخوة والأقرباء الذين دعوه «سيدي». ردّ بأسرع ما أمكنه: طبعاً، أنا لا أنسى ـ أم ـ الأشياء، وصعد الشارع مستعجلاً. ما شعر مطلقاً أنه كان مضطرباً إلى هذا الحد وقد دام ذلك طول شارع وستهنستر القديم كله، بأنواره المتناثرة وواجهاته المحترقة البالية، بجوه من غرف جلوس أرامل النبلاء ليسترد هدوءه.

تحدثت سيدات معمرات بثياب من الحرير خلف النوافذ العليا الطويلة برقة عن لقاء مع السيد براد نينغ في فلورنسا إلى رجل عجوز ذوي شوارب بيضاء لم يكن اهتمامهم بالسياق يتجاوز أبداً لحظة النشوة عند المرور بشجرة برسيمون. دارت أفكاره صوب فلوسي ماثيو المغتصبة في ستريت هام كومون، وهو يسير على مسافة عشرين قدماً تحتهن.

أظهر الضوء في شقته أن السيدة سيمبسون ماتزال تنتظره. كان قد طلب عشاء خفيفاً في السادسة، ليتمكن من العمل دون انقطاع في تقريري ستريت هام وبادينفتون. نظر مساعد المفوض من فوق كتفه قبل أن يدخل البوابة. كانت الحركة محض عادة. كان ضرورياً في الشرق أن يرقب الطريق خلفه. كان ذلك شرطاً للبقاء على قيد الحياة. فتح باب شقته وولى وجه السكرتير الأشقر الشاحب من ذهنه. صار محاطاً بركام الهراء المريح لحياته: الأسلحة الوطنية، مناصب الغليون، الأكياس المزخرفة، مرطبانات التبغ المنحوتة، السيدة سيمبسون بضفيرتها الرمادية الملتوية وإخلاصها المربك. كان وجهها الصغير المتغضن بحجم جمجمة ذاوية لصياد رؤوس. بدأت تشكو قبل أن يغلق الباب: «لقد تأخرت نصف ساعة ظننتك لن تأتي أبداً. طلبت عشاء باكراً».

ما تجشم قط أن يرّد عليها. فهم كل منهما الآخر. أحبّت أن تتحدث وأحب أن يبقى صامتاً.

ـ فسدَ عشاؤك على أية حال.

مشى خلفها إلى غرفة الطعام ورأى فوراً الكتابة على مذكرة الهاتف: اتصل رجاء بالمراقب كروس.

ـ اتصل منذ عشرين دقيقة، قال، حاول الوصول إليك في الفندق، لكنك كنت قد غادرته. قلت، لاأعرف أين تتسكع.

ـ القسم ٢٣٧٥ .

ـ ليس من هو جدير بالشكوى أكثر مني، رددت. ثم قلت، طلب عشاءه باكراً، وسيفسد الآن.

ـ أهذا أنت ياكروس؟

خرجت السيدة سيمبسون وصفقت الباب.

أصغى مساعد المفوض صامتاً بعض الوقت للصوت الأجش الشكاك الذي أخبره أنهم عرفوا قاتل السيدة جانيت كرول، سمع عن بائع التبغ الضئيل المتكتم كثيراً الذي جاءه إلى سكوتلانديارد في الخامسة والنصف «ترتعش كل أوصاله». كان غريباً كم مراراً أظهرت قضية أنها جدار مصمت حتى اللحظة الأخيرة، ثم يكاد اندفاع المعلومات يصبح محرجاً. كان بائع التبغ مايزال تحت الإستجواب عند كروس، عندما اتصلت مصبغة، وبعد عشر دقائق حكت صاحبة فندق قصتها خائفة لشرطة يوستن.

ـ هل ستقبض عليه الليلة؟

ـ نعم، تقول سيبقى في الداخل طوال المساء. لديه مسدس حربي.

ـ ما هي ترتيباتك؟

ـ لدي رجلان يراقبان البيت. لا أريد أية مشكلة بالأسلحة النارية. ستدخلنا صاحبة الفندق بهدوء وسنقتنصه قبل أن يصل إلى سلاحه. سنغادر خلال نصف ساعة. نظر مساعد المفوض إلى ساعته. سأكون معكم خلال عشرين دقيقة.

ـ «ليس هذا ضرورياً البتة، ياسيدي»، قال الصوت بريبة أكثر منه في أي وقت مضى.

ـ لابأس. ستكون أنت القائد. أريد أن أرى كيف تسير الأمور هنا ليس إلا. على المرء ـ ام ـ أن يعرف الشروط والقواعد الخاصة بهذا الحقل. ما الذي قلته؟

ـ لاشيء، ياسيدي.

ـ آه، وأيضاً ياكروس، هل لك أن تدرس هذا فوراً؟ بشأن دروفر. يريد الوزير أن يقدر تأثير تخفيض حكم الإعدام. دع المخافر تستقصي. بهدوء، أرسل تقارير سرية، أم، لن يحملوا مسؤولية أية أخطاء، ربما حصلت على شيء من الصحافة. افعل مايمكنك. سأدع هذا الأمر لك، لكن أرسل لي ام، التقارير. افعل هذا فوراً. لدينا بضعة أيام فقط.

وضع مساعد المفوض السماعة. عرف الآن ما الذي كان كروس يقوله تماماً. فاتهاماته وانتقاداته تنزل إلى الممرات الضيقة، داخل وخارج غرف الانتظار الزجاجية الصغيرة. «هل سمعت آخر الأخبار؟ هل تعرف ما الذي ينويه الآن؟ التدخل. اصبع إلى كل شطيرة. لايترك أحداً يعمل عمله». كان قد استدار بسرعة كبيرة عن الهاتف ومسك للحظة بطرف الطاولة ورأسه محنياً قليلاً. تصيبه الدوخة جراء أية حركة سريعة. لاعيب فيه إلا العمر، فبعد ستة وخمسين عاماً كان منطقياً أن تجعل الدنيا أي امرىء دائماً.

سرعان ما ثبتت الأكياس المزخرفة ومناصب التبغ والأسلحة الوطنية، ومع ذلك أحس بغرابة أنه غير راغب بمغادرة شقته والعودة إلى سكوتلانديارد. «تدخل، اصبع إلى كل شطيرة». كانت الأشهر الستة من الانتقاد والإعاقة المستمرة تهري أعصابه. لقد تدخل في الشرق. كان متوقعاً منه أن يتدخل، كان ثمة حاجة إلى نصيحته. ما سمحت السنوات الثلاث من القيام بالواجب لأحد أن يغرز جذوره، لكن الغرف الزجاجية الصغيرة على طول الممرات في سكوتلانديارد كانت كالمخابىء العميقة لنظام خندقي معقد. ما كان باستطاعته طرح سؤال دون جرح كبرياء أحد المحققين، الذين لم يدركوا دوافعه. لم يكن يهددهم، ولم يُعّين لتنظيف الإدارة، لقد كلف بعمل وأراد أن يفهم عمله فحسب. فتح باب غرفة الطعام، وقال للسيدة سيمبسون مضطرباً قليلاً في المطبخ: «لا أريد، لا، لا، يعني، ام م، أنا ذاهب».

ـ وماذا بشأن العشاء؟ هنا كنت أكدح، بعد ساعات العمل، مع أنهم بحاجة لي في بيتي، وكل الشكر الذي ألقاه...»

ـ سيدة سيمبسون، كليه أنت.

اندفعت من المطبخ، ضئيلة، شيباء، غاضبة، تمسح يديها بمريلتها. كان خلفها اضطراب بخار ورائحة طعام محروق. ليست السيدة سيمبسون طاهية جيدة، ومع ذلك لم يكن مساعد المفوض يفطن لطعامه. كان يأكل، ملتفتاً جانباً، وعيناه على صحيفة أو تقرير، وعندما كان من حين إلى آخر يبدي ملاحظة أنه تناول وجبة شهية كان يقصد أن التقرير أو الصحيفة قد سرته.

ـ «طاب مساؤك، سيدة سيمبسون». لكن غضبها وإخلاصها أوقفاه ويده على الباب. لم يستطع أن يدير ظهره قبل أن يتيح لها مجالاً للكلام. كانت قد تقدمت في العمر واهترأت وتمكن منها الغضب وتراخى منطقها، لكنه ميز فيها صفة يشاركها بها، يمكن تسميتها دون دقة، حباً، عناداً، عزلةً، أو حتى يأساً. كلما كان المرء وحيداً زاد التصاقه بعمله، فهو الشيء الوحيد الذي يتوجب القيام به، وهو القيمة الإنسانية الباقية بعد كل تبدل حكومي، وكل تبدل في القلب أيضاً.

«إنهم أولئك القتلة»، قالت بكراهية. «أود لو أراهم معلقين جميعاً، وتخلص منهم. دروفر ذاك». ارتعشت عبر البخار تحت ثقل السنين، وقد أعارها الموت كره وازدراء عمائه وتنافره ذاته. «هدر طعام مهدور».

في الدائرة، وجد أنهم بدأوا بتنفيذ توجيهاته، كانوا حذرين ألا يعطوه مشروعاً للشكوى، فاندفعوا لتلبية أوامره كما لم يندفعوا لأوامر رجل أحبوه قط. في تلك الحالة هناك عطاء وأخذ، إهمال عرضي معذور، لكنهم معه، تنبهوا إلى أن الخلفيات الوحيدة للتشكي يجب أن تكون لهم في مواجهة تطفله. كانت المخافر قد أبلغت بتعليماته بشأن دروفر. حتى إنهم استبقوا بائع التبغ لديهم لعله يريد أن يراه، ووضعوا تقريراً مفصلاً عن تطورات جريمة بادينغتون على مكتبه حاول أن يخترق أدبهم وتحفظهم، لكن دون جدوى.» لن أتجشم قراءة هذا، ياكروس. إنه مهمتك. إني ـ ام م ـ إني مرؤوسك الليلة. إني أريد أن ـ أريد أن أتعلم ليس إلا. كان وجه المراقب كروس خال من التعبير.

انحشروا في سيارة واحدة. استقرت أضواء مصباح مسرح الكوليسيوم الضخم فوق المطاعم والمقاهي والبيوت العامة في سانت مارتن لين. دارت الحافلات حول ساحة ترافلفار مثل أحصنة سيرك. نفذ العويل الحاد لصافرة وولسلي خلال حاجز سير - سيارات دفعت مكابحها، شرطي رفع يده، أما هم فاندفعوا صوب طريق شيرينغ كروس الخالي مؤقتاً من الإزدحام. تهادت العاهرات نازلات من رصيف، صاعدات إلى آخر. وجوه لاتينية مليئة مطبوعة على ألبومات أغان غطت واجهة محل موسيقى، وبينما كان صف من الرجال يحدقون إلى صناديق الفرجة، كان البائع في الداخل يعزف بصورة عاطفية كئيبة موسيقى «حبيبي لاتهتم»، «وليله في باريس» و«ما رآه النادل» و«للنساء فقط». أما الرجال فقد تحشرجوا وأنّوا وارتجوا وارتبكوا. أطلق أحدهم بندقيته في كشك لهو من أجل علب سجائر ومزهريات من الصيني.

- هل جلبت مسدساً، يا سيدي؟ سأله كروس.

- ليست لدي بندقية، رد مساعد المفوض.

كنست دفعة ريح ومطر النوافذ في سانت غيلز سيركس وارتفعت إعلانات رجل يبيع صحفاً جانب ليون كورنر هاوس، حيث للحظة، بينما أعاقهم باص، لمح مساعد المفوض خلاصة أخبار المساء، إعلان بعد آخر يتطاير: إلى الوطن إلى لو سيماوث. نتائج الثالثة والنصف، هل لديك بوليصة تأمين؟ فشل النقض، عداؤو الظهيرة ثم تساقطت ثانية مثل الزمن يدفن الأخبار القديمة عميقاً.

- كان ينبغي أن تحضر مسدساً، ياسيدي.

اندفعت السيارة يساراً جانب محطة شارع ثمودج، ثم يميناً، نحو شارع شارلوت.

- لم أشعر بالحاجة إلى واحد بعد.

ابتلع المراقب ريقه. أراد أن يقول شيئاً مستخفاً، شيئاً يضع الشرق وأدغاله في مكانه المناسب في هرمية الخطر. «معه مسدس ياسيدي».

- سوف يخشى استعماله.

كان قد سار عشرين ميلاً عبر غابة مستعيناً بعصاً، وما كان ليحمل مسدساً على بعد ميلين من سكوتلاند يارد. لم يصدق أن الرجل الذي قتل السيدة جانيت كرول ثم قطع الجثة وستفها في صندوق في القسم اليساري من مستودع محطة بادينغون أشجع من القاتل الذي أشعل النار في كوخه ومات في اللهيب لينجو من الاعتقال. إن كان لامرىء أن يخرج ليجابه رجالاً كهذا بعصا، فلن يحتاج إلى سلاح في لندن.

خرجت السيارة للحظة إلى طريق يوستن، أطلقت صافرتها التحذيرية مارة بين تجار الأثاث ومحلات اللاسلكي وفنادق الليلة الواحدة إلى الشرطي في نقطة المراقبة، ثم انحرفت عبر الطريق المضاء المبهرج إلى العتمة مرة أخرى. خرج رجل من محل بيع تبغ ولوّح لهم، واقتربت السيارة من الرصيف وتوقفت. تلألأ خلفهم طريق يوستن وسمع ضجيجهُ لكن لا أحد تكلم في الشارع ولا أحد تحرك إلا الرجل الذي تعثر بباب السيارة. ساعده كروس من الداخل ومنحنياً عبر الباب وسأله بلطف: حسن؟

«سيخرج»، قال الرجل. «لقد طلب من صاحبة الفندق ماء ساخناً ومنشفة. أخبرته أن عليها أن تغلي إبريقاً وانسلت إلى الطابق الأرضي وبلغت جنكس».

«أفضل أن نقبض عليه داخل البناء»، قال كروس. «أي بناء هو؟»

- سترى جنكس عند المدخل بعد خمسين ياردة نزولاً يساراً.

- أية غرفة؟

- الطابق العلوي. الغرفة الخلفية. هناك مخرج نجاة خارج النافذة. لم يسدل الستائر، هذا ما تقوله صاحبة الفندق. إنه لايسدلها قبل العشاء أبداً. إنه رجل عادات.

- هل يواجه النافذة؟

- كرسيه يواجه الباب.

- هل وصله الماء الساخن؟

ـ «سيعطي جنكس إشارة عندما تـأخذه لـه»، وفيما يتكلم شعّ لهـب خفيف في الشارع وانطفأ. «هاك»، قال الرجل. «إنها تصعـد بالمـاء السـاخن الآن».

«هيا بنا»، قال كروس، اخرجوا من السيارة. يقـف رجـلان في المدخـل حيث جنكس، يدور آخر إلى الباب الخلفي، ويصعد رابع إلى سلم النجـاة. أما أنا فسأصعد الدرج مع جنكس. كيف يتم الوصول إلى سلم النجاة؟

ـ «ممـر علـى يمـين البـاب الأمـامي»، قـال الرجـل، «يقـود إلى الفنـاء الخلفي. هناك لابد أن ترى السلم».

ـ سأصعد سلم النجاة، قال مساعد المفوض.

ـ أفضـل أن تبقـى في الشـارع، قـال كـروس. لكـن ليـس لـدي الوقـت للمناقشة الآن. هيا بهدوء.

عبروا الشارع وتبعوه نزولاً إلى الرصيـف، صـف رجـال ضخـام بقبعـات طرية يسيرون متثاقلين على رؤوس الأصابع، وحده، مساعد المفوض في ذيل العملية يسير بخفة طبيعية، لقد أتت الحمى على اللحم الزائد كله. سارت تكسي إلى جانبهم ببطء صوب يوستن، وشـاب بنظـارات ذات إطـار قرنـي انحنى خارج النافذة وحدق إليهم فـاغراً فـاه، هيـه! قـال بصـوت متهـدج سكراً، هيه! لكنهم تابعوا سيرهم بدون انتباه لما حولهم ـ مثـل صـف بـط، بينما ابتعدت التكسي ومازال الشاب خـارج النـافذة يصـرخ هيـه! سـكران وحيران ومستمتعاً. لكن فيما انعطفت السيارة إلى طريـق يوسـتن طـرق علـى الزجاج ونادى علـى السـائق كـي ينظـر: وسمعـوه يصـرخ، «مجموعـة مـن الرجـال المضحكـين»، لم تلامـس الأنـوار خلـف النوافـذ العليـا المحجوبـة بستائر مشغولة المر المعتم الذي ساروا فيه قـط. كـانوا مدفونـين علـى عمـق عشرين قدماً في عالم ليلي من صنعهم: فوق رؤوسهم المصـابيح خلـف نوافـذ مغلقة، وراءهم وميض ودمدمة واستغاثة واهنة لعالم في صخب حتـى سـاعة الإغلاق في منتصف الليل. همس أحدهم من مدخل: «إنه يغتسل الآن».

أوقفهم كروس وهمس: كم لدينا من الوقت؟

ـ إنه يغتسل جيداً دائماً عندما يخرج مساء، تقول صاحبة الفندق. جذعة حتى الخصر، وإنه يعنى بنظافته على الدوام.

ابتسم مساعد المفوض، ومشى بخفة على ممر مرصوف بالآجر يقود إلى الباب الخلفي. سمع خلفه كروس يحرر مسمار الأمان. وضع يديه على الدرابزين الحديدي لسلم النجاة، فكر في عدد لايحصى من رجال الدين الذين ينهضون على منابر عديدة ليتحدثوا عن النظافة كأنها تالية للألوهية ـ لذعه برد الدرابزين عبر قفازيه، وكان صعباً عليه أن يتسلق بهدوء فالمسامير على حذائيه تقرع الدرجات الفولاذية ـ ويطرون الجسد النظيف كدليل على نظافة العقل. فكر في كريبن يحلق بجذر كل يوم إبان محاكمته، مدققاً على وجه الخصوص في الأشياء الصغيرة. إنها تلك التناقضات، الأحكام الخلقية التي لاتطبق، هي التي جعلت من المستحيل على شخص يؤسس حياته على أي دافع أعلى من أن يقوم بعمله. لن تفشل حياة مع المجرمين من تعريه أحكام الكهنة والأساتذة من الاختلاطات الأساسية.

شعّ القمر لبرهة خلال سماء غائمة وفضفض الدرابزين ودرجات سلم النجاة، وأظهر أوعية المدخنة فوقه، وأبهت ضوء المصباح في الغرفة العليا، سار بين الغيوم بسرعة سيارة وكل الأرض تتعقبه. أمسك مساعد المفوض بالدرابزين بقوة وخفض رأسه، هاجمه الدوار مرة أخرى، وأعقب كل هجوم خوف عظيم، ليس الخوف من الموت، بل الخوف من تقاعد الزامي، خوف حاربه بكفاءته وتردده ووسواسه التي حفظت له طاقته.كان مع تلك الرجفة في عقله، وقد تسنم الدرجات الأخيرة.

كان ثمة رجل يتكلم. استطاع أن يسمع الصوت قبل أن يرى الوجه. كانت النافذة فوق مفتوحة.

ـ «تعالوا إلى المسيح»، قال الصوت. «تعالوا إلى المسيح». صعد مساعد المفوض ببطء. لم يكن هنالك مصباح تحت، كان الظلام يخيم في كل مكان آنئذ بعد أن غاب القمر، إلا مصباح في الغرفة أنار بضع أقدام من منبسط الدرج الفولاذي ودرجة أو إثنتين. «آه، تعالوا إلى المسيح جميعكم. تعالوا إلى

المسيح». كان مساعد المفوض وحيداً مع الصوت لم يأت الشرطي عند الباب الخلفي، في بركة الليل بأي صوت، والمنزل قد ابتلع كروس وزملاءه. «لاتظنوا إني لا أفهمكم. آه، لقد أثمت أيضاً، صدقوني أيها الأصدقاء، لقد أثمت أيضاً». قدح حذاء مساعد المفوض شرارة على الدرجة قبل الأخيرة، لكن الصوت بحماسته الزائفة السخيفة ومسرحته التي لاتطاق تابع: «لدي قلب دام، أيها الأصدقاء لو كان بإمكانكم أن تروا داخل...»

وقف مساعد المفوض على البسطة وحملق إلى الداخل. أمسك عصاه وأصغى لقدوم كروس. لم يصدق أن الرجل سيطلق النار، ومع ذلك كان مضطرباً بعض الشيء لتدفق الكلمات المعسولة. وقف الرجل أمام المرآة يزرّر سترة ذات ياقة عالية عبر صدر ضخم عار عليه بين الثديين فروة من شعر أحمر. احتار مساعد المفوض لبرهة باللباس الرسمي الأزرق ذي الأشرطة، لكنه سرعان ما لاحظ قلنسوة ذات شريط أحمر. «كنت آثماً كبيراً كأي واحد منكم، لكنني أتيت إلى المسيح وغفر لي». لوّح مساعد المفوض بعصاه، مصغياً إلى الأقدام فوق الدرج، وتحرك الرجل وزم شفتيه وأدار رأسه ليرى أنه كان نظيفاً خلف الأذنين. عندما تكلم، دوّر شفتيه كما لو كان ليصفر، وخرجت الكلمات واحدة واحدة كحبات ضئيلة دبقة.

آه، فقط لو عرفتم، أيها الأصدقاء، حلاوة الغفران والبلسم والسلام. كان مستحيلاً الشك في إخلاصه. كان مخلصاً كمدير أعمال ممثل مدرك للعمل والمشهد وطول المناجاة، ومقاليع وأقواس قدر غاضب أمام المقاعد الأمامية المحتشدة، والآلهة الجليلة.

ـ عندما تحسون بنيران الجحيم، أيها الأصدقاء، تندفع إلى أحشائكم، لا تقولوا فات الآوان. إنها اللحظة للعودة إلى المسيح، وآه، يالبلسمها وسلامها.

تساءل مساعد المفوض: هل أقفل الباب؟ سيهرع إلى النافذة، أين وضع مسدسه؟

ـ لقد أحسست بالنيران. لكني غُفر لي. لقد أحسست بالنيران، لكني أشعر بالسلام الآن.

رفع شفتيه وتفحص أسنانه ولثته، فيما همهم صوته بذهن مغيب: سلام وبلسم، سلام وبلسم. سحب عود ثقاب كان في جيبه ونكش أسنانه، ثم فركها أعلى وأسفل بمنديله. سلام وبلسم، سلام وبلسم، قال وهو يزرر جيوبه واضعاً يدين كبيرتين مليئتين خلال فروة رأسه متلمساً الشعر النحاسي الأحمر بلمسة بركة وسلام أسقفية.

شخص ما في الخارج شد الباب.

استدار الرجل، ذوى السلام والبلسم على شفتيه. من هناك؟ لم يتجشم أحد أن يجيب، إنما اهتز القفل وارتعش. دار المخلص صوب النافذة ورأى تحت وميض النور على البسطة الفولاذية مساعد يهز عصاه بيده اليمنى، ساقاه منفرجتان قليلاً متوقعاً الهجوم. وصل إلى سريره قبل أن يكسر القفل، وتلمس شيئاً ما تحت الوسادة، وبينما توازن الباب مفتوحاً جزيئاً قبل التحطم، كان قد عاد إلى النافذة والمسدس مصوب. «ابتعد عن سلم النجاة».

راقبه مساعد المفوض، لوح عصاه، وللحظة لم ير الشعر النحاسي الأحمر والوجه المكتنز اليائس، بل امرأة عجوزاً شديدة التمسك بنقودها، رافعة يديها وصارخة، بينما ارتفع البخار من محطة بادينغتون عبر النافذة وتهادى قطار بضائع إلى وسبتورن غروف صافراً أعلى مما تستطيع هي أن تصرخ، لذا لم يسمعها أحد أكثر مما سمعه ثنائي عاشا في الطابق الأسفل من أصوات ضعيفة مريعة لعملية التقطيع بالمنشار.

«ابتعد من هناك» لكن الباب كان قد فتح ودار ليواجهه غير قادر على أن يقرر على من يطلق النار، وكان مايزال مترددا غير مصمم عندما كبلت الأصفاد معصميه.

تسلق مساعد المفوض إلى الداخل عبر النافذة المفتوحة، فحص جنكس المسدس بفضول وهو يزنه بيده، فاتحاً المخزن، وضع كروس مفتاح الأصفاد في جيبه، وقال: «إنك رهن الاعتقال بتهمة قتل السيدة جانيت كراول في بادينغتون في الرابع من الشهر. أي شيء تقوله...»

قال جنكس: إنه من طراز ١٩١٦. إنه بطيء الإطلاق.

«هيا»، قال كروس. «ألبسه قبعته». كانت الغرفة مليئة برجال يلتقطون أشياء. وضع أحدهم القبعة على رأس الرجل. كولنز، ابق أنت ورتب المكان مع جنكس، قال كروس. ودفع الرجل بين الكتفين فتعثر. «هيا، ألا تستطيع، لقد أخرتنا كفاية». خفض الرجل نفسه بألم أسفل الدرج كما لو أنه قد ضرب، وقال: «يجب أن تخجل، تضربني». وشرع يتكلم ثانية بصوت خفيض عن المسيح، وكيف غفر له. «شهداء مقدسون»، قال، وعلى الدرجة السفلى، «صحبة المباركي». كان محصناً منيعاً ضد العار والعقاب، لأنه كان قد تأثر بخوف عابر لاغير.

ـ هل ستعود إلى سكوتلانديارد، ياسيدي؟ سأل كروس.

ـ «لا» قال مساعد المفوض. «لا، سأرى تقريرك صباحاً. أريد أن أبحث، أن أبحث في ملف ستريت هام الليلة». شد معطفه بحذر عند الجدران الخشبية المشظاة وتذكر ما قاله السكرتير، راشفاً الشيري في الـ بركلي. «إنها ساحة معركة». لكنه كان يتحدث عن شيء آخر، لم يستطع تذكره: فكر، أظنه، نصراً، ومع ذلك ليس ثمة شيء. يدعي: نصرا حاسماً. نظر إلى ساعته وحسب أنه ربما سمح لنفسه بوجبة خفيفة قبل أن يباشر دراسة ملف ستريت هام. لن يضيّع الوقت تماماً، فعلى الطعام أن يمكنه بأن يفكر في دروفر أيضاً.

❄ ❄ ❄

- 3 -

أفاق السيد سوروغيت متأخراً أكثر من المعتاد. دخل ديفيز في الثامنة وسحب الستائر ودفقة من شمس خريفية شاحبة ملأت حوض الغسيل وانتشرت إلى السرير، فنخر وقلب على جانبه، ولم يستيقظ ثانية حتى الحادية عشرة.

توقفت الآلات في مصنع الكبريت عن العمل لخمس دقائق ريثما شرب كل من العاملين كأساً من الحليب وتظاهر أنه يأكل قطعة بسكويت جافة. دسها بعضهم في جيوبهم ليرموها في المرحاض ورماها آخرون على الأرضية بين علب الكبريت المبعثرة.

مصّ كوندر قطعة حلوى وتطلع إلى المستقبل الكئيب. «خذ هذه إلى معاوني رئيس التحرير»، قال، وراقب قصته الشاملة تختفي بين يدي مراسل أسفل السلم. سرعان ما ستصير حروفاً رصاصية مطبوعة، وقريباً عمود طباعة، وبعد أربع وعشرين ساعة ستكون عجينة ورقية مطبوعة. بدا مجحفاً له أن يكون لإنتاج عقله دورة مماثلة لدورة جسده. شيء ما ينبغي أن يبقى. جسمه سيبلى ولابد، ولكن يجب أن يبقى صدى متردداً للحمام المعطوب والطفل المصاب بالسعال الديكي. شرع يكتب، مرة أخرى دون تفكير: «الحمر يتصادمون خلف أبواب مغلقة»، لم ينه قصة قط دون أن يضاعف حقيقتها. إنه محكوم بتدوين التفاصيل التافهة رأى الأمل الوحيد لخلوده بعد موته في كذبة تصويرية مثيرة قد تلفت نظر مؤرخ وهي مدفونة في ملف عتيق.

قلب السيد سوروغيت على ظهره، فتح عينيه، وقابل نظرة زوجته البريئة المفتوحة على مداها. لقد أنصفتها الصورة أكثر من الواقع، لأنها ما كانت جميلة ولا برئية. ماكان له أن يتحمل صورة واقعية على الجدار،

ومع ذلك كان قادراً أحياناً على أن يقنع نفسه أن هذه كانت المرأة المثالية، وأنها الآن ليست حقوداً وداهية، وأنها تفهمه الآن كما أراد لها أن تفهمه. قال للصورة وهو يرتدي ملابسه، ليس كل أرمل يمتنع عن الذهاب للفراش مع فتاة فاتنة وراغبة بسبب احترام امرأة متوفاة. استخدم تعبير الذهاب للفراش لنكهته الأنغلوساكسونية، إنه لايستخدم قحة الغاليين. «أكيد كانت ستفترش معي»، قال في سره وراودته رؤيا عابرة لمحاربين ذوي شعور كتانية يتعثرون برزانة بالاندفاعات قبل أن يغادروا إلى زوارقهم المتقوسة. تذكر أنه واعدها للقاء بعد الظهر وقرر أن يلاحظ تأثير الفيلم التجريدي في الأكاديمية على عقلها الذكي غير المصقول. «إنها تستحق الدراسة» أبلغ زوجته المتدلية باحتشام على الحائط.

لو أنها استطاعت البقاء هناك فحسب، وفي التابوت الصغير المنقوش في غولدرز غرين ـ «مع الحب للزوجة والإجلال للفنانة» ـ لكنها قفزت عليه من كل حائط في غرفة الجلوس لدى كارولين بوري. كان وحيداً معها لثلاث دقائق ـ لامكان يلوذ إليه، لامكان ينظر إليه. هي ذي التي رسمتها في غرينويتش بارك وهذه في آنتيب. تذكر المناسبة في كورن ول حيث ارتسمت هذه الصورة في ذهنها وتركته فوراً لتضع خطوطها الرئيسة، ويذكر أنه تشكى فيما بعد، في رسالة للسيدة بوري، إنها لاتحترم رجولته. إنه الآن في الغرفة المعتمة والمحجوبة تقريباً يعود بعذاب حقيقي ليقابل الشخص الوحيد الباقي على قيد الحياة الذي عرفه بدقة، الذي اعترف له سابقاً بكل تردده وعدم تصميمه ووضاعته وكرمه المدروس وتشوشه الفكري. «كيف حالك، ياكارولين؟ كم مضى من الوقت». لكنه غمز وانسحب من الاعتراف بمرور الزمن. الزمن الذي يشيب له الشعر، ويجعل الجسد أقل رشاقة والعقل أكثر يأساً.

تقدمت كارولين بوري إلى الغرفة بمسحة من الغموض والتفوق. أعطت انطباعاً عن عدم معرفة من يمكن أن تجد في بيتها، أية شخصية غريبة ستتكلم من بين التحف العتيقة التي ازدحمت بها الغرف قليلاً. لو كان وجهها المضنى الغائر سيتميز فوراً على تمثال جصي قديم أو ضريح شرقي

لتميز جماله لكنه في مسرح أو مكتبة أو شارع حديث فكان مرجحاً أن يثير الفضول ليس إلا ـ لم يرها السيد سوروغيت خارج بيتها مطلقاً.

نظرت إليه شذراً، وصرّت إليه بتحية بصوت ناشز، ومع ذلك كان على السامع أن يعترف أن هذا الصوت الشبيه بصرير إسطوانات معدنية، ربما اعتبروه جميلاً في عصر آخر، في قارة أخرى، «أود أن أتحدث إليك قبل أن يأتي الآخرون». عرف السيد سوروغيت أن رسائل زوجته كلها مختزنة في عقلها، ومع أنه كان محرجاً ومغتاظاً بمعرفته هذه لم يستطع مقاومة مجاملة اهتمامها. فبعد كل شيء، في هذه العلب الصينية التي حملت في إحشائها شيئاً من العامية، أطلق وايلد سيلا من الحكم الساخرة، وتساءل هاردي عن معنى كل شيء.

ـ «أخبرني عن دروفر».

سبق للسيد سوروغيت أن تكلم عن استنفار اهتمامها، وعرف، في حينه، أن ذلك ليس ضرورياً. فقد بدت شغوفة بالأدب وهي تصغي إلى الكتاب حول طاولتها، وظهرت كأنها أحدث نموذج لصاحبة صالون سياسي، وهي تنصت إلى السياسيين، وأدرك كل من عرفها أن الأدب والسياسة هما القطاعان اللذان اختارتهما لممارسة ميولها الخيرية، تلك الميول كانت ساخرة وعملية من وجهة نظر كلبية. وهي في النهاية نوع من إحسان ليس ثمة من يرفضه مفتخراً أو مزهواً.

أخبرها بكل ما يعرفه، بتواضع حاقداً بعض الشيء، وهو يراقب عجلات فكر دقيق تبدأ بالدوران. كان حاسداً. لكنه اندفن تحت قصة دروفر. تحت الكلمات المتلاحقة (شرطي، زوجة، هايد بارك، عريضة) دفنت قصته التي كانت أول مثال يعرفه عن اندفاع كارولين يوري للمساعدة، دفنت على عمق قليل لم يمنع ظهور العظام القديمة (هذا يذكرني... بالمناسبة... تذكرين). توضعت تحتها حكايته هو نفسه.

ـ «طبعا أتذكر، لكن تابع، أريد أن أسمع عن دروفر».

ارتطم البحر الرمادي بالحصى، وعزف المطر على طريق النزهة الاسفلتي لحناً. والسيد سوروغيت، الأكثر نحولاً وشباباً، سار ذهاباً وإياباً

تحت المطر يحدّث نفسه بمحتوى برقية تجعدت في يده. كان قد تزوج منذ ستة أشهر، وليس لديه مال، وزوجته مريضة في لندن وقد نصح الطبيب أن ترحل إلى الجنوب. عاد مبللاً حتى الجلد إلى بيت جوستين بوري، حيث كان يمضي عطلة نهاية الأسبوع، وعند الغداء انهار وهو يرتجف ويعطس ويبكي، كان ذلك خزيه الأول الكامل. وعندما ذلّ نفسه في السنوات التالية مرات ومرات لم يستطع هو نفسه أن يحكي كم كان تأثره كبيراً بمعرفة الثمن الحسن الذي تلقاه أول مرة. لقد أرسلتهما كلاهما إلى هايرز. بعد ذلك بقليل ماتت جوستين بوري، جرّاء الرشح، خلال صيف عام واحد وعشرين وتسعمائة وألف في إسبانيا.

ـ هل تذكرين بيتك جانب الشاطىء؟

ـ طبعا أذكر، إنما استمر، كم عمر زوجته؟

وإذا انتهى، صرخت بما يشبه صياح الطيور من الاندهاش وعدم التصديق: «هذا سخف. لايمكنهم شنقه. إنها نوبة غضب».

ـ يوم الخميس، قال السيد سوروغيت.

ـ سخيف جداً، يجب أن نفعل شيئاً، سأدعو رجل المباحث الجنائية ـ إلى الغداء، ماذا يُدعى مساعد المفوّض؟

ـ كارولين، هل تعرفينهم جميعاً؟

ـ لم أره منذ عاد من الشرق. لكننا كنا رفيقين حميمين ذات مرة. طبعاً إنه مغرور على نحو لايصدق.

ـ لن يكون قادراً على فعل أي شيء.

ـ ياعزيزي، فيليب، لاتكن انهزامياً إلى هذا الحد الكبير. الأمر كله سخيف ولهذا يمكن عمل شيء ما.

فتح السيد سوروغيت شفتيه ليحتج على هذا الافتراض، إنّ الحياة بطبيعتها ليست سخيفة، لكنه تنحنح بدلاً من ذلك. ماالفائدة؟ إنها مؤمنة. لم يكن واثقاً تماماً بما كانت تؤمن ــ برب اليهود ، برب روما، برب كانتربري، برب السيدة إدي، أو برب السيدة بيسانت، ومع ذلك، مهما

كان غموض إيمانها، فقد كان راسخاً، وربما كان بسبب غموضه. لم تكن ثمة فائدة من دحض ألوهية المسيح، لأن المرء سيجد عندئذ أن هذا ليس أحد أسس إيمانها. إنها قادرة على التخلي عن ألوهية المسيح وعن العهد القديم والأناجيل وأعمال الرسل. كان بإمكانها أن تتخلى عن القرآن، وحتى عن كتب الهند المقدسة، فهذه كانت أمور صغرى. كان لديها الإيمان.

ـ لاعلاقة لمساعد المفوض بـ...

ـ سيعرف الشخص المناسب للتكلم إليه. لو كان حزب العمال في الحكم، لدعوت وزير الداخلية إلى الغداء، لكن بيل، لاأعرف أي شيء عنه.

ـ إنه مهووس بضبط النفس.

ـ إنه شخص تافه. لست مهتمة بالتافهين.

لاحت ابتسامة واهنة على وجه السيد سوروغيت ومسد شعره. صرّت أحذية على الأرضية الخشبية خارجاً، قالت كارولين: أعتقد أنه كراب، أتعرفه؟

ـ لا، لا، لكني أعرف أعماله طبعاً.

ـ إنه متعب تماماً منذ منحوه وسام الاستحقاق.

وسرعان ما اكتظت الغرفة بالزائرين.

عند الغداء جلس كراب مقابلة؛ عجوز ذو شارب أبيض وعينين حمراوين حزينتين. ما كتب كتاباً لعشر سنوات خلت، وكان محط إعجاب العالم، ومع ذلك كان مقتنعاً بشدة أن الناس يحجون إليه، ورغم أنه كان معروفاً أنه صعب، فقد كان مايزال يدعى إلى كل مكان، لسمعته ووسام الاستحقاق جزئياً، ولأنه ذات مرة، منذ خمس سنوات تكلم بذكاء وخبث طوال الغداء. وقد ظنت المضيفات أن ذلك قد يحدث ثانية في أية لحظة.

كان كراب صامتاً، بينما لم يصمت سين كاسيدي، الشاعر، فقد استمر يتحدث عن حلم التنجيم عند إحدى نهايات الطاولة. ومع أن الصعوبة الأصلية لأفكار زرادشت زادت بسبب لهجته الإيرلندية فقد كانت له فائدته. فقد حال دون قتل الأحاديث العامة من قبل ناقدين تناقشا عن أفكار لاهوتي سويدي بصوت مرتفع واضح وذي لكنة أميركية خفيفة.

شرع السيد سوروغيت يتحدث إلى امرأة شابة هادئة جانبه عن عصبة الأمم وهو يعي أن كراب يحدجه بعين حمراء. آمنت بها ذات يوم، واعترف بعد برهة وجيزة: «ربما تكون بداية مفيدة لحكومة عالمية».

في ظل المطرقة والمنجل؟ سألته المرأة الشابة. ابتسم السيد سوروغيت ورشف كأسه من خمر الهوك. حاول أن ينظر، عبر كراب، إلى الساعة خلفه. ستكون كاي بانتظاره بعد نصف ساعة. جعلته الخمرة يشعر بالشباب والحيوية. حمداً لله، فكر، لست عجوزاً مثل كراب، ولم أتجاوز زمني، فالفتيات مايزلن يعلقن بكلماتي. «نعم، المطرقة والمنجل»، لكنه اندفع إلى الضفة إذ لمح عين كارولين بوري في اللحظة التالية. غرق في أني فاسق مغرور، خسيس، رعديد، أراد أن يعترف لجارته بتاريخ زواجه الجائر كله، ويعري نفسه من الإدعاءات الفكرية والخلقية، لكن ماذا سيتبقى؟ رجل، فكر، وهو يدير كأسه ليس بأفضل من مجرم ينتظر إعدامه، ومع ذلك فكر وروحه متأرجحة ثانية على نواسها الدائم إذ انخفض الضيوف بسرعة تحت مستواه وانسحقوا أفقياً بين الأطباق، رجل، إنما أنا الجوهر.

تنحنح كراب وران الصمت على الجميع وهم يصغون، إلا كاسيدي يتنحنح ثانية وبدأ يغص. «غضروف»، قال أحدهم، وضربه جاره ضربات خفيفة على ظهره. «الحجر السماقي»، قال كاسيدي، «كاتباً رمز السرطان...» جرع كراب جرعة كبيرة وتحسن فجأةً، ومع ذلك استمر جاره يضربه على ظهره ضربات خفيفة وهو شارد الذهن. حملق كراب مغتاظاً، كان واضحاً تماماً أنه ظن أنه مقصوداً. استأنفوا الحديث جميعاً.

قال السيد سوروغيت: «في ظروف معينة ينبغي أن أكون مستعداً للصبر على جنيف كحل مؤقت».

- «عندما يكون القمر في برج العذراء فإنه يحكم عمل البطن والأمعاء».

- معالجته للتوحيديين.

- «إذا كانت جنيف»، قال السيد سوروغيت، «قد دعت إلى الأخوة، فإنها غالباً ما تبث الكراهية...»

انحنى كراب على الطاولة وتنحنح. فسكتوا جميعاً، وأصغوا. شذر كراب السيد سوروغيت غاضباً. تقوست عيناه المعمرتان وجحظتا. «جنيف»، قال، «لم أسمع جنيف على الإطلاق...» بدا كأنه يحتاج إلى الكلمات، أربكته قليلاً هذه الدخلة المفاجئة على الحياة المعاصرة من خلفيته في حقول نورفولك الطويلة والبحر الخفيض والكنائس العالية الخالية. لكنهم أنصتوا جميعاً بإمعان وتواضع ليسمعوا ما سيقوله مبدع دينا كولن وجوزيف سنتري، والمجنون كوربيت، بشأن جنيف. «التقطت موسكو»، قال كراب، «التقطت روما، التقطت نيويورك، لكني لم أستطع التقاط جنيف. ما هو جهازك؟» صرخ غاضباً بالسيد سوروغيت.

ـ «حقاً أنا آسف»، رد السيد سوروغيت. «لقد أخطأت فهمي. لم أكن أشير إلى...»

ـ «لاتحكِ لي عن الأجهزة الكريستالية»، قال كراب، «قد أكون عجوزاً، لكني لم أطرش بعد، الحكايا التي يقصها عليّ الناس تعرفني بما يحصلون عليه بالكريستال».

تنهد السيد سوروغيت بارتياح، نازلاً الدرج، سامعاً الباب المصنوع في القرن الثامن عشر ينغلق خلفه. لقد انتهى ذلك. عمل ما أمكنه. ويمكنه الآن أن يدع كل شيء لـ كارولين بوري. وبعد العمل إلى المتعة ولكنه تضايق بعض الشيء لأن كاي لم تكن تنتظره عند اكسفورد سيركس.

اشترى صحيفة مسائية، وما وجد فيها إلا القليل، غير قوائم المشاركين في السباق، أما عمود الأخبار الأخيرة فلم يحتو إلا على نتائج الساعة الثانية والنصف. كانت المحلات مغلقة في شارع اكسفورد. وكاد يخلو إلا من جماعات ريفية في نهايته تأتي وتذهب وتحدث في الواجهات على الجانب الشمالي إلى النماذج ذات الوجوه مكسوة بالسواد. نظر السيد سوروغيت إلى ساعته واشترى صحيفة أخرى. جريمة بادينغتون. الفرقة الطائرة قرب يوستن. القبض على رجل. الاهتمام بالجريمة عجيب، فكر السيد سوروغيت، وأخذ يقرأ عموداً آخر. دراما في اجتماع الحمر، صراع خلف أبواب موصدة. قرأ المقال إلى نهايته. كم يبالغ الصحفيون. نزاع

بسيط، أعصاب مرهقة، مزاج سيء. قلب الصفحة: السيد ماكدونالد يقدم هبة لفريق غولف تروفي. اللعبة الملكية العريقة. ترحيب لِ سيماوث.

❄ ❄ ❄

وضعت ميلي الصحيفة مفتوحة على طاولة زينتها، ريثما لبست قبعتها. راقبتها صورة السيدة كوني من بين فراشي شعرها بفتور. هل أخذت الصورة بعد موت زوجها؟ إن كانت كذلك فليس ثمة مسحة حزن. لعلها صورة قديمة، وحاولت ميلي أن تتخيل أي نوع من الزوجات كانت، لكن دبوس الزينة ذا الحجر الكريم أرهبها. مثل ميدالية منحت مقابل شيء من استقامة لاإنسانية. كأن شعرها مشدود إلى الخلف فوق جبين عريض. إنها من نفس نوعية النساء اللواتي يدفعن أبناءهن إلى الحرب بسرور ويقاتلن في المجالس الكنسية من أجل لوحات تذكارية رخامية. ملأ الوجه ميلي باليأس.

بسبب ذلك كان صوتها مكتوماً عبر سلك الهاتف. ولم يميزها كونراد دروفر، وقد وضع قلمه، بينما لاتزال عيناه تلاحقاه عموداً من الأرقام على طول الصفحة. «من يتكلم؟ ارفع صوتك، لا أستطيع سماعك»، كان صوته، صوت رئيس كتبة، لم يكن له علاقة بشخصيته. كان مبنياً على نحو دفاعي ليوبخ أُذّان المكتب الشبان الذين سرقوا ممحاته، وليرد على أسئلته مجلس الإدارة.

ـ أريد أن أتحدث إلى السيد دروفر فحسب.

ـ إنه أنا من يتكلم.

ـ «آه، كونراد؟» ميز الصوت حينئذ، نظر بسرعة عبر الباب الزجاجي إلى الظهور المنحنية للكتبة، وخلفه إلى باب المدير، كان وحيداً بين الجدران الزجاجية، معزولاً بين رؤسائه ومرؤوسيه، «نعم، يا ميلي، ما الأمر؟» كان صعباً أن يغير صوته ككاتب سريعاً، كان لسانه مازال يلهج بالأرقام وقد أدرك أنه بدا قلقاً، قليل الصبر.

ـ «لاشيء أردت أن أخبرك أنه عندما عادت كاي إلى البيت، قالت...»

ـ هل يقوم الحزب بعمل ما؟

ـ «سيوقعون عريضة استرحام جميعاً، لكن، كونراد، اسمع، ثمة شيء آخر. سيقدم السيد سوروغيت مساعدة. إنه يتوسط لدى سيدة ذات نفوذ».

ـ «ميلي، اسمعي». انحنى أكثر فوق الهاتف وأفضى بعمق عدم ثقته. «تثقي كثيراً بما سيفعلونه. إنهم غرباء سيهتمون لبعض الوقت، لكن إذا لم تسر الأمور على خير فسيفقدون الاهتمام. هذا لايعني شيئاً لهم. علينا أن نعمل كل شيء نحن أنفسنا». عبر الباب أمامه، استطاع أن يسمع على نحو خفيض للغاية خربشة أقلام الكتبة. قرأ أحدهم بصوت عال صف أرقام، وعندما نظر حوله عتم ظل المدير الباب الخلفي، يذرع مكتبه جيئة وذهاباً، وهو يتحدث برتابة إلى آلة تسجيل.

ـ نحن وحيدون.

ـ إني في الطريق إلى تلك المرأة، الآن.

ـ أراك الليلة، ياميلي.

ـ كنت أتساءل ـ أعتقد ذلك مستحيلاً ـ ألا تستطيع الذهاب معي؟

ـ لو تستطيعين الانتظار. ألا يمكنك الخروج ساعة أبكر؟

ـ «أتمنى لو أستطيع». وضع رأسه بين يديه وأمعن النظر إلى الأوراق على مكتبه، فثارت الأرقام الصغيرة السوداء عليه كالذباب الهائج. «مستحيل». سمع صوت السماعة تعاد إلى مكانها والصمت يكتنف الأسلاك. عاد وحيداً مرة أخرى مع رجال لايحبهم ولايثق بهم، لايثق بهم فوق كل شيء. حتى أقل الكتبة كفاءة، أحس متأكداً، كان يدبر له المكائد للحصول على مركزه. كانت غرفته الزجاجية طوفاً صغيراً من الأمان سبحوا حوله جميعاً آملين إزاحته، آملين أن يمسكوا به نائماً. كان مركزه أسهل، لكنه لم يمتلك خاصتهم في الحذر الدائم والمكر المركز. لقد اجتذبت انتباهه أشياء أخرى: أخوه في السجن، ميلي تقطع الشارع في الضاحية بخوف ويأس. لكنه لم يثق بميلي أيضاً، افترض أنها أحبت أخاه مثلما أحبه هو نفسه، فكل كلمة تشجيع أو تأثر قالتها له كانت لأجل أخيه.

لكنها بينما سارت صاعدة تل الضاحية المصفوف بمنازل نصف خشبية ذات أفاريز بلون الشوكولاته كتب عليها: «بيوت مرغوبة. فقط خمسون جنيهاً مقدماً»، لم تكن خائفة. كانت شجاعة لأنها غضبت فجأة. لم تكن الأمور تسير حسناً، ألا يُسمح لكونراد بساعة أو اثنتين لمساعدة أخيه. شدت بقوة على جرس، وقالت بحدة لامرأة ضئيلة شيباء، جاءت إلى الباب: أريد السيدة كوني.

ـ أنا السيدة كوني.

ولدهشتها رأت آنئذٍ دبوس الزينة ذا الحجر الكريم والشعر الرمادي المشدود إلى الخلف فوق الجبين، والثوب الأسود ذا الياقة العالية، لكن مافشلت الصحيفة في إظهاره كان صغر المقياس، إذ لم تكن أكثر من تقليد مصغر للمرأة المزعجة التي لايمكن احتمالها.

ـ آسفة، هل أستطيع التكلم إليك؟

ـ لست أدري، لست واثقة فيما إذا كان لدي وقت. هل أنت من الصحافة؟

رانت العينان الموحشتان الجاثستان فوق كتفي ميلي وقد أجفلتا خائفتين من مجموعة كاميرات ومناصب وميكروفونات. دار في بال ميلي: إنها واهنة كالماء. لاتعرف أين تلجأ. إنها خائفة مني، يمكنني أن أفعل بها ما أشاء. قالت بلطف كأنه كان دورها أن تشجعها وتهدئها: أنا السيدة دروفر.

ـ «نعم؟ نعم؟» ماعنى الاسم شيئاً أبداً.

ـ زوجي في السجن.

استطاعت ميلي أن ترى السيدة كوني تسحب بعض الشجاعة كدلو من بئر عميقة وناضبة. شرعت تغلق الباب. «آسفة»، قالت. «ليس لدي غسيل، أو إصلاحات إني أخدم نفسي بنفسي».

وضعت ميلي قدمها في الباب. «يبدو لم تفهميني. إنه زوجي من قتل...»

تراجعت السيدة كوني صوب دب خشبي محفور حمل مظلتين على ذراعيه الممدودتين. «آه».

«أردت أن أتحدث إليك»، قالت ميلي. تبعتها إلى القاعة الضيقة وأغلقت الباب خلفها. تطلعت السيدة كوني إليها بارتياح واضح وقالت: ظننت أنها الصحافة ثانيةً. لايمكنني تحملها - هل ضايقوك أيضاً؟.

- «لا. رجلي مازال حياً». بدت ميلي، بطولها البالغ خمسة أقدام وأربعة إنشات، كالبرج جانب المرآة.

قالت السيدة كوني بعصبية: «ستتناولين كأس شاي. اعذريني لعدم الترتيب. كنت أنظف». كان أحد جانبي الممر مزحوماً بطاولات مناسبات. وعلى الأرضية أصيصان أو ثلاثة، والسجادة مرفوعة. وقد امتلأ الهواء بالغبار الشارد.

«هل تمانعين الجلوس في المطبخ؟» لاحظت ميلي علامات المرأة غير المرتبة وغير الكفؤة في كل مكان، المرأة التي تسوق الغبار من غرفة ليستقر في أخرى، المرأة التي تشتري البيض الدانماركي لتوفر وتترك الغاز مشتعلاً.

قالت ميلي بغضب مفاجىء: «لم آتِ إلى هنا لأقول أنا آسفة».

استدارت السيدة كوني عن فرن الغاز، وفي يدها غلاية يقطر بعض الماء منها فوق مشمع الأرضية، وقالت بصوت خائف: «لابد كان ذلك كله غلطة». أنا لا ألومك وعادت وضعت الغلاية التي بقبقت مياهها على الفرن وأخذت تضع الشاي في الإبريق.

- كان يدافع عني فحسب.

- أنا واثقة أنه كان كذلك.

- لقد وضعت ست ملاعق مليئة.

- آه ياعزيزي، سيكون أسود ثقيلاً، هل تمانعين أن يكون ثقيلاً؟ جلست على الجانب الآخر من طاولة المطبخ تحدق إلى ميلي وإصبعها الصغيرة معقوفة خارج الكأس «هل أنت أكبر سناً من زوجك؟» سألتها ميلي.

- «عشر سنوات»، قالت السيدة كوني. وتابعت واهنة: «لقد فكرت دوماً أنه سيلحق بي، وأني سأرحل أولاً. ما فكرت قط أني سأبقى وحيدة».

«تبدو حالة غريبة، أليست كذلك؟» قالت ميلي.

ـ غريبة؟ أظل أدخل الغرف وأخرج ثانية. لا أستطيع أن أهدأ. أتريدين قطعة كعك، ياعزيزتي؟

«هذا لطف منك»، قالت ميلي، «أن تعامليني هكذا»، رغم أنها كانت تعرف أن طيبتها وجبينها الأبيض ودبوس زينتها ذا الحجر الكريم ومسحة الاستقامة الخائفة، لامعنى لها على الإطلاق. كان محيطها هو الذي أعارها مسحةً من فضيلة ليس إلا. فقد كانت محاطة بالموت والجريمة والعدالة العنيدة، فحتى امتقاع لونها وترددها ورقتها العادية اكتسبت شيئاً من الوقار من محيطها ذاك.

ـ كنت خائفة جداً أن تأتي الصحافة ثانيةً. جلبوا كاميرات مزعجة وطلبوا إليّ أن أتكلم إليهم. «قالوا سيعرضوني في الأفلام»، قالت بدهشة كدرة تفكر في الأمكنة المعشوشبة وفي حفلات الكوكتيل وفي طقوس العربدة في الإمبراطورية الرومانية.

ـ ماذا قلت؟

ـ «لم أعرف ماذا ينبغي أن أقول. لذلك علموني أن أقول شيئاً ما عن المطالبة بالعدالة»، وأضافت بمسحة من خجل وخوف وهي تبص إلى ميلي من فوق حافة كأسها وهي تنفخ على الشاي لتبرده. خطر لميلي، كم كان سهلاً حل المشكلة برمتها بينهما. لم ترد السيدة كوني انتقاماً، لم ترد أن يقتل زوج امرأة أخرى لمجرد أنها فقدت زوجها. كانتا امرأتين من نفس الطبقة، يمكنهما أن تناقشا الأمور وتصلا إلى تفاهم. كان أبناء الطبقة العليا هم الذين تدخلوا بالقوانين التي وضعوها هم أنفسهم، يكسبون الأجور التي حددوها هم أنفسهم، مئات الجنيهات تذهب إلى جيوبهم بينما المحاكمة مستمرة. موت مقابل موت ـ هكذا أمر القانون، لكن القانون هذا لم يضعه جيم أو السيدة كوني أو هي، لقد وضعه الملوك ورجال الدين والمحامون والأغنياء. قد يطلقون سراح امرىء أحياناً، لكن القرار ذاك لاتضعه السيدة كوني أيضاً، بل يفرضه الساسة والمحامون الذين ما عرفوا شيئاً عن الرجل الذي أنقذوه ولا اهتموا به. في مكان ما، في زمن ما، في صحيفة أو كتاب،

قرأت ميلي هذه الكلمات: «حكم وضعه نبلاؤكم» لقد ظنتها تعني حكم وضعه سادتكم، وكانت موضع سخرية لتفكيرها ذلك، إنه يعني: «حكم وضعه مساووكم» لكن أين، إنها تسأل الآن عن السيدة كوني، يوجد الحاكم المساوي لهم، امرؤ يتقاضى ثلاث جنيهات أسبوعياً، عاش كما عاشوا، والمحلفون؟ تجار وسادة. ليس عدلاً، قالت ميلي، مع شايها والسيدة كوني والمشي الطويل إلى البيت المنسي في إحساس من ظلم مكبوت.

ـ إنه القانون، قالت السيدة كوني، نافخة في شايها وإصبعها الصغيرة المعقوفة.

ـ سيشنقونه الخميس.

ـ «آسفة، ياعزيزتي»، قالت، لم تكن ملائمة لأي شيء إلا للخضوع. كان أرثر ذا طبع حار دائماً. كان يضربني أحياناً. أغمضت عينيها الصغيرتين الكهرمانيتين للحظة وقبضت على حافة الطاولة كما لو كانت مشتاقة على نحو لايطاق لِلَكمة.

ـ أحضرت عريضة استرحام، هل ستوقعينها؟

ومضت عينا السيدة منفتحتين. كانت مرتابة، وأخذت وضعاً دفاعياً.

ـ لا أحب توقيع الأوراق. ماذا تقول؟

ـ لاأظنك تريدين أن أقرأ لك كل هذا الهراء. إنها ترجو الملك ألا يشنق جيم.

ارتعش كتفا السيدة كوني، وتراجعت ذقنها، ورفعت إبريق الشاي. «لاأريد أن أزعج جلالته، لديه ما يكفيه ليفكر به. هل أصب لك بعض الشاي أيضاً، ياعزيزتي».

ـ «لن يراها»، شرحت ميلي بصبر، «ستذهب إلى أحدهم في البرلمان».

ـ «لا أحب توقيع الأشياء»، كررت السيدة كوني. «لم يردني أرثر أن أوقع أشياء أبداً. إذا وقعت أشياء عندما يطرقون بابك ـ لاأقصدك، ياعزيزتي ـ فلن تعرفي أين تقحمين نفسك ـ مكانس كهربائية، لاسلكي، أثاث غرف نوم. كان أرثر يقول لي دوماً، لاتضعي اسمك على نموذج مطبوع إطلاقاً.

ـ آه، أنا لا أتهمك، ياعزيزتي، لكن على المرء أن يكون حذراً. لاأستطيع قراءتها دون نظاراتي.

ـ دعيني أقرأها لك، إذاً.

ـ ألا يمكنك أن تتركيها فأسأل شقيق آرثر، ثم أرسلها لك بالبريد؟

ـ لا، لايوجد وقت. اسمعي. أنت لاترغبين أن يعدم جيم، أليس كذلك.

ـ يجب أن يعاقب.

ـ آه، سيعاقب بكل ما للكلمة من معنى، ثمانية عشرة عاماً في السجن. ألا تسمين ذلك عقاباً؟

ـ لاأحب توقيع أشياء دون سؤال شقيقه. ومع ذلك يمكنك أن تخبريهم أني لا أريده أن يشنق.

ـ «هذا لايكفي. رجاء، ياسيدة كوني»، لكنها أدركت متأخرة جداً أن التوسل لن يجدي شيئاً مع المرأة المرتابة الخنوعة. فالسيدة كوني تذوق طعم القوة لأول مرة في حياتها. ومع أن الإذعان قد أرضاها دائما، فثمة شيء ما في الطعم الجديد قد رقق شفتيها. لكنها لم تستطع القتال باستقامة. روحها مثل خلد أقام في حجر على نحو غير مباشر في الظلام، يظهر في أماكن غير متوقعة.

ـ لا أؤمن بالتدخل في القانون.

ـ هذا ليس تدخلاً في القانون، ولا صلة له بالسياسة. لاتظني أني من الحمر. لو لم يكن واحداً منهم لما كان في مأزق الآن.

ـ «ماذا؟ هل هو أحمر؟ ما كنت لأرفع إصبعاً لأنقذ شيوعياً». كان غريباً أن تسمع أن شخصاً تعرفه كما تعرف ذاتك يصبح واحداً من كثيرين.

ـ «إنه لم يؤذ أحداً قط»، احتجت ميلي.

ـ «آه، لكنه إذا كان من الحمر، يريدون أخذ كل شيء منا، ماكان لك أن تطلبي مني ذلك. كان ينبغي أن تقدري بصورة أفضل ـ الحرامية». جالت السيدة كوني بنظرات غضبى حول المطبخ، وهي تلحظ كل شيء تخاف أن تفقده ـ حلقات المناديل المفضضة، كوز التعميد على الرف، دف الخبز السويسري المحفور، وعبر الباب، في الممر، السراخس والدب

الخشبي والمظلتين، ومع ذلك تحت الخوف والكراهية يقبع الخنوع الداخلي إياه الذي يجعل من يراقبها يعرف أنه يستطيع سرقتها دون عقاب. ستكره السارقين عندما يضعون أيديهم على حلقات المناديل، ستحاول التحدث إليهم عندما يضعون دف الخبز في كيسهم ولكن لن تقاتل البتة لأجل مقتنياتها.

«يجب أن توقعي»، قالت ميلي.

ردت السيدة كوني بعناد ويدها ممدودة فوق غطاء إبريق الشاي: «لن أفعل شيئاً لأحمر»، كانت امرأة غير مهتمة بالنقاش مثلها ميتة، سعيدة بالموت، خشيت سحب المسامير المدقوقة في غطاء تابوتها، «يريدون أخذ كل شيء، لاأمان لأحد».

ـ إنه من طبقتك ذاتها.

ـ «ليس من طبقتي. كان زوجي أرثر سيصبح مفتشاً يوماً ما». ترقى زوجها الميت وترقى بطريقة ما عبر فضاء عقلها الخالي، تتبدل بزته، وهو يرتقي، ظهرت الشرائط أولاً، ثم الشريط الزيتي المجدول. والآن تلاشت خوذته وبانت قبعته، تطور الرجل.

ـ «إذا، لن توقعي؟»

ـ «لا، على الأقل ـ ليس قبل أن أكلِّم شقيقه». أجفلت عندما طنّ جرس صغير فوق رأسها. لم تألف أبداً فجاءة الجرس الكهربائي. كان اهتزاز السلك من آخر الممر، في الأيام الغابرة يعطي إنذاراً. «آه، هلا أجبت ياعزيزتي؟»

ـ من الطارق؟

ـ «لاأستطيع تحمل كاميراتهم. أبعديهم. ليس لديّ ما أقوله لهم». تذكرت وهي تناشد ميلي، عبر عينيها الصغيرتين اللتين لم يكن فيهما أي تعبير أكثر من خرزتين كهرمانيتين سوداوين، يوم وفاة زوجها وكيفية نقل الخبر إليها عند الباب بصوت مهذب لطيف متعاطف، بينما التقطت ثلاثيات القوائم على الرصيف بعدساتها دهشتها وهلعها وأعادت تقديمها

مثل البلاهــة المتفرسـة، قبـل أن تسـتعيد وعيهـا وتعـرف مـايدور حولهـا.
«أخبريهم أني لست هنا».

نهضت ميلي. فكرت بإمعان إلى آخـر الممـر. وقفـت للحظـة إلى جـانب الدب الخشبي، ثم فتحت الباب. رفع رجل أصلع قبعته وقال:

«السيدة كوني؟»

ـ «انتظر عندك»، واستدارت عند نهاية الممر عائدةً. لحـق بهـا سـريعاً، ماشياً على رؤوس حذاء من ماركة مسجلة. استدارت إليه، فراقبها، والقبعة في يده، بتعبير من تواضع ثابت. «قلـت انتظـر هنـاك»، أدركـت ميلـي أن صوتها كاد ينحطم، وإنها إذا لم تكسب معركتها بسرعة فإنها ستستسلم ـــ لم تكن معتادة على القتال، أعتمدت على جيـم يقـاتل عنهـا دائمـاً، يبعـد الجيران السكارى ويفتح ممراً لهما كليهما عبر الحشود في أماكن التسلية.

ـ «اعذريني»، قال الرجل بلطف، مستديراً على كعبــه»، لقـد أخطـأت الفهم» ـ لكن ميلي كانت واعية لقحته الداخليـة عندمـا توقـف للحظـة إلى جانب الدب وهو عائد إلى الباب وربت على الجمجمة ببراجمه، كـان هـذا ما يتعرض له من يصبح موضوعاً للأنباء، غرباء يتحدثون بلطف في البيـت، يلمسون ويتحسسون وينتقدون ولا يقولون كلمة واحدة مما يفكرون به.

أغلقت باب المطبخ خلفها، وقالت: «إنه صحافي».

ـ هل قلت له إنني خارج البيت؟ هل ذهب.

ـ أخبرته أن ينتظر.

ـ لماذا تكرهيني؟ قالت السيدة كوني وأنشـأت تبكـي. جلسـت كالسـهم استقامة على كرسيها وعيناها بلا تعبـير مثلهمـا دائمـا، كـالنظرة الجصيـة لتمثال الإستقامة والماء تساقط على وجهه. أخرجت منديلاً مزركشاً زاهيـاً، ومسحت خديها.

ـ سأبعده إذا وقعت هذه.

ـ لن يذهب .

ـ سأجعله يذهب.

ـ إنك امرأة شريرة. ليس معي قلم.

ـ هاك قلم رصاص.

ـ أظنك دبرت كل شيء.

ـ «آه، لا، لست تلك الذكية. إنه حظ، إنه أول حظ أناله مذ حاول رجلك ضربي». وشرعت تبكي هي أيضا بفرح مرير، وهي تشاهد الخربشة على النموذج المطبوع، «روز كوني» وهي تفكر إنها قد فعلت شيئاً له، إنها قاتلت لأجله، إنها كانت ذات فائدة له، وأنها مليئة بالعرفان فجأة لكونراد الذي ساعدها في الوصول إلى هذا الفرح، شاكرة كل العالم إلا أعداء جيم. «كنت سأفعل الشيء نفسه لك»، قالت، «لو استطعت. لكن رجلك مات. لايمكن مساعدته، بينما يمكن تقديم المساعدة لرجلي. ليس هنالك شيء لاأفعله في سبيله».

كان الرجل قد عاد إلى الممر. كان قد التقط فازاً وبدأ ينظر إلى أسفله. «السيدة كوني؟» سألها ثانية.

ـ لا. إنها لاتريد رؤيتك.

ـ ليس لديّ مانع بالانتظار.

ـ لن أنتظر لو كنت مكانك. قد تفوتك قصة لو انتظرت.

ـ «آه، لقد اعتدت على الانتظار»، صار حميمياً بينما تحرك جيئةً وذهاباً في الردهة، رفع أصيص سرخس، ونقر فازاً، ووضع إصبعه في فم الدب. «لم أحصل قط على أي شيء بطريقة أخرى». رفع وجهاً مثل واجهة بناية مربعة نوافذها مغلقة، عزلت الحياة المتواصلة في عتمة الغرف الهادئة، «هل ستمانع إذا دخنت لفافة؟» أشعل لفافة وضرب ورقة خضراء، «كان عليها أن تضع لها بعض الشاي. هذا الدب من سويسرا. أسنانه صغيرة وحادة». تحدث بطريقة حزينة هادئة، «رأيت مكاناً لهذه الأشياء. كل شيء من الخشب المحفور، في شلالات شافهاوزن. كانت تعزف ألحاناً أيضاً. صناديق للأوراق المهملة، علب سجائر، كراسي أطباق فاكهة، وساعات الطيور الجداريات تزقو طوال الوقت».

ـ ألن تذهب؟

ـ «لقد اعتدت على الانتظار، لن أندهش إن عزف هـذا الـدب لحنـاً لـو عرف المرء كيف». ضربه على رأسه مرة أخرى.

«يجب أن أذهب»، قالت ميلي، لكن الرجل فتنها. لقد قال الحقيقة إذ قال إنه اعتاد الانتظار. كان قد مارس الانتظار كثيراً إلى حـدٍ بـدا معـه أنـه لايريد أي شيء آخر غير أن يقف هناك ويتحسس الأشياء ويتكلم إلى أي شخص يصغي إليه. لكنه لم يكن اجتماعياً. كـانت مجـرد طريقـة لتزجيـة الوقت. لم يكن يفكـر بهـا، بـل بشـيء مختلـف تمامـاً، لـو لمِ أكـن هنـا، فكرت، لجلس ونام.

«آه،» قال الرجل، «لقد وجدتها». رفع إحدى المظلتين من قبضة الـدب وصندوق موسيقى في بطنه بدأ يعزف لحناً متناغمـاً جـداً. «إنهـا تعيـد كـل الذكريات»، قال، غير متجشمٍ أن يرفع صوته. استطاعت أن تسمع ما قالـه فقط عندما ضعف اللحن قليلاً. «خائب، قيادة طويلة، مبلل، دون منديـل، ثلاث شلنات للشاي، ليس ثمة مرحاض».

قالت ميلي: لكن يجب أن تذهب، لقد وعدتها أنك ستذهب.

انتهى اللحن، واسطوانة صندوق الموسيقى تئن وتصرّ في المعدة الخشبية.

«لايمكن لأحد أن يسرق مظلتك في أي حال»، قال الرجل، وبدأ يجوس ثانية، «والآن هل أنت السيدة كوني أخيراً؟»

ـ أنا السيدة دروفر.

لم يبدِ أية دهشة. أتعرفين السيدة كوني؟

ـ لا، لقد أتيت إلى هنا لأسالها أن توقع طلب استرحام.

راقبها، عيناه مدورتان وحزينتان وغير مهتمتين، أعطى انطباعاً أن كل القصص الإنسانية كثيراً مـا تتكـرر وأن قـدره المنكـود هـو أن يسـتمع لكـل تكرار.

«آه، إنك جريئة، هل وقعت؟»

ـ سأخبرك إذا خرجت معي.

وضع قبعته، ربت الدب لآخر مرة وفتح الباب. «عليها أن تضع بعض الشاي لهذه السراخس». ودون أن يلتفت ليرى إن كانت ميلي تتبعه. شرع ينزل التل بين الشقق السكنية ذات اللون البني كالشوكولاتة. «قد أتصل بها، وأخبرها بذلك وقد لا أفعل، قصتها ماتت. ليس هنالك مزيد اهتمام. لاتظني أن بإمكاني أن أعرض عليك مالاً لأجل مقابلة. لا أستطيع. ستلم بالمدير نوبة. ذلك البيت، هناك، رائع».

لحقت به ميلي على مقربة منه. تقلص إنجازها مع كل فشخة خطاها. «لا أعرف لأية صحيفة تعمل»، قالت: «لكني أستطيع أن أجرب صحيفة أخرى، لا أريد مالاً على أية حال».

صار فظاً. «آه، أنت واحدة أخرى منهم. كل ما أبغيه هو العدالة». كلهم. فكري بذلك، كما لو أن العدالة رطل من الشاي، كما لو أنها توجد في أي مكان، كما لو...

- «لاأريد عدالة، لقد رأيت منها الكفاية. كنت أذهب إلى المحكمة كل يوم».

توقف واستند إلى لوحة سمسار عقارات وراقبها بوميض خفيف من اهتمام. «هل وقعت عريضة الاسترحام؟»

- لن أخبرك ما لم تكن مهتماً، أريد دعاية.

- «هل ذلك كل شيء؟» سألها ساخراً، لكنها لم تميز سخريته. مازال العالم بالنسبة لها يبدو بسيطاً، يريد المرء شيئاً وقد يعطونه أو يمنعونه عنه، يكون المرء سعيداً أو تعيساً، يحب أو يكره. لقد عاشت بعداً واحداً، لم تكن قريبة كفاية من الحياة يوماً لترى التفاصيل المضللة، لتعي أن ثمة من هو سعيد وبائس، وأن العطاء كالمنع أحياناً وأن المرء يحب ويكره للأسباب نفسها. «نعم، ذلك كل شيء»، قالت. كانت الدعاية كل ما أرادته تلك اللحظة، كانت ستتخلى عن المال لو كان لديها، والصحة لو طلبوها، والأصدقاء لو كان لها. «سأذهب إلى صحيفة أخرى»، قالت.

- يالك من بسيطة لتذهبي وحدك، لن يكونوا أكثر اهتماماً مني، يمكنك أن تخبريني أيضاً. إنه يستأهل فقرة، أجازف بالقول، ربما اثنتان. سأحشرها في مكان ما، أعدك.

- هل ستكتبه، وعد؟ ضحك عليها وهو ينحني إلى الخلف على لوحة الملاحظات ساتراً بعض الحروف الكبيرة البيضاء لكلمة «للإيجار» بقبعته، ومرة أخرى اضطربت بشعورها بالتعقيد، لأنه لم يبد يضحك عليها بل على نفسه. تمنت لو كانت كاي معها لتتعامل معه، وبينما خطرت لها الفكرة، فاجأها بقوله، «ماكنت أبداً لأعرفك، لاتشبهين أختك البتة».

- «هل تعرف كاي؟» أضافت بسرعة. «ليس ذلك لأني لا أثق بك، بل لأنني لا أجرؤ على المجازفة. أتفهم، ذلك من أجل زوجي».

- «آه لست منزعجاً. لكن أختك كانت ستعرف أن كتابة شيء يجعله أكثر حقيقة. على أية حال، أنت تتحدثين إلى رجل عارف».

راقبها، لقد احتارت وجزعت. لم تكن تعرف ما الذي كان يتكلم عنه.

«ياله من أحمق»، قال، «ليذهب ويقحم نفسه في المشاكل ويفقد فتاة رائعة مثلك».

- لم تكن غلطته. كنا سعيدين. لافائدة من أن تكون سعيداً. لطالما قلت له أن هذا لايمكن أن يستمر، لكننا بطريقة أو بأخرى، لم نستطع تجنب ما حصل.

- اسمي كوندر.

- اسمي ميلي.

قال كوندر: «تعالي وتناولي معي بعض القهوة في المدينة. عندئذ تستطيعين أن تخبريني عن السيدة كوني. سأبذل ما بوسعي لأجلك. حقاً سأفعل. أنا متزوج أود لو أحدثك عن صغاري. أحدهم مصاب بالسعال الديكي. ذلك مزعج كوننا انتقلنا إلى منزل جديد مؤخراً». شرع يسير بسرعة أسفل التل نحو موقف الباص، يتكلم، ويتكلم عن الزوجة والأطفال. هرب بوابل كلمات من سلة مظلات سويسرية ومن الفتاة التي سخرت منه منذ عشر سنوات جانب شلالات شافهاوزن ـ «أنت، أيها الرجل الضئيل المضحك»، إذ مسك بثوبها في البيت الصيفي، «فرنك واحد لترى الشلالات عبر زجاج أخضر ووردي وبنفسجي زاهٍ»، فيما أزبدت المياه المتعددة الألوان

وصخبت وزقت ساعات الوقواق الجدارية من الشاليه، وعزفت كل أطباق الفاكهة ألحاناً. شكى راحته الوهمية، تكلم بمرارة عن سعادته الزائفة، وعندما انحرف الباص المخالف إلى الرصيف وابتعد بحمولته المخالفة، كان عدم رضاه غير واقعي مثل عالمه.

كان هنالك، في شارع ريجنت، صف من وسائل المواصلات لنصف ميل. وقد استطاعا أن يريا صف الباصات يمتد إلى إكسفورد سيركس خلفهم. كان ثمة حشد على الرصيف، وسجادة قرمزية على الأرض خارج سينما. حرستها نساء قويات على الجانبين بقبعاتهن المورّوبة قليلاً وأيديهن تشد على حقائب سوداء يأكلن منها غذاءهن. كن متوردات الوجنات ونزقات ومهتاجات ومرتابات أن أحداً ما سيندفع بينهن من الخلف.

- «الأشغال متوقفة»، قال كوندر: «شرطة خيالة على ظهور أحصنتهم عند حافة الرصيف يحفظون الطريق خالية. إذا أردت شراء شيء لايمكنك. إذا أردت مقابلة شخص بشغل لايمكنك. سنبقى هنا الآن لربع ساعة، صبراً» قال كوندر، «عليك أن تكوني صبورة. إنها مناسبة رسمية. الملكة ذاهبة لمشاهدة فيلم سينمائي ناطق»، توهج الشارع تحت الشمس، خالياً بكامله حتى سيرك البيكاديللي. وكانت الأرصفة تتبخر بعد وابل من المطر. ديلمر من طراز قديم همهمت بهدوء حول منعطف الكوادرانت، ورجال في معاطف صباحية انحنوا من الأوراك، عندئذ عبر رأس عال من الشعر في قبعة رمادية إلى السينما. رمى أحدهم كيس ورق على السجادة، وعلا صوت رقيق من الهتاف، دارت محركات الباصات معاً، وانطلق الخيالة على طول الشارع الخالي، وأخذ كل امرىء يتحدث، كانت كأنها نهاية دقيقتي الصمت في عيد الشهداء.

❄ ❄ ❄

كان صوت كونراد عالياً ومشوباً بالسخط. قال للكتبة واحداً بعد آخر رأيه به، غير ناس الشاب، ابن أخت المدير التنفيذي الذي كان يتعلم العمل من أول السلم. كان يلبس بزة خفيفة وربطة عنق من المدرسة، «لو لم أكن هنا لأراقب كل واحد منكم»، شذره الشاب بوقاحة. فاحت منه رائحة

المال. كانت ثمة مجلة مصورة للسيارات مفتوحة، وكثيراً ما سمع كونراد صوته الضعيف الثاقب عبر الباب الزجاجي يخبر غيره من الكتبة عن عطلة في نهاية الأسبوع في برايتون. «أنتم لستم جديرين بأجركم. لايخطر ببالكم أنه لايمكن الاستغناء عنكم» ـ التفتوا إليه محدقين فاستحال فجأة إلى خائف من مجموعة العيون المعادية وعاد إلى غرفته.

كانت الساعة الواحدة، لكنه استمر يرتب أوراقه حتى فرغت غرفة الكتبة. كانت أصابعه ترتجف وشعر بضعف في الركبتين. كان يعرف أنه مكروه وقد كرههم جميعاً بالمقابل كمدبري مكائد. لو وجدوا طريقة، لكانوا استفادوا حتى من إدانة أخيه. تساءل أحياناً، فيما إذا كان هذا سيستمر طوال حياته، أبدال جديدة للكتبة، أبدال جديدة لمتآمرين على مركزه. كان الشيء ذاته دائماً، قال في سره، ماكان رئيس الكتبة شعبياً أبداً، لكن ربما كان الآخرون أقوياء كفاية ليتابعوا حتى النهاية. كان لديهم مصدر ما من القوة الحية. «إني منهك»، قال بصوت عال ونقرت برجماته على مكتبه. أيقظه الصوت من مراجعته لذاته، كانت غرفة الكتبة خالية آنئذ، لكن خيال المدير كان مايزال يذرع جيئةً وذهاباً خلف بابه الزجاجي. لم يكن ثمة أمان في التخاذل حتى للحظة. لو سمعه المدير يكلم نفسه بصوت عال في الغرفة، لربما بدأ يفقد الثقة به وبأرقامه وبانضباطه ولربما كان قرر أنّ الوقت مناسب ليجرب ابن أخت المدير التنفيذي. كان كونراد متأكداً تماماً أن ذلك سيحدث يوماً. في غضون ذلك على المرء أن يبقى هادئاً، يطور عادات، يفكر في أشياء أخرى، ألا يصطحب المكتب إلى البيت دائماً، حافظاً صفحات الموازنة والكتبة المتدربين وابن أخت المدير في الجمجمة كأوراق في خزانة نسي أرقام فتحها.

تناول قبعته عن مشجب ومظلته عن منصب، وحقيبته عن الطاولة. كان الوقت متأخراً خمس دقائق عن ساعة مغادرته المعتادة للمكتب، وكان محتملاً أن يكون غريب قد شغل طاولته في المطعم.

عندما عبر غرفة الكتبة رأى صحيفة مسائية مفتوحة على نحو مريب على مكتب ابن أخت المدير، كانت من اليوم السابق ومفتوحة على خبر

عن عريضة استرحام لأخيه. كانت هناك صورة غير واضحة لأخيه مأخوذة يوم عرسه. كلن يلبس ياقة منشاة وربطة عنق سوداء وقد جلبت الثياب غير المعتادة شبهاً بكونراد. انتفض قلبه. خشي أن يراها المدير. كرمشها وكورها ورماها إلى سلة المهملات. لكن ربما أراد المدير شيئاً ليقرأه عند الغداء فيستخرجها ثانيةً. لو أستطيع حرقها، فكر، وتحسس جيبه بحثاً عن كبريتة. لكن لم يكن هنالك موقد. وعندما سمع باب المدير ينفتح، أخرج الصحيفة من سلة المهملات وحشرها في جيبه.

حاجج نفسه طول الطريق إلى أسفل السلم. لابد أن المدير يعلم. صحيح. ومع ذلك ينبغي ألا يعرف أن الكتبة يستغلوني. «الانضباط» سمع المدير يقول، منحنياً على طاولته، «دروفر، يجب أن يكون لدينا انضباط في المكتب». وكونراد، شفتاه أيبسهما اليأس، عارفاً أنه كان على وشك أن يعطي إنذار بالفصل بعد شهر، سمع مندهشاً وغير مصدق، ولأني أظنك قادراً على أن تبقي يداً شديدة على الكتبة، أعينك في مركز شاين، أنت شاب، يادروفر»، ومص المدير أسنانه وابتسم، «ليس ثمة شيء لايمكن لشاب ألا يفعله إذا كان لديه طاقة وطموح».

لقد أُخذَ على حين غرة. كان طيلة حياته يؤخذ على حين غرة. رقاه الناس حين توقع التسريح، مدحوه حين توقع اللوم، عرف أنهم سيكتشفون ذلك يوماً ما وابن أخت المدير أولهم.

لم يشغل أحد مكانه. بالكاد ملك وقتاً ليرفع قائمة الطعام أمام وجهه النحيل الحزين المهتاج قبل أن تندفع صاحبة المطعم نفسها نحو طاولته. لقد أدهشه تأهبها كل يوم. كبيرة كفاية لتكون أمه، بسترة تماثل غرفة شايها، تتحرك، حالماً يجلس، بسرعة وأمان بين الآنية الصينية الجميلة الزرقاء والبرتقالية وبين الطاولات الصغيرة ذات الأغطية المنقطة، كقطة.

ـ «نعم؟» تنفست قلقة. «نعم؟» وصفرت بجرأة في قفاه.

ـ «الغداء»، كان يقول. كانت قائمة الطعام واجهة للاحترام. لم تحتو شيئاً لم يكن في وجبة الغداء، ولكن بزيادة طفيفة في الثمن لكل طبق.

ـ حساء البندورة. شريحة اللحم وشطيرة الكلى.

ـ آسفة، لقد نفذت الشطائر.

ـ إنـي أتنـاول شطيرة دائمـاً. كـان ينبغـي أن تعـرفي. كـان يجـب أن تحتفظي...

ـ ظننتك لن تأتي.

ـ إني أحضر كل يوم. سأتناول كستليتة وسلطة الفواكه.

شعر أن قائمة الطعام تهتز بيده، وقد ارتعشت الأرقام الملونة بـالكرينول تحت (صورة شجرة التوت). «رجاء، أظنني أريد أن أطلب كأس جعة».

ـ آسفة، سأطلب منك دفع ثمنه.

كاد لايسمع ما قالته، فطلب إليها أن تكرر قولها بانفعـال واهتيـاج، لم يع أنها كانت خائفة منه ومن صوته كرئيس كتبة أكثر من أي زبـون آخـر على الإطلاق. لقد افترضت دوماً أنـه كـان موظفـاً حكوميـاً مثقـلاً بالأسـرار والمسؤوليات، كأس جعة، قالت بصورة ماكرة لمساعدتها، «لرقيب الأرقاء»، وقد شعرت بإثارة وزهو، عندما جيء بالزجاجـة الـتي جعلـت المطعـم كلـه أكثر ذكورية، «أظنني سأغير الإسم إلى شـجرة الكاكـاو»، أسـرت لـه وهـي تضع الزجاجة جانبه.

لم يرد. كان يفكر كيف قالت ميلي: «لن تكون ذا فائدة مـع مسـدس». ما الذي جعلهـا تقـول ذلـك بحـق السـماء؟ لانفـع بـه مـع سـلاح. أقلقتـه ملاحظتها. كان يفكر بها لما نهض وقد دفع فاتورته، وغادر غرفة الشـاي، كان وجهه مصمماً، مليئاً بالسـرية والإهتمـام، كبـح نفسـه بشـدة، لم يكـن لأحد أن يحذر أية جملة سخيفة كان يكررها صامتاً. في الشارع، رفـع يـده قليلاً، وأبقاها جاسئة. بقيت ثابتة لثـانيتين طويلتـين كفايـة ليطلـق النـار. لكنه على أي شيء يريد أن يطلق النار بحق الجحيم؟ ومضت أمامه سلسـلة وجوه: المدير، ابن أخت المدير، سلسـلة مـن كتبـة، رجـل بديـن يضحـك خارج البيركلي، وجه أصفر متغضن يبتسم، قسماته هو نفسه منعكسـة علـى لوح زجاجي. ينبغي ألا أملك الأعصاب لفعل أي شيء من ذلك أبداً ـ إطـلاق

النار لايحل شيئاً. تجاوزته فتاة تهرول نحو موقف باص: كانت تضحك لذاتها وكان ثمة سخام على خدها. شعر فجأةً بلمسة سعادة تامة تهز معطفه وتكاد توقع مظلته عن ذراعه. نظر إليها، لكنها كانت قد غابت عن أنظاره، وقطعة من مادة قرمزية تلاشت داخل باص متحرك.

ملأ محل أزهار الجو بالشذى.

اطلاق النار لايحل مشكلة، كل ما يريده المرء هو شيء من الثقة، إيمان بالله، وردة في العروة، موسيقى من مصلصلة(*)، من وسط السماء، «الطاقة والطموح، يادروفر»، حب، بطاقة مسرح، حب، خطا إلى المحل بعزم. «باقة ورود الزعفران هذي، كم ثمنها؟» صعقة الثمن، لكنه اشتراها. كان الوقت متأخراً، وقد طلبها، وعلى كل حال، موسيقى المصلصلة والحب والفخفخة والقطعة من المادة القرمزية تتلاشى.

عندما أصبح على بعد نصف ميل وجد أنهم قد أعطوه وروداً زهرية. رفع يده ليرميها في مصرف جانب الطريق ـ كان غاضباً ومحبطاً، لكن سيدةً عجوزاً حدقت إليه مندهشةً فخفضَ يده. تظاهر أنه كان يشير لصديق، ابتسم وأومأ واستدار صوب واجهة دكان: كان محلاً لبيع البنادق. كان ثمة بندقيتان بسبطانتين معلقتين فوق تدرج محنط في صندوق زجاجي. أذهلته المصادفة. سمع ميلي، مرة أخرى، تبدي ملاحظة عابرة لامعنى لها: «لافائدة بك ببندقية»، وعبر خياله الشفاف هو ذاته، وعبر المظلة، وطاقة الزهر، والحقيبة الدبلوماسية، رأى صف أشياء معدنية صغيرة، واجتذبت الحجرات ذات الجوانب العديدة الضوء مثل نرد فولاذي. شرع هدير الباصات يعلو حين توقفت المصلصلة عن الرنين في برج اتكنسون العالي.

قليل من الثقة، إيمان بالله، المدير، ابن أخت المدير، أنا نفسي. كان سعيداً، يبتسم عند النافذة ذات القضبان، «الانضباط، يادروفر، الإنضباط»،

(*) المصلصلة: مجموعة أجراس مثبتة تقرع بمطارق تعمل ذاتياً أو بواسطة لوحة ذات مفاتيح.

وافترض الرد مسدساً مشرعاً، «آسف جداً... انذار شهر» الوجه المكتنز يتفرس باليدين المكتنزتين على المكتب المصنوع من الماهو غاني، متوقعاً رجلاً يتلقى قرار الفصل من العمل بروح رياضية، يخرج دون تذمر إلى الشوارع لطلب الإعانة ـ لكن ليس ثمة إعانة لرجل صاحب مهنة. افترض بدلاً عن ذلك، عندما تأتي تلك اللحظة، على اعتبار أنها ستاتي يوماً ما لا محالة، افترض بدلاً عن ذلك أن المرء رفع يداً وأطلق النار ببساطة. هل سيجد الوجه وقتاً ليظهر الدهشة؟

ـ ستكون قاتلاً.

لكني أدركتُ ذلك، لاتستطيع أن تعيرني بعد الآن بكلمة مثل قاتل. أعرف ماذا يكون القاتل ـ جيم قاتل. عرفني القانون بذلك، ادخله في عقلي خلال ثلاثة أيام طوال، ألقى مستشار قانوني خطابات مكلفة حول النقطة. ستة أصحاب محلات، ثلاثة موظفين حكوميين، طبيبان، ومراسل معروف ناقشوها معاً وتوصلوا إلى تلك النتيجة ـ جيم قاتل، إنه قاتل، جيم قاتل. لماذا ينبغي ألا أكون قاتلاً أنا نفسي؟ دائماً، منذ ذهبت إلى المدرسة، رغبت أن أكون مثل جيم. ليس جيداً أن تدعوني قاتلاً. لقد أدركت خفايا تلك المسألة.

طبعاً، قال في سره إني أمزح. ومع ذلك لماذا لاتذهب المزحة أبعد قليلاً؟ سأذهب إلى المحل وأفكر طوال الوقت، عندما أشتري ماكنت أنوي شراءه. لن أخشى أحداً. طبعاً، إذا سألني البائع ماذا أريد، سأقدم بعض الأعذار، وستنتهي المزحة، ولن يكون ثمة سبب للضحك بعدئذٍ. وسأخرج من المحل وألحق بالباص.

«آه، نعم ياسيدي»، كان صاحب المحل يقول: «هذا هو النوع ذاته الذي كان يستخدمه اللورد بلندو في الخريف الماضي. كان راضياً، راضياً جداً عنه. تحسس التوازن، ياسيدي. ليست، طبعا، بندقية لكل المناسبات». راقبهما كونراد دروفر من المدخل، طاقة الورد متدلية على الرصيف. «إنها بندقية رياضية، ياسيدي. عندما تأتي الطيور كثيرة وعالية...»

انحنيا فوق البندقية، عاينا‌ها، لمساها بأصابعهما. صار صاحب المحل حميمياً، «هل صحيح، ياسيدي، سمعت ذلك في حديث أحدهم، أن السيد

جونس لم يستأجر مستنقعاً هذه السنة؟ لا، ليس السـيد فـرد جونـس. إنـه يصطاد مع اللورد تافيريل. بل السيد جي جي جونس، ياسيدي».

دخل كونراد المحل، كان يبتسم، وضع الزهور على النضد وجلـس. لم يعره أحد اهتماماً. «لا، ليس كثيراً من الأمريكيـين هـذه السـنة، ياسـيدي. لايمكننا أن نقول أننا آسفون. لدينا بضعة زبائن أمريكيين. يجلبون بنادقهم الخاصة معهم. بنادق آلية ستنتشر عمـا قريـب. نسـمع قصصـاً كثـيرة عـن تصرفـاتهم، كمـا يمكنـك أن تتوقـع، ياسيدي. أنهـم ليسـوا ريـاضيين، ياسيدي، إنهم قتلة».

نـهض كونراد ثانية وأخذ يجول في المحل. كان هنـاك سـجادة سميكـة على الأرضية. غرقت قدماه في الكومة الزرقاء والقرمزية، وواحدة من أزهـاره مفرطة التفتح قليـلاً رمـت بتويجاتهـا حيـث مشـى، كـان ثمـة أسـلحة في الصناديق الزجاجية. بنادق ثنائية السبطانة، بنادق عادية، مسدسات.

ضحك البائع بصوت مكتوم. «آه، أجل، سمعت ذلك، ياسيدي. كانت طلقة اللورد تافيريل، أليس كذلك؟ أصـاب الكلـب في السـاق. سعادته هنـا أكثر الأوقات، ياسيدي. أخبرنا ذلك هو نفسه».

نادى كونراد فجأة بصوته كرئيس كتبة: «أليس مـن أحـد يعنـى بـي؟» نظر صاحب المحل إليه، رفع حاجبيه، ونادى: «سيد فانشاو، إلى الواجهة»، وتابع قصته. ظهر السيد فانشاو خلف النضد. كان ذا شـعر رمـادي، ويرتـدي سترة صباحية. يبدو أن بيـع الأسـلحة يتطلـب سـترات صباحيـة، وسـجادات سميكة، ولمعاناً في كل مكان ـ لمعان علـى العلـب المصنوعـة مـن خشـب المـاهو غاني، على الأحذية، على الشعر، وعلى الأظافر.

ـ أريد أن أشتري مسدساً، قال كونراد.

ـ «طبعاً، ياسيدي، أحادي الفعل، ثنائي الفعل. ماذا عزمت؟» سـحب علبة وأخذ يعرض مسدسات على كونراد بصورة ضاغطة. «ميزة هـذا النـوع الجديد في مسمار الأمـان، ياسـيدي.. ثقيـل قليـلاً ربمـا، هـذه.. هـذه أداة جميلة صغيرة، ياسيدي، ربما أجمل مالدينا. نمـوذج نسـائي، لكـن يمكـن

الاعتماد عليه حتى على بعد خمسين قدماً». فكر كونراد فجأةً أنه شط بمزحته، لم يكن يريد مسدساً. أخذت يده ترتعش ثانيةً. قال: «سأفكر في الأمر».

شيء رمادي آخر مماثل أثقل يده، وقد شدت أصابعه عليه ضد إرادته: لن أخاف أحداً بعد الآن أبداً: طنت طبلات أذنيه «الانضباط، يادروفر، الانضباط»، «عربة أطفال على تكسي»، قال للمساعد بشبه صياح: «لكن ليس لدي رخصة».

«طبعاً، ياسيدي، عليك تقديم رخصة عند البيع. لو كنت زبوناً منتظماً، كان يمكن أن نؤجل النظر في هذه النقطة، لكنك، طبعاً، ياسيدي، ترى، لانستطيع أن نتحمل المسؤولية مع غريب». كان يضع حداً للمسألة بلطف، كان تحت تأثير أن كونراد ربما استاء لأنه لن يسمح له بمغادرة المحل مع أداة جميلة قادرة على قتل رجل بكل ثقة على مسافة لاتزيد عن خمسين قدماً. لا، قال كونراد فرحاً، وفي غاية السرور أن فرصته قد انتهت، «ليس معي رخصة».

«ربما أمكنني أن أثير اهتمامك بمسدس منزلي هوائي. لايحتاج إلى رخصة». كان صوت الرجل آلياً، لم يكن بحاجة إلى أبهة السجادة والسترة الصباحية ولمعة الماهو غاني لبيع مسدس هوائي.

ـ لا، لا، يجب أن أتدبر الرخصة، ثم أعود.

ـ «لقد نسيت ورودك على النضد»، ببرود.

ـ شكراً لك.

كان السيد فانشاو قد أدار ظهره بالفعل. خرج كونراد مبعثراً تويجات أزهاره. مرّ باص بجانبه، لكن أحداً لم يلحق به، ولا عبرت به إحداهن تغمرها السعادة. واختفت كشيء من مادة قرمزية، لم تكن المزحة مضحكة كثيراً، تكاد لاتستأهل أن يقصها على ميلي، ومن الصعب أن تجعلهما ينسيان جيم في السجن، وتنفيذ الحكم الخميس، ويضحكان. لأول مرة في حياته أحس بلمسة كراهية لأخيه. كم سيطول الأمر قبل أن يستطيع المرء

أن يبتسم ويضحك؟ كم ستبقى عضلات الفم مقيدة؟ كم سيطول الأمر مع الوعي أن لحظة الفرح كانت جبانة؟ كانت راحة يده ماتزال باردة ومثقلة بمعدن السلاح الناري.

خطرت له هذه الفكرة بعد برهة وجيزة: افرض نجحت ميلي، افرض وقعت السيدة كوني، افرض تم انقاذ جيم. أثقلت الفكرة على ذهنه مثلما أثقل المسدس راحته ـ ثقل ثمانية عشرة عاماً هبط عليه، حتى جيم، هل سيرغب بهذا؟ لكنه كان واجبهم أن يفترضوا أن الحياة، كفكرة مجردة، دون فرح أو أمل أو تغيير، كانت ما سيفضله جيم على الموت. إذا مات جيم، سيظهر عليهما الهلع لزمن طويل، ومع ذلك سيعيشان. سيأتي السلوان مع الوقت. سيكون بمقدورهما أن يتكلما معاً طبيعياً، ولربما بنيا ضرباً من حياة بألم. لكن إذا عاش جيم فسيكونان هما نفسيهما محكومين بشكل ما من أشكال الموت. ستبقى نهاية الثمانية عشرة عاماً في نطاق رؤيتهما دائماً، تثبط أية فرصة للفرح، ونهاية مسطحة لكل قصة. وضع جيم فمه على الشبكة السلكية وقال: «سيكون شيئاً جيداً إذا تزوجت ميلي ثانية».

كان كونراد يحمل في حقيبته الدبلوماسية بيجامتين وكيس إسفنج وخفاً وبضعة أوراق. فتحها في المطبخ ووضب محتوياتها في الزوايا بدقة، لم تكن ميلي قد عادت إلى البيت. غلى إبريقاً وأنصت، غسل يديه وأنصت. كان الباب الرئيسي المخلوع في الطابق العلوي يحدث ضجة كبيرة جيئةً وذهاباً. تساءل ما الذي أخرها، وضع الزهور في الماء. كان المحل قد أعطاه أسوأ أزهاره وواحدة كانت قد رمت تويجاتها كلها. صعد إلى الطابق الفوقاني آنئذٍ.

فتح باب غرفة ميلي. لم يكن بحاجة إلى صورة جيم على طاولة جانب السرير لتخبره أنها غرفتها. كان يعرف عطرها: ذكي ورخيص. شمه من أقصى الممرات: عبر الغرفة حيث جلست الكاتبات على آلات الاختزال: خارج أبواب محلات إكسفورد ستريت: إلى جواره في السينما. مع ذلك لم يخطر له أن ذلك العطر شائعٌ جداً، بل غالباً ما كانت ميلي تشغل أفكاره.

لم ينجُ قط من غزوهـا، لأنـه عندمـا تستنفذ العينـات المجانيـة مـن «ليلـة حب»(*) تكون آلاف القسائم في الصفحات المخصصة للنساء قد ملئت كلهـا. ويكون العطر قد استبدل (يتسرب فـراى بـاريس(*) مـن بابـه في المكتـب إلى المصاعد وخارجها وعلى الأدراج المتحركة)، كانت ميلي وصورة ميلـي هـي ما يخطر بباله، لأن عطرها قد تبدل أيضاً، لم تكن شـجاعة ومجربـة مثـل كاي ـ لاتستطيع أن تتحمل ذلك وهي تملأ نمـاذج لاتحصـى وتسـتلم علبـة بقياس علبة الكبريت صورت بحجم نصف صفحة مـن مجلـة الـ مـودرن، حنجور أحمر الشفاه الصغير، أنبوب الكريم الصغير، عطر في زجاجة تبـدو كأنها آتية من بيت دمى.

نظر إلى الطاولة. حتى الآن كان هناك نموذج نصف مملوء. «أصرح أنـي لم أتقدم بطلب سابق...» كانت قد وقعت اسمها، لكنها لم تكن قـد كتبـت عنوانها بعد. «ميلي دروفر» ضاعت الكتابة العنكبوتية بـين الأحـرف الـتي انتهت بفجوة ناتئة وبقعة حبر، بدت الكتابة له، بعد الصفيحة النحاسـية للمكتب، شخصية للغاية ـ كانت شاردة الذهن، توقفت وتـابعت مسـرعة، انتهت بقسوة بسبب أفكارها، أحس بالحنان نحـو كتابتهـا، لامسـاً إياهـا بإصبعه، متسائلاً كم انقضى وقتٌ منذ جف الحبر. ميلي دروفر، قرأ ثانيةً. سره أن اسميهما متماثلان، وللحظة خيل له أنها زوجته. وعندما رفع نظره ثانية رأى صورتها في المرآة تراقبه.

ـ كونراد، ماذا تفعل؟

قرأ بصوت عال: أُصـرح أنـني لم أتقـدم بطلـب سـابق، التوقيـع ميلـي دروفر. العنوان ١٦ والاس رود.

ـ والاس رود، قالت بغموض، ومن ثـم أخـذت تضحـك. «كونـراد، أي أحمق أنت. أنا سعيدة».

ـ سعيدة؟ سألها غير مصدق. كان خداها متوردين قليلاً، وفمهـا الكبـير ارتجف. خطر له كانت تشرب.

(*) أنواع من العطور.

ـ «نعم، سيكون كل شيء على ما يرام. أُحسُ ذلك. جعلتها توقع. لم تكن تريد ذلك. لكني جعلتها توقع. أُحس ـ أُحسّ كما لو أنه لايوجد شيء لايمكنني القيام به». خلعت قبعتها ورمتها على السرير. ما عرفها كونراد تهذر كثيراً قط ـ كان قلقاً، مرتبكاً، محبطاً، كان مثل رجل أبعد عن حبيبته سنوات عديدة وعاد ليجدها يكاد لايعرفها، وقد أثر الزمن عليها بقساوة. «لم أحاول قط، سابقاً، أن أجعل الناس يفعلون أشياء. كان جيم هنا دائماً. ما عرفت أنه بمستطاعي، لكني أستطيع»، قالت. جاءت وجلست على طرف طاولة الزينة جانبه ومدت ذراعيها وتثاءبت.

ـ لقد شربت شيئاً ما، أليس كذلك؟ سألها مضطرباً.

ـ «نعم، ياكونراد، ثلاث كؤوس شيري. بسرعة، واحدة بعد أخرى».

كانت تضحك عليه. إنه، فكر بكآبة، ماتبقى من ميلي المألوفة. البارحة، عاملته بجدية، توسلت إليه. لكن حالتها تلك لم تطل.

ـ من أين أتيت بالمال؟

ـ دعاني السيد كوندر.

ـ «من هو كوندر؟» سألها محتداً. «لم أسمع به أبداً».

ـ لم أسمع به إلا هذا الصباح. لكنه يساعدني. إنه صحفي. يعرف كاي. لاتكن سوداوياً انظر إلى نفسك في المرآة.

ـ ما عرفتك أبداً تتكلمين كثيراً هكذا، لابد أنه ذكي حتى جعلك تتكلمين.

سحبت ربطة عنقه خارج معطفه. «إنه في أواسط العمر، وأصلع، ومتزوج مع ستة أطفال، ليس ثمة ما تغار منه».

«غيرة»، قال، «إنها كلمة غريبة لتستخدميها معي. غيرة؟»

ـ لم أقصد أي شيء غريب، قالت، حدته جعلتها تصحو. تكلمت بصوت خفيض، دفاعياً. كانت ميلي المألوفة من تكلم بتلك الطريقة. حتى لو أغمض عينيه أو أدار ظهره، كان سيعرف كيف تنظر بعيداً عنه، إلى الزوايا، تنقل نظراتها ليس خبثاً بل خشية أنها قد تجد عدواً في كل مكان

تقريباً. تذكرها في الكنيسة الضيقة ذات اللون الدخاني، يوم زفافها وسط رائحة فحم الانتراسيت وضرب الطبول بعيداً يشق طريقه في الشارع الرئيسي وهي تجيب «نعم» بلهجة متحدية عالية مفاجئة كأنها توقعت أعداء حتى في الكنيسة وتنبأت بالتعاسة.

ـ أحضرت لك بعض الأزهار. وضعتها في الماء.

ـ رأيتها. إنها جميلة.

ـ «ليست شيئاً كثيراً. أعطوني الباقة الخطأ. لقد أفرطت بتفتحها. لن تعيش طويلاً»، ولتوه فكر في الخميس.

قالت باقتناع أقل رسوخاً: «كل شيء سيكون على مايرام، أحس بذلك».

ـ يجب ألا تتوقعي الكثير من ذلك الاسترحام.

ـ جعلتها توقع.

ـ ذلك يعني ثمانية عشرة عاماً في أحسن الحالات.

ـ «سيكون حياً»، قالت بعناد، «سيسعده أن يبقى حياً».

ـ وأنت؟

ـ نظرت إليه بما يشبه الرعب. «أنا؟ طبعاً سأكون مسرورة. إنها الجنة، سأبقى أراه».

ـ مرةً في الشهر.

ـ ماذا تقصد؟ هل تريدهم أن يشنقوه؟

ابتعد كونراد عن المرآة وجعلها، تهتز، موجهة انعكاس وجهه والسرير خلفه إلى السقف. «لست واثقاً. إني أرى الأشياء على نحو أوضح».

ـ ليس ثمة حاجة إليك للبقاء هنا، إذا كنت تريدهم أن يشنقوه تستطيع أن تذهب إلى الجحيم.

ـ أنت أكثر أهمية منه.

ـ لمن؟ لك؟

ـ نعم. لم المراوغة؟ عندما أقول إنك جميلة، أعني جميلة بالنسبة لي. وعندما أقول أنك مهمة، أعني هامة لي، ليس لـ رامزي ماكدونالد، ولا للملكة.

قالت بسرعة تحاول إلهاءه: «رأيت الملكة منذ قليل، ذاهبة إلى السينما. لماذا تلبس قبعات كتلك؟»

لم ينتبه. «ألانستطيع أن نمتع أنفسنا أبداً ثانية لأن جيم قام بعمل أرعن؟»

ـ ظننتك تحبه كثيراً.

ـ إني أحبه كثيراً. لكنه يجعلني أكرهه. يجب أن أكره أحدهم لأجل ذلك، شيء ما خطأ، والشرطي مات، ولايمكنني أن أكره القانون.

قالت بقنوط: «كن منطقياً. إنها ليست غلطة أحد، لن يوصلك الكره إلى نتيجة أكثر مما يفعل الحب. إلى سرير في المستشفى، ذلك ما يوصلك إليه كلاهما. إنك تتطلع بعيداً إلى المستقبل، وتفسد كل شيء. كنت سعيدة كفاية عندما جئت إلى البيت، لقد حققت شيئاً. أحسست بثقة أننا سننقذه، لكنك تتكلم وتتكلم والآن كل ما أريد عمله هو الذهاب إلى السرير والبكاء».

نظر إليها بذهول. «عجيب، أنا كنت فرحاً أيضاً، حتى جئت، عندي مزحة سأخبرك بها، دخلت إلى أحد تلك المحلات في ستريت بوند حيث يبيعون البنادق، وتظاهرت أني أريد مسدساً».

ـ لم المسدس؟

ـ كانت مزحة. شغلت البائع، تذمرت. ثم قلت ليس معي رخصة وخرجت. بدت مزحة جيدة في حينها.

ـ إنها أكثر المزحات تفاهة على الإطلاق مما سمعته.

ـ «تبدو تافهة الآن»، قال متسائلاً، أخذا يضحكان كلاهما. لم يعرف لماذا، لكنه إذ أطلق المرآة تتأرجح للمرة الثانية ورأى وجهاً وسريراً وأدوات الزينة تنطلق خارج أنظاره، عاد إليه مزاج الصلصلة تدق الساعة في اتكنسون، ورائحة الزهرة على الرصيف والفتاة المسرعة التي توشك أن توقع مظلته جانباً. ما عاد وجهه متصلباً بشك في نقد غير مقال. لقد قالت له أنه أحمق وأن مزحته تافهة ويمكنه الذهاب إلى الجحيم، لقد تعلق بكلماتها كما لو كانت الإطراء الأعظم، لكنه فقد ريبته بفكرة أنها ربما قد قالت أسوأ ما بإمكانها عنه.

«وهذا»، قال، «هذا تافه كفاية: أصرح أنني لم أملأ...»

«لا»، قالت، «هذا ليس تافهاً، إنه مسل..» وقد اغرورقت عيناها.

ـ كونراد، أيها الأحمق. أيها الأحمق، كونراد.

حملهما المزاج بأمان بضع ساعات. لم تعد كاي وقت العشاء. وبحلول العشاء أحس أنه عاش دهراً مع ميلي. لكن الظلام وإضاءة الأنوار جعلهما يتباعدان قليلاً. «لم يعد الشتاء بعيداً»، قال. «هل كاي بخير؟»

«إنها تعرف فحوى الأمور»، قالت ميلي. أشعلت الغاز وسحبت كرسيها وبدأت تحبك بإبرة معقوفة. وتفرج عليها بعض الوقت. أسرعت بالحبك دون أن تنتبه إلى نموذجها، وقد اضطرت إلى حل دور مرةً تلو الأخرى. كانت النتيجة رقعة قماش مقلمة ليست مدورة ولا بيضوية. أخرج كونراد أوراقه وحاول أن يعمل، لكنه أربكه قربها. كانت ساقاها متصالبتين، وقد أحزنه نحولهما وركبتها العظمية وتشابك أصابعها المتحركة والخفان الحمراوان تحت كعبيها وقد تدليا من أصابع قدميها ورأسها المنحني وعظمتا الخدين الناتئتين، ملأه كل ذلك بحزن لم يحاول أن يفسره. بألم، فكته حبكة بعد حبكة وبتهور اندفعت إلى عملها ثانية، سقط النموذج عن ركبتها، وسفع اللهب زاويته. حتى هو سفعه الضوء المحترق المائل إلى الزرقة حيث جلس. خفض النار وأظلم وجهها إذ تقلص الوميض. ذكرته ساقاها بأوصال أطفال السكان المحليين الذين صورهم المبشرون. حدق إليه الأطفال من شاشات بيضاء في مدرسة المقاطعة، عيونهم واسعة، غير مدركة، دون أدنى فكرة عن الشفقة التي قصد منهم أن ينقلوها، كانت الركبة العظمية والخفان يدوسهما كعباهما، كافية لتوقظ شوقه ثانية، لأن يكره جيم وابن أخت المدير والرجل المازح خارج بيركلي وأي شخص هدد، مهما يكن الأسلوب غير مباشر، تلك الركبة العظمية وذلك الخف الموطوء.

ـ «ما هذا؟» قال. «ماذا تصنعين؟»

رفعت شغلها مقابل الضوء. «شيء ما خطأ»، قالت. «يجب ألاتكون مربعة».

ـ ما هذا؟

ـ بيريه.

ـ ألا يساعد النموذج؟

ـ النموذج. آه. لايمكن لأحد أن يفهمه.

شرعت تقرأ سريعاً جداً: ثلاث حبكات ثلاثية في العقدة الخامسة من الصنارة. اتحرك عقدتين، حبكة مزدوجة واحدة في التالية، ماذا تسميها ــ علامة نجمية ـ أترك عقدتين، أربع ثلاثيات في التالية، اترك عقدتين ـ

ـ أعطنيها، قال كونراد. سأريك.

ـ لاتستطيع ـ لاتستطيع الحبك؟

ـ إنه أسهل من مسك الدفاتر، قال كونراد.

ـ «تعرف»، قالت ميلي، «الخطأ فيك هو أنك حرفي كامل ــ أنت هادىء، ذكي، تستطيع أن تحبك. ما الذي تستطيعه زوجة أن تفعله معك؟» تهكمت منه بصوت خال من اللهو كلية ـ لقد سرت إليها عدوى مزاجه. أطرق إليها بحزن وجوعٍ يكاد لايكون حسياً إطلاقاً. كان جوعاً إلى تحريرها. لم يعد لها من عمل هنا أكثر مما للأطفال المغفلين الذين لفحتهم الشمس من عمل في الصفوف المدفأة. ذكرى سكنت زاوية الغرفة التي تحولت إلى ثالث لحديثهما، هربت وتركتهما مدركين كيف أنهما كانا وحيدين معاً. عادته مناسبات أخرى من التوحد الجزئي، أيام كان جيم في العمل، ووافقت ميلي أن تكون معه، دامعةً قليلاً، هجاءة قليلاً في السينما، في القسم الأعلى من الباص يجأر نازلاً هامر سميث برودواي نحو تشيسويك، يسحب النافذة جانبها لتفتحها، في حدائق كيو متظاهرة بفهم الأسماء المكتوبة على اللوحات الفولاذية، متعبة وهادئة وراغبة بشايها في الحرارة الإستوائية لبيت النخيل. لكنهما ما كانا أبداً مثلهما الآن بين فرن الغاز ومدفأة الغاز، على جانبي الطاولة ذات السطح البورسلاني.

«إني منهكة»، قالت، «ينبغي أن أذهب إلى السرير. لن تأتي كاي إلا بعد ساعات إذا كانت مع رجل». ألقت نظرة سريعة مرتابة عليه كأنها

تتساءل: هل أنت رجل؟ أنت هادىء، أنت ذكي، وتستطيع أن تحبك، هل أنت رجل؟

ـ «سأعد فراشاً على هذه الكراسي إذا أريتني أين بطاطينك».

فتحت باب خزانة، «لم تستعمل البتة»، قالت، «قدمها أحدهم لنا كهدية عرس»، فاسترجع ثانية الكنيسة الدافئة وقرع الطبول البعيدة، «كم كانت غيرتك مني قوية»، قالت، «ضحكت عليك مع جيم، لم يعجبه ذلك. كنت عابساً عندما وصلت إلى الكنيسة».

ـ «هل لاحظتني؟» سألها. «لكني لم أكن عابساً. لم أشعر أني كنت كذلك إطلاقاً».

دفنت يديها في كومة البطانيات العميقة الدافئة. «كيف أحسست؟» كانت تدفعه بتسرع مثلما كانت تحبك بتسرع، دون دراية.

ـ آه، لقد أحببتك حتى في ذلك الوقت.

عندئذٍ، كانت تفك ما حبكته عقدة بعد عقدة.

ـ حسن. ذلك صحيح بالنسبة للأخ فحسب.

ـ أعطني البطانيات.

شرع يسوي فراشه، ولم يتطلع إليها عندما قالت: «ليلة هانئة، ياكونراد»، وصعدت الدرج إلى سريرها، طبعاً، فكر، لم تكن تستدرجني — كانت لا مبالية تماماً مثلها عندما تعمل. لايمكنها التفكير بي كرجل. كونراد. كان الإسم، كاد يصدق، أنه منعها. لم يكن لأبويه شأن بتسميته بهذا الإسم، اسم بحار، ضابط بحرية تجارية استأجر غرفة في منزلهم ذات مرة، «ما الذي كان يميزه»؟ سأل ذلك مراراً. «لماذا سميتموني باسمه؟ هل كان ذكياً؟» «ليس ذاك ما عرفته عنه»، قال كل منهما. «هل كان لطيفاً معكما؟» «ليس على نحو خاص». «ماذا جرى له»؟ «لانعرف». «هل أقام معكما طويلاً؟» «بضعة أشهر» «إذاً لماذا، لماذا؟» «لانعرف أعطانا فكرة، تخمين. ماكان حسناً أن نسميك هربرت. عمل كان مفلساً». هكذا: كونراد، كونراد، كونراد، خفق إليه عبر المقاعد، عبر الساحة الإسفلتية، ويدفعه إلى

العزلة، بينما الذين حملوا أسماء جيم، هنري، هربرت، اجتمعوا معاً وتبادلوا الأسرار. هكذا: «ليلة هانئة ياكونراد»، وتتركه وحيداً في المطبخ. هكذا تركض السعادة بمحاذاته. هكذا وقعت زهوره الخطأ على الرصيف. انزلقت مظلته التي أسندها في زاوية وقعقعت على الأرضية. وفي نفس اللحظة سمع باباً ينفتح في القاعة فوق، كانت كاي طبعاً، مع أنه في البدء ما كاد يميز خطواتها. كانت خفيفة وبطيئة ومتريثة. كاد أن يتخيل وهو واقف هناك جانب الكرسي وبطانية فوق ذراعه أنه كان ينصت إلى امرأة غنية تمشي فوق سجادة سميكة، متأملة ومرهفة الحس تنتظر حبيباً. نزلت الدرج وانتظرها حاسداً، كانت تهمهم لحناً، سعيدة، قد نالت مرادها.

أنا مصيب، فكر عندما رأى وجهها. كانت أشد احمراراً من العادة ـ لم يعن هذا شيئاً، لأنها تضعه بنفسها، لكنه وهج بالصحة. بدت ناعسة وراضية مثل قطة بعد وجبة حليب.

ـ هل ذهبت ميلي إلى السرير؟

ـ نعم.

تثاءبت وتمطت ورفست قطعة من ورق عبر الأرضية. عرف أنها لم تأت إلى المطبخ وحدها، لقد اصطحبت رجلاً معها ـ كان في كل حركة أنيقة، كان في كل فكرة، كان في كل شيء إلا في سكون جسدها.

ـ أين كنت؟

ـ أمتع نفسي.

نظرت إلى ساعة الحائط ورآها كأنها تنهض من الفراش على مضض.

ـ يجدر بي أن أذهب إلى الفراش.

لقد تذكرت المصنع وخشخشة العلب وصخب الآلات.

ـ غداً الأحد.

ـ إذاً، هو ذا الغد. داعبت العبارة وراقبته على نحو لاهٍ ماكر. عرف أنها أرادته أن يسألها أسئلة وكان ليخيبها لو استطاع. وضع كرسيين معاً ورتب شرفاً وبطانيتين.

ـ أي سيدة منزل أنت! قالت.

ـ لماذا لاتذهبين إلى الفراش؟

ـ أتنكر على فتاة قليلاً من لهو.

ـ ماذا تعنين؟

ـ كنت لتفعل ذلك نفسك لو استطعت. رغم أنه يجعل الفتاة تمل على أية حال، لكن شكراً لله على الرجال.

ثم صعدت الدرج وسمعها تفتح باب ميلي وتبدأ بالكلام. لسوف تثيرها، فكر، لن تتحمل ذلك. كأنه كان لدى المرء مومس في البيت أيضاً، وأنصت للأصوات الغاضبة والأبواب المنصفقة. لكنه ما سمع شيئاً إلا صوت كاي يتابع الكلام، إنها تسد أذنيها، فكر، ثم نصف لابسة، سيصيبها برد ثم بأسى وجوع، فكر بالعينين اليائستين ورائحة فحم الانتراسيت وبالركبتين العظميتين والكعبين والأطفال المحليين نصف المتضورين على الشاشة البيضاء. «آه، يا إلهي»، قال بصوت عال. «هذا كثير. ليس عدلاً»، قصد ما كان عدلاً التفكير أنهم لو شنقوا أخاه فلربما ستكون ميلي يائسة كفاية لتتزوجه.

وضع البطانيات وذهب إلى أسفل السلم، ثم صعد درجة درجة. سمع كاي تتكلم، وكانت ميلي صامتة. «ثلاثة أشهر ياعزيزي، منذ المرة الأخيرة. كنت مستعدة لأي شيء». كان الباب مفتوحاً، واستطاع أن يرى كاي تجلس على السرير. كان ظهر ميلي نحوه. كانت جاثمة على كرسي أمام طاولة زينتها تمشط شعرها. كانت قد خلعت جواربها ورأى كيف أن بشرة ساقيها كانت مفروكة ومكشوطة قليلاً، استطاع أن يرى بريق الشعر الناعم. كانت عيناها تنظران إلى كاي من المرأة، بينما كانت يدها تسرح شعرها وتسرح. كانت تعبة وقلقة وتحت رحمة أي كان على الإطلاق. كانت تعبة جداً، فكر، إلى درجة أنها لن تطلب إليها الذهاب.

ـ عزيزتي، ياله من سرير. لكن الأمر استغرق دهراً لإيصاله إلى النقطة المعنية. كم تكلم. أخبرني كل شيء عن زوجته.

«زوجته؟» همست ميلي.

ـ «إنها متوفاة. لكنه رغب أن يخبرني أي زواج رائع كان يعيش. وبعد أن انتهينا قعد في الفراش وشرع يتكلم عنها ثانية. رسمت لوحات، وصفها أنها رائعة. وقد سألني: (أتحبين اللوحات؟) فقلت له إني أحببت صور الكلاب والناس يستحمون. فرد: (أنك أكاديمية) فطلبت إليه أنه ليس مضطراً لأن ينعتني بأسماء لمجرد أنه نال وطره. وعندئذ نهضت وارتديت ملابسي وطلب تكسي وقلنا سنلتقي غداً. هذا كل شيء».

قالت ميلي: ماذا ستفعلين غداً؟

ـ «الشيء نفسه ثانية، تخمين. على الفتاة أن تتخلص من التوتر العاطفي». استندت إلى الخلف على السرير ومدت ساقيها. «ذلك ضار لك، يا ميلي، لم تعاشري رجلاً منذ أشهر. ذلك ليس صحياً».

«لاأستطيع فعل ذلك»، قالت ميلي، «ليس مع غريب». استدارت عن المرآة وقالت لكاي بصوت خفيض، وحشي، بريء، فضولي: «كيف يشعر المرء مع غريب؟»

«خنزير في كيس»، قالت كاي. «تقعين أحياناً على شخص رائع. وأحياناً لايستأهل مشقة حل رباط حذاءك».

«والليلة؟» سألتها ميلي بصوتٍ جاف متهدج طفولي.

«آه، لم تكن سيئة»، قالت كاي، «لولا أنه تكلم كثيراً جداً. ثمة شخص كنت لأفضله أكثر، لكنك لاتستطيعين أن تنالي ما تريدين دائماً. عندما تكون لديك رغبة في رجل ما مثلي، فأي منهم أفضل من عدمه ــ ذلك يجعلك في حالة لاتستطيعين معها الانتظار. مهما يكن، قدم لي عشاء رائعاً، وآه، ياميلي، نسيت أن أخبرك بالجزء الأفضل فيها كلها ــ الفأر، خرج بجرأة كما تحبين. رماه بحذاء. غريب كدت أنسى أن أخبرك بأمر الفأر».

كم هي بسيطة لتفعل ذلك، فكر كونراد، متراجعاً بضع درجات إلى أسفل السلم بينما عبرت كاي من غرفة ميلي إلى غرفتها، يالبساطة هذا الذهاب إلى الفراش. كان الحب ما عقد الأمر ليس إلا. سمع باب غرفة

كاي ينغلق خلف جسدها الراضي الناعس والمنتصر، وثانية صعد متردداً الدرجات ورأى ميلي أمام مرآتها بركبتيها النحيلتين مرفوعتين إلى الأعلى إلى ذقنها تقريباً. راقبها، حاول أن يفكر بها بوحشية عارية كما يفكر بمومس باهظة الثمن في مطعم. لكن الساقين النحيلتين وعدم نضوج ثدييها البائسين فشلا في إثارته. لقد أثارته كاي أكثر من ذلك مع رائحة رجل مازالت عالقة عليها. لماذا لاأذهب إلى الفراش إذاً، تساءل. لماذا أبقى وأحدق إلى فتاة نصف عارية مالم أرغب بها. قال في سره، سيرضيه لو لفها بين ذراعيه طول الليل وتحدث إليها دون أن يفعل شيئاً غير أن يكلمها، يكلمها عما يمكنهما أن يفعلاه لمساعدة الرجل الذي أحباه كلاهما. كان مجرداً من الغيرة أو الهوى، لكنه عندما سمعها تقول: كونراد، ادخل، ورأى أنها شاهدته كل الوقت في المرآة، أحس بخجل كما لو أنها كانت فتاة سبب لها مشكلة.

وقد جلب لها مشكلة. لم يكن ذلك سعادة تلامس مظلته، ولاحباً يراقبه بطريقة غير مباشرة بالمرآة. «اغلق الباب»، همست الكلمات، كانت مفعمة بالخجل والخوف والتعاسة. كانت بشرتها جافة كطفل محموم. كانت طفلة شاخت فجأة من المرض. تذكر فتى في المدرسة مات بالإنفلونزا، كيف راقب في الساعات الأخيرة، قبل أن تضع الممرضات حاجزاً حول السرير، كل ما حدث في الغرفة بحكمة شيخ مضللة، لم يكن حكيماً في الحقيقة ولا معمراً، بل محموماً وضعيفاً فحسب.

«هل سمعت ما قالته؟» سألته ميلي، «إنه ضار بالنسبة لي؟ هل سمعت ما كانت تفعله؟» لو أنه أحس بأذى شهوة لكان هرب. كان عدم الإثارة في حبه، وعنصر الشفقة ما أبقاه هناك. بدت له معاناتها أمراً لا يحتمل.

ـ ينبغي أن تطرديها من هذا البيت.

ـ «كونراد، لاتكن أحمق. لاتكن أحمق يا كونراد. إنها على حق. ثمانية عشرة عاماً. أتظنني قادرة على احتمالها؟ سيضطر المرء أن يبدأ يوماً».

أراد أن يقول لها كانت هذه حكمة غرفة المريض، لكن لم يكن هناك وقت للنقاش. كانت تكلمه وأراد أن يوقفها. وإلا فسوف تعاني في وقت آخر لكونها هي من طلب، وكانت قد عانت ما فيه الكفاية. وأراد أن يوفر لها أي شيء يمكنه. «أريد...» قالت، وحتى آنذاك، في استعجاله للمقاطعة، لاحظ بألم، ودون دهشة، أنها كانت أكثر أمانة لتستخدم كلمة أكثر لطفاً أو أكثر رقة.

«اسمعي»، قال بهدوء، «تعرفين أني أحبك. دعيني أبقى. لهذا جئت إلى هنا. لم أستطع أن أنام». ماأحس بذنب على الإطلاق. ماأذى ذلك أخاه، أنها محاولة يائسة ليحميها، لأنه لم يخدعها. كانت مسرورة، وممتنة، كانت صديقته، لكنها لم تصدق كلمة قالها، ثم لمسته بجبن، واضطرب جسمه، وأحس بدرجة من الذنب استطاع السرير وتعب جسده ونسيان حبه في الاتصال المباشر وضغط الشهوة أن يهدئها مؤقتاً وجزئياً. عندما أحس بها ترتعش تملكه إحساس ممل أن أحدهما قد سبب أذى للآخر يتعذر علاجه. كان الحب قريباً منه في المطبخ، أمام وهج وهمهمة الغاز، بين كرسي وآخر، ذلك ماهرب منه الآن في الفراش، في العتمة. لقد آذى أحدهما الآخر، لكنها لم تكن غلطتهما. لقد سيقا إلى ذلك، وكان الكره هو ما شعر به عندما ضمها بحنان مؤلم، كره لجيم، لابن أخت المدير، لرجلين يضحكان في البيكاديللي. عندما استفاق ليلاً، كانت تبكي، ولم يوقف دموعها أي شيء استطاع فعله. فكر في كاي تنام سعيدة في الغرفة المجاورة، وبالشهوة فكر، يسمون ذلك شهوة وهذا حب. قصد الكره والألم والإحساس بالذنب وصوت البكاء في الغرفة الكئيبة والأرق والجدران المهتزة إذ تنطلق الشاحنات في الصباح الباكر خارج لندن.

❄ ❄ ❄

«كارولين،» قال الصوت، «كارولين»، ثم أضاف بلطف معدني: «ليس مثلك من ينسى صديقة». منذ عشر سنوات... تهادى مساعد المفوض عائداً عبر تلك السنين التي قادته عبر المعاناة، والحنين إلى الوطن، والاستقالة،

عبر دروب الغابة وليال سكنها البعوض، وراء عدد كبير من الميتات من نوع أو آخر، لكن الهاتف لَم يسمح له بوقت طويل للتفكير؟ «أريد أن تتعشى معي - يوم الاثنين».

بالكاد كان لديه الوقت ليعود إلى الوراء، إلى الطرف الآخر لعشر سنوات. العشاء الأخير في نادي الجيش والبحرية مع الشخص الوحيد الذي اهتم أن يقضي معه ساعاته الأخيرة في انكلترا، وخادمه الخاص يلوح بلياقة من على الرصيف والضباب الذي حجب السلات، حجب إنكلترا بأكملها، إذ لم يتمكن من إلقاء النظرة الأخيرة التي تتطلبها المشاعر تقليدياً. قبل ذلك - وكارولين، طبعاً تخبره أن يكتب، وهي تصب الشاي تتحول إلى سياسية.

- «حقاً لا أظن..» كانت طاولته مليئة بالأوراق، فاختراع اللاسلكي لم يكن مرضياً، والتقارير غير الرسمية حول دروفر كانت تأتي من مناطق مختلفة.

- لايمكنك أن ترفض. هذا سخف. بعد غدٍ. ساعتان فقط.

- لو ترين طاولتي فحسب.

- «ياللأصدقاء القدامى. يجب ألا نسمح للخيوط بالإنقطاع. ذلك سخيف. بعد عشر سنوات». كانت مناشدة المشاعر فعالة غير عاطفية - أصابته في المكان الذي كان أكثر قابلية للتأثر وفي الساعة التي كان فيها أكثر شعوراً بالوحدة. كان حتى سكرتيره قد تركه في غرفته في سكوتلا نديارد، وكان كل هؤلاء الرجال الذين توافقت ساعات عملهم مع ساعاته يغادرون وتتلاشى أصواتهم أسفل الممرات الطويلة بين الحجرات الزجاجية المكعبة.

- «عندما أكون أقل انشغالاً، أقل قليلاً. لدي الكثير لأتعلمه هنا. طرائق مختلفة. كارولين، إني مشغول حقاً».

قال الصوت، «لكني أريدك بشكل خاص». تردد «سأسافر خارج الوطن الأسبوع القادم. لاأعرف متى أعود». كان واثقاً تماماً أنها تكذب، لكن ثمة قلة قليلة من الناس كذبوا لينالوا صحبته. أخذ الرجال في النوبة المسائية

يصلون، سمعهم يمشون بتؤدة أمام بابه، واستطاع أن يرى ظلالهم عبر الزجاج الأرضي عرف أنهم استاؤوا لوجوده، اعتقدوا أنه كان يتطفل على قضايا تخص دوائرهم بقصد التدخل فيها. رغم أنه كان قد أوضح عدة مرات عند مجيئه بقدر ما استطاع لسانه غير المتصنع أن يسمح به أنه يريد معرفة عمل كل دائرة ليس بقصد الإنتقاد، بل لكي يقوم هو نفسه بقسطه من العمل. لكنهم لم يتظاهروا أبداً أنهم يصدقونه. وقد حاول أن يقنعهم، أحجم عن انتقادهم عندما أملى ذلك ضميره فلم يستنتجوا إلا أنه يجمع مواداً لتقرير مدمر إلى وزير الداخلية.

ـ «شكراً جزيلاً لك على كل حال، سآتي، إنما عليّ الآن أن أخرج سريعاً».

وضع السماعة وأشعره التوقف المفاجىء لذاك الصوت الخشن لكن الودود بعزلته بحدة. كانت الغرفة حوله كلها مظلمة ـ فقط مكتبه كان مضاء بمصباح ذي ظليلة خضراء. رن جرس هاتف في مكان ما بعيد، وكان ثمة صوت يمكن سماعه، ومع ذلك كان الممر الطويل عبر الزجاج معتماً تماماً. كان مثل جنرال بقي وحيداً في مقر القيادة ليدرس التقارير الواردة إليه من كل وحدة، التي كست مكتبه. لكنه لم يكن محمياً في قصر خلف أميال من بلد ممزق.

كان خط الجبهة على بعد مائة ياردة فحسب، حيث تعول عربات الترام تحت الامبانكمنت وتحتشد الباصات في ساحة ترافلفار. كان صعباً، فكر، الحصول على أية فكرة واضحة عن حرب دائمة بهذه الطريقة التدريجية في مدينة بكاملها. لم يكن قد اعتاد بعد على تصور موقف من تقرير لا لون له يقدمه شرطي ـ كان معتاداً في الشرق على أن يرى بعينيه هو ذاته التعديات على القانون: الجندي المطعون، الكوخ المحترق، الجسد المتدلي من غصن.

ـ ليس من إشارات لقضية دروفر في مظاهرات العمال في...»

ـ تم جمع مبلغ من المال لمساعدة السيدة دروفر في مركز قيادة الإضراب في...»

ـ تم رفض اقتراحٍ للقيام بمظاهرة ضد الحكم الصادر بحق دروفر في ساحة ترافلفار غداً وعبروا عن رغبتهم في مقابلة المستخدمين لبحث موضوع أجور العمل لفترات قصيرة...»

ـ لقد افترضوا هنا أن الإلتماس لتخفيض الحكم سيتم قبوله، وقد وقعه خمسة آلاف شخص.

ـ بعض السخط...»

ـ لامبالاة عامة...»

ـ شعور بالسخط معلن ضد عناصر قوى الأمن الداخلي...»

ـ لا اهتمام خاص...»

دفع هذه التقارير بشيء من نفاذ الصبر إلى أحد الأطراف والتفت إلى ملف ستريتهام. كان هنا شيء يمكن الإحساس به. إني أقاتل في سبيل ماهو صحيح. كان في قضية دروفر يدعم نظاماً لم يهتم به لأنه كان مدفوعاً له ليدعمه: كان مرتزقاً، ولايستطيع مرتزق تشجيع نفسه بالشعارات الوطنية ـ وطني على حق أو خطأ، حق الشعوب في تقرير مصيرها، عدالة. قاتل لأنه مدفوع له ليقاتل، وفي مناسبات قليلة قدم مرأى القسوة قناعة للعقل الذي حارب به.

كان الدافع الأكبر الذي استطاع أن يقدمه في أوقات أخرى هو أنه يقوم بعمله. لم تكن ثمة أسباب مجردة تجبره ليمنع هذا الإجتماع، ليضع حدا لذاك، ليقبض على هذا الإشتراكي لكلام تحريضي، ليحرس منبر ذاك الفاشي وهو يتحدث بلغة الحراب والبنادق الآلية. إنها إرادة المنظمة التي عمل فيها. فقط عندما كان تعباً أو مكتئباً أوأحس بتقدمه في العمر، يذكر أنه حلم بمنظمة يستطيع أن يخدم فيها لأسباب أكثر سمواً من الراتب. منظمة تستخدم إخلاصه لعدالتها المتأصلة، لتوزيعها المنصف للمكافآت. لمعقوليتها. ثم قال في سره بمرارة أنه تقدم في العمر كثيراً لأن يعيش طويلاً حتى ذلك الوقت. كان وجهه النحيل، الذي صفرته حمّات أكثر من أن يحصيها وغضّنته سنون خدمة ارتزاقية مخلصة، يحسد لبرهة فكرة أن الشباب الذين سيمتد بهم العمر لخدمة شيء ما يعتقدون أنه يستحق جهدهم.

- 4 -

«مارغريت»، قال السيد سوروغيت، وقلب راحة يده على الشرشف، «مارغريت»، تداعى صوته، صارت كلماته غير مسموعة، ووضع ديفيز منشفة على علبة الماء الساخن وتردد أمام النافذة. هل يرفع الستارة ويدع ضوء الشمس يدخل؟ كان الأطفال في ساحة ووبرن يصرخون بأصوات تشبه النباح على الرصيف، ونادى الرجل الذي معه صحيفة الأحد على سائقي التكسي في موقف السيارات.

طعام جيد، قال السيد سوروغيت فجأة، لايزال مع راحة اليد التفسيرية العاقلة تلك ممدودة. قرر ديفز: دعه نائماً، ابن الزنا دعه نائماً: وخرج على رؤوس أصابعه باحترام، السيد سيد.

لونت شمس الأصيل الرمال بالوردي وكان البحر فضياً، وحطت طيور البحر عند الحافة المتموجة بعيداً عبر الرمال الوردية، صغيرة وبيضاء ومنتصبة مثل شموع غير مضاءة. وقفت مارغريت، وحدقت، لم تكن لترغب في الدخول لتناول العشاء. طعام جيد مهدور، قال السيد سوروغيت، ناقراً على مرفقها كطائر جائع، «آه، اذهب إلى الجحيم»، وكانت كاي من تتكىء بعيداً عنه على السرير. استيقظ وجلس وواجه تفحص مارغريت البارد من الجدار. «لقد تزوجت الفنانة في هذه المرأة»، أوضح لمراسل في الجنازة، كان مستعداً، لقد توقع عدة صحفيين، أخفى خيبته بصعوبة عن الفتى الوحيد غير المجرب من وكالة أنباء. «كانت دائماً، بالنسبة لي، أكثر من امرأة». حدق الفتى إليه ونفّ أنفه: كان يعاني من رشح سيال.

«إنها حقيقة»، قال بصوت خفيض، لأن ديفيز في الغرفة المجاورة، «كنت أكثر من امرأة، لم أكن جديراً بك». كان مروعاً باللوحات الزيتية

التي تزين الآن جدار كارولين بوري، مروعاً بالرغبة الجنسية القصيرة غير المريحة التي كانت مارغريت هي القائدة فيها تاركة إياه مهترئاً، مهاناً، لمعرفته باستيائها. أكثر من امرأة. كانت كاي امرأة، تصرخ مستلقية على السرير: «لا، ياسيد سوروغيت، لا أرجوك، لا»، وبعد ذلك، على الوسائد، تهمس في أذنه كم كان قاسياً وكم كان قوياً.

لقد خنتك مرة أخرى، قال بتواضع للوجه. الرجل وحش، وحش داعر. قد يتزاوج ممّن هم أعلى منه، لكنه بسرعة يجد مستواه المناسب. بذيئة، بهيمية، قصيرة، هكذا وصف هوبس حياة الرجل. مسد الشعر الرمادي فوق أذنيه، متطلعاً إلى المرآة جانبه بنظرة شذراء: يعبر المرء الحياة سريعاً: الجمعية الغابية، عربات منتصف الليل، صداقات مع سمكريين مثقفين، مناضلاً في سبيل الحقيقة والعدالة، راثياً العنف يسود والشهوة تنتصر على ذكرى الحب. تراجعت أفكاره من شهر العسل غير السعيد ذاك الذي قضياه في كورن وول. المرء يكبر.

ومع ذلك استيقظت أفكار السيد سوروغيت مرنة: ما كان لامرىء مسن أن يغزو ويرضي امرأة شابة وجميلة. كانت الأمور لتختلف، قال في سره، متجنباً الصورة، لو أن مارغريت كانت أقلّ فناً وأكثر أنوثة لكانت أقل بروداً ـ لقد داس عميقاً ذكرى تلك الرغبة غير المشبعة. مافهمتني قط.

ـ «ديفز، ديفز»، نادى «كم الساعة؟ لقد توقفت ساعتي».

ـ «التاسعة والنصف، ياسيدي»، نادى ديفز من حجرة المؤونة. هل ستتناول طعاماً من حبوب، أم عصيدة، ياسيدي؟

ـ حبوب. لن تتحمل بشرته العصيدة كثيراً. ستظهر بقعة صغيرة على أنفه، خلال أربع ساعات ستأتي ثانية. لكنه أحس بإثارة ضعيفة جداً. حتى أنه تساءل فيما إذا كان يريد أن يراها ثانية فعلاً، لم يكن مشبوب العاطفة ـ يومان مع فتاة كانا كافيين لإنهاكه وهو في أواسط عمره، بعد ذلك كان للعاطفة نفس تأثير العصيدة: بقعة على الأنف.

مسد جلده بحذر شديد، عاد متواضعاً ثانية أمام المرآة، كان غريباً أن تقع فتاة شابة وجميلة في غرامه، طبعاً هناك مركزي. لكنها كانت غبية،

ليس باستطاعتها أبداً أن تفهم منطق كتاب «اللاتعويض». أرادت مني أن أساعد زوج أختها. لكني قد كلمت كارولين، ليس هناك أي شيء آخر يمكنني تقديمه، سريري، فكر، بومضة حدس، أعجبت بسريري، وحدق خلال الأغطية الوردية مكوّراً شفتيه بتكلف لفكرة أن سريراً قد يعني لفتاة أكثر من مؤلف كتاب: «اللاتعويض».

ـ شاي أم قهوة، ياسيدي؟

ـ قهوة، ياديفز.

أنا شخصية عامة بعد كل شيء، وأكثر المفكرين الاقتصاديين تقدماً في هذه البلاد (نظرة من هاتين العينين المرحتين المثمنتين) وعلى مضض فكر ـ أنا زوج مارغريت ـ مارغريت التي تسجى رؤيتها الماكرة في معارض الرسم في كل عاصمة في أوربا. فتاة كتلك ليست ملائمة لي في الحقيقة. ولم يقدم جسمه المتقدم بالعمر والمرتخي نتيجة استجابته الأحادية أي احتجاج.

قد تقصد الابتزاز، خطرت له الفكرة المروعة للمرة الأولى.

ـ ألن تحضر الفطور أبداً، ياديفز؟ نادى باهتياج. لن أقابلها. سأستلقي على سريري. إني تعب.

آه، مارغريت، مارغريت، كان لها من العمر عشرين عاماً لما تزوجته ــ بدأت تدرك قدرتها على الرسم آنئذ، كل تلك اللوحات، الثلاثة في متحف تيت، وتلك التي على جدران كاولين، في مانشستر، في ميونخ، في «برلين، تخصه». «إلى السيد و.هـ. الملهم الوحيد». لم يكن فخوراً بإلهامه. تلك المشاهد التي كانت الطبيعة فيها متأنقة جداً، منهكة جداً، مثيرة للسخرية على نحو باهت، كانت تعني ليالي التعب، والأعصاب المتوترة. لقد آذيتك. كفاية، يامارغريت. سأكون مخلصاً. سأتخلى عن هذه الفتاة. أراد أن يجبر الصورة على تصديقه هذه المرة، أنه لم يكن الخوف من الابتزاز ماكبحه، بل كان ذلك لأجلها. أنت فقط من أحببت، يامارغريت، قال لها، وفكر بعد دقيقة، يعلم الله، ربّما كان ذلك صحيحاً.

جلب ديفز صينية الإفطار، وبلباقة دفع بقدمه خصلة من شعر الفتاة تحت السرير.

ـ لقد نسيت السكر الناعم ثانية، ياديفز.

القذر ابن القحبة العجوز، لقد فعلها ثانية، فكر ديفز، وهو يخطو على أصابع قدميه برقة ورشاقة في حذائه الجلدي الناعم إلى الباب.

❄ ❄ ❄

«امرأة صغيرة جميلة»، قال كوندر. تناول فطوره في المقهى، قهوة وكعك. ليس لأنه كان يفضل الفطور الخفيف أو لأنه لايستطيع تحمل نفقات إفطار أكبر ـ كان أجره جيداً. لكن تراكم وجبات فطور غير مأكولة كان يستبدل بقضاء عطل في بلجيكا، وفرنسا، وسويسرا. وجيوب تعزف فيها الموسيقى عملات أجنبية.

ـ لقد نسيت الزبدة، يا جولز.

ـ لقد نسيت السكر.

ـ لاتوجد سكين، ياجولز.

ركض الفتى جيئةً وذهاباً بهيئة شاردة مثل كلب أخذوه للتسوق. «لو أستطيع تذكر الأشياء فجسب. حتى الوجوه».

وجوه. وجوه. استوى كوندر جالساً بحركة عصبية منتفضة. لقد نسيت أني متعب. أنا لست نفسي. تلاشى وجه ميللي المرتبك والمحمّر فجأة (بعد ثلاثة كؤوس من الشيري) والمبتهج فجأة (لدى مراقبته يكتب في دفتر ملاحظاته). ورأى بدلاً عنه، خلفها، بنيت الذي يراقبه من طاولة قرب الباب. ما الذي كان عليّ أن أفعله؟ سأل جولز. «لقد لحق بي. لابد أنه يلحق بي. المصادفة. مساء البارحة، عندما كنت أكلّم صديقاً، ومرة أخرى الليلة ما قبل البارحة، بعد الإجتماع. إنه يتبعني. لم أسبب له أي أذى». «يجب أن تكون مثلي»، قال جولز، «أنا أنسى الوجوه. تعرف، حتى كاي ـ ليس واضحاً لي كيف تبدو. أمي ـ أتذكر نوعاً من تأثير ثياب قطنية؟ كان لها نهدان كبيران. أبي ـ شارب، شارب كبير. كان يبدو كبيراً جداً آنئذ. هذا كل ما أتذكره».

قال كوندر: «إني خائف. لا أعرف ماذا أفعل. أظنّه في الشارع الآن، يراقبني. ما سببت له أي أذى. لكنه قد يعتقد أني فعلت، ترى. نشرت تلك الخبرية عن النزاع وهناك شيء آخر أيضاً».

ـ هل يعرفك؟

ـ «زرته مرة. كنت أجمع تبرعات للحزب. ربما له نظرة في الوجوه. مثلي. لي نظرة في الوجوه. كانت مثل صور أشخاص في معرض صور خاص، معلقة هناك في خلفية عقله دائماً: ساسة، شرطة، لصوص، الرجل الذي أغرق زوجته في شورهام، متورداً أنيقاً في الميناء مع دبوس ربطة عنق على شكل رأس حصان، أرملة البقال الذي ربح جائزة دْربي والذي بعد سكرة شديدة قاد سيارته إلى التايمز، أرملة مالكة لعشرين ألف جنيه، قالت: «لقدكنت محظوظة دائماً في هذه الأمور، اليانصيب، أعني، وما شابهها»: ميلي دروفر. لايستطيع أن يحتفظ بها في مركز اهتمامه، يجب أن يبعد صورتها إلى المعرض الذي قلّما زاره أحد ـ ربما سيذكره تشابه رداء أو عطر بعد بضعة سنوات بها (امرأة صغيرة جميلة)». كانت له ذاكرة مدهشة للوجوه، وللعبارات وللقصص من النوع المثير. لكنه الآن، في اللحظة الراهنة، لأنه كان تعباً، كانت ذاكرته خليطاً من صور، وتنافراً من أصوات. يجب أن استجمع نفسي، صب قهوة سوداء بدون سكر ولاحليب.

قال جولز: «ذاكرتي، حتى أني نسيت تلك الرسالة. لم أكن أفكر في شيء سوى في ذلك المسكين، دروفر».

ـ «هل عليّ أن أذهب إليه»، تساءل كوندر، «واشرح له؟»

ـ «غريب. كانت من فرنسا. لاأعرف أحداً في فرنسا إلا أبي. وهذه كانت مطبوعة بالآلة الكاتبة. لم يكن لدى أبي المال أبداً لشراء آلة وضعتها للحظة ثم جئت أنت، وكان هناك الإجتماع، وطوال يوم أمس كان هناك هذا أو ذاك. سأفتحها عندما أصعد».

ـ «تعال معي»، قال كوندر. «لن يعمل مشكلة إذا كنا اثنين. لاأقدر على تحمل هذه المراقبة والتجسس طول الوقت. أريد أن أسوي الأمور معه ــ آه، ياللجحيم، جولز، لم تعطني ملعقة».

«لماذا تريد ملعقة؟» قال جولز «استخدم أصابعك. اسمع. عليّ أن أذهب إلى القداس، ثم أريد أن أرى الكاهن بشأن هذه العريضة. ألا تظن أنه افضل إذا وقعها كاهن؟ يجب أن أفعل شيئاً ما. أعرف كيف سيكون الأمر. سيملّون جميعاً ويدعونه وحده».

ـ لقد عملت ما أستطيع. لدي أمر آخر أفكر به الآن.

ـ ترى، أخت كاي في القضية يجب أن أفعل شيئاً.

«قبل أن تنساه مثل ملعقتي»، قال كوندر، «أو تلك الرسالة».

ـ لا، لا، هما مختلفان. لن يفعل أحدكم لدروفر أكثر مني، أحس ذلك.

ـ «علبة حلوى»، قال رجل عند النضد، «لقد وقفت هنا طويلاً وأنت تتكلم. أريد علبة حلوى. سأكسر شيئاً ما، إذا لم أحصل على علبة».

ـ «حسن، حسن»، قال جولز.

شرب كوندر قهوته وخرج. كان الشارع يغصّ بالكلاب والنساء وقشور البصل. كانت أجراس إحدى كنائس سوهو تقرع. استدارت طائرة في أعالي السمّاء الزرقاء الشاحبة وتلوّت، مخلّفة ذيلاً من دخان علّق لبعض الوقت ثم تلاشى. كان كما لو أن الطيّار قد بدأ إعلاناً ثم تذكّر أنّه يوم أحد. وقف رجال في مداخل بيوتهم وقرأوا جريدة «أخبار العالم» وبصقوا، كانوا يقرأون الصنداي إكسبرس في شارع وار دور وجادة شافتسبوري. اشترى كوندر عدداً من الأوبزرفر من شارع السيركس الخالي تقريباً، وقرأ وهو جالس في القسم العلوي لباص، تحذير المحرر لأوروبا. «الحرب؟» عنوان ممتد على صفحة كاملة. كتب ناقد أدبي: «لست في العادة ممن يكتشفون أعمالاً خالدة، لكن...»

«مدينة كامدن»، قال كوندر سيطير السيد ماكدونالد عائداً من لوسيماوث، ستنعقد عدة مؤتمرات دولية في مدن ملائمة في جنوب أوروبا، منعت المعونة عن بضعة آلاف من الرجال.

لن أكون ملاحقاً، فكر كوندر. لن أعامل مثلما عامل هو ذاك الخازن. شيء سيء لأعصابي. كانت أعصابه في حالة مروعة فعلاً. فمنذ أنطق جمجمة الدب الخشبي في مدخل السيدة كوني فقد زمام السيطرة على

الحاضر والماضي. كان قد قدّم لميلي متردداً وصفاً دقيقاً عن الأولاد والحمّام والبيت الجديد، هرب منه العالم المألوف كله وبعث على نحو بهلواني فوق شلالات شافتهاوزن ليتحول إلى رذاذ على النوافذ الملونة لبيت صيفي. تمسك بذكرى، لكنها ابتعدت عنه، حتى دبوس ربطة العنق على شكل رأس حصان انطلق مسرعاً على المنحدرات. تعال معي، قال لـ جولز، لكن جولز تلاشى.

صار وجه ميلي غير واضح واختفى. هو الذي تباهى بذاكرة للوجوه الجدارية. كان اليأس والخجل والدموع هي ما تذكره بوضوح ليس إلا. كان عليه أن يذكر نفسه أن تلك الصور من الماضي. أحتاج إلى إجازة، قال في سرّه هذه مسألة جدية. حتى خطر له بجلاء تام للحظة أنه كان كثير الإبداع، كان عليه أن يضع حداً بين ما كان حقيقياً: بنيت يلاحقه، بنيت يهدّده وما كان وهماً: الطفل ذو السعال الديكي، والحمّام، والماضي مرة أخرى.

«سيد بنيت؟» قال للرجل في الطابق الأراضي. «أريد أن أقابله، هل هو في الداخل؟» نبحت كلاب وعضّ كل منها الآخر في محل بيع حيوانات في الطرف الآخر من الطريق، وكان ممكناً سماع الأسود تزأر في حديقة ريجنت ليقدموا لها طعامها، بسبب توقف حركة السير تقريباً.

- «ليس من أحدٍ يدعى بنيت هنا»، قال الرجل. استند على باب المدخل ودخن سيجارة «كلاب صغيرة لطيفة»، قال، كان له شكل الرجل الذي يبيع كلاباً في الشوارع الخلفية، بطوله وحجمه وخشونته، في تهديد أنفه المكسور.

قال كوندر: «أعرف أنه يقطن هنا، في الطابق العلوي»، لكنه كان قد شرع يشك بذاكرته.

اخلع قبعتك، قال الرجل. اخلع قبعتك، كرّر بقسوة شديدة، إلى حد أن كوندر أطاعه رافعاً قبعته بأدب أمام نظرة الآخر المجدوع.

«أصلع»، قال الرجل، «أصلع. لقد خمنت أنه أنت. هيا إلى الأعلى».

قال كوندر: «أردت أن أعتذر له. في حال ظن...» أطرق إلى الشارع القذر. مرّ باص جانبهما، وفي نافذة عليا عبر الطريق لاح رجل يحلق. كان هذا حقيقياً وهو ما ينبغي أن يحتفظ به. هيا إلى الأعلى، كرّر الرجل، وأطاعه كوندر، أطاعه لأنه ذو صوت عال وأسلوب واثق تماماً، مثلما أطاع الأمريكي الأكبر سناً تفوح منه رائحة ماءً الكولونيا الذي أكدّ له أن شلالات شامنهاوزن شيء ما يجب على الرجل المثقف ألا تفوته زيارتها أبداً. وبالتالي هذا الصعود على الدرج المعتم مع الخوف يجري أمعاءه، وبالتالي القيادة الطويلة في البرد وكأس شاي باهظ الثمن ومنديل جيب والفتاة تسخر منه بينما الشلالات الوردية والخضراء تسقط جانبه.

ـ فقط، أردت أن أقول...

ـ «انظر الآن، انظر الآن، فحسب»، قال الرجل وفتح الباب.

ـ إلى مَ؟ سأله كوندر. «ليس ثمة شيء». ترمدت النّار في الموقد، طاولة، كرسي، فراش ، لكن لاشيء آخر، لاصورة على الجدران حتى.

ـ «لاشيء»، قال الرجل، «لقد رحل، أخلاها، ولماذا؟ ترك لي الغرفة لأؤجرها، لم يدفع الأجر، أخلاها، فرّ خائفاً، أطلق النار على القمر. ألديك اسم أفضل لهذا، ولماذا؟» تقدم الرجل من كوندر وتراجع هذا الأخير، «ولماذا؟ لأن جرذاً خسيساً صغيراً رثّاً لايستطيع إلا أن يتدخل في شؤون الغير كان يلاحقه. لم تستطع أعصابه تحمّل ذلك».

رقّ أسلوب الرجل الضخم.«كن منطقياً. ليس بك حاجة لعمل الكثير لتصبح في حالة هستيرية. وكيف كنت ستحب أن تكون ملاحقاً أنى ذهبت بجرذ خسيس صغير رث أصلع الرأس؟ قلت له: (تحمل حتى النهاية، الرجل لايعرف أي شيء، إنه يحاول فحسب) ووعد أنه سيفعل. لكنني عندما عدت مساء البارحة، هذا ما وجدت. أخلى المنزل، فرّ، كن منطقياً»، كرر الرجل الضخم: «لقد أخذ صوري حتى».

«لكني»، قال كوندر، وقام بحركة لدفع الغريب براحة يده، «لكنني ظننته يلاحقني». حدّق إليه الآخر ثم أخذ يضحك.

كان الصوت في الشارع الهادىء القديم كافيا ليوقظ الكلاب المسجونة، التي بدأت ثانية تزمجر وتنبح خلف المصاريع الخفيضة لسلام الأحد.

بلع كوندر ريقه ورفع يده نحو رأسه الأصلع بإيماءة اعتيادية. كانت هزلية، طبعاً كانت هزلية. لكنّه عاد و وقع على جزيرة إحدى اللحظات من الماضي، أقام في قمرة فوق الشلالات المضطربة، تملكه الانطباع عن كل الصلات الإنسانية تنطلق منه ضاحكة، خائفة، أو ببساطة (وفكر بميلي لآخر مرة تقريباً) في عجلة عمل آخر.

❄ ❄ ❄

صلى جولز. فيما نهض الكاهن البدين فوق المنبر، وذوى المصلّون في مواقف من الخشوع والعبادة والغفلة. صلّى ووجهه بين يديه لجيم دروفر. وإذ تفجرت عاطفته بين أصابعه أحس بالرضا لأنه عمل كل ما باستطاعته لشخص لم يره أبداً ـ كان مستعداً لتضحيات لاتصدّق، شاعراً بقرابة للمسيح الجصّي البسيط.

خاطب الكاهن المصلين بالفرنسية في موضوع الخطيئة، كلمة الخطيئة، الخطيئة. الخطيئة، دعمت موعظته مثل مسامير نحاسية كثيرة تدق في نعش خشبي، طوى أصحاب مطاعم سوهو أيديهم وترجموا التعبير إلى (نساء، نساء، نساء) (بغايا، بغايا، بغايا).

فكر جولز بكاي وهو يصلّي لأجل جيم دروفر. وصل بين حياتها وحياته (وعاء تسخين الشاي و النضد والسجائر) حياتها من الثامنة إلى الخامسة تعنى بآلة، في عدم رضا متبادل، أراد أن يحرّرها ويحرّر دروفر. ودائماً في الكنيسة ذات الإضاءة السيئة، محاطاً، بالتماثيل البشعة لإيمان غير متسامح، منصتاً إلى يقينية ذاك الإعلان ـ خطيئة، خطيئة، خطيئة ـ منح الثقة والكبرياء الكبيرة والهدف. مهما كان ضائعاً في المقهى، ناسياً، السكاكين والسكر، كان هنا يشعر أنّه في بيته.

عندما رفعت التقدمة، تذكر جولز، في كهف يديه، الرسالة التي تركها مغلقة. هنا في وسط فرنس الوحيدة التي عرفها، الراهبات لا العاهرات

وأصحاب المطاعم والتماثيل، امتلأ بحب يجب الإطلاع على هذه الرسالة من فرنسا الحقيقية، في المقهى، أمس، لم يكن مهتماً، كان ذهنه مستغرقاً بالحاجة إلى تذكر الأشياء، لكنّه في الكنيسة، وبينما كان النبيذ يصير دماً، كانت أكثر الأمور غرابة تبدو ممكنة، تفيض العاطفة والرغبة بالتضحية والرغبة في الحب والرغبة في الحنان بسهولة. كان كما لو أن غريباً أعجبه طويلاً من بعد، جاء وسأله عن الوقت. كان المغلف ذو العنوان المطبوع مطمئناً ـ لم تكن بلاده مزعجة برقتها ـ لم يمد أحدهم يده إليه لتوقيع استرحام. سينتهي القداس خلال عشرين دقيقة، سأرجع وأفتح الرسالة. ومع ذلك قال في سره، سأرى الكاهن بشأن عريضة الاسترحام.

يارب، إنا لانستحقك... يارب إنا لانستحقك... يارب إنا لانستحقك.

فكر بأمه، كيف ضربته لما أسمته أساليب فرنسية: لغاراته المفاجئة على مكان حفظ الأطعمة، لفسقه بين السلطانات. طبعت عليه أنه كان انكليزياً ذلك الوقت، والانكليزيون ماسرقوا وكانوا جديين، يحصون مالهم ليلاً ويكسبون المال بالعمل الشاق ليس إلا. كانت تخسر شلنين بانتظام على فرس في سباق الخيول، وبانتظام تقسره على التفكير أن الانكليز لايقامرون. كانت تقول له بانتظام أن الانكليز لايشربون، وبانتظام، مرة في الشهر، كان يسمع عبر الجدار الرقيق الفواق في الغرفة المجاورة. بانتظام كانت تقول له أن الإنكليز لايفكرون بالجنس أبداً، وبانتظام سمع بين الفواق التأوهات، لأجل الرجل في فرنسا، الزوج الذي افترض جولز إنه مارس كلّ مافكر به الانكليز أنه ممنوع: قامر وسكر وضحك ونظر إلى النساء ولم يعد المال الذي لم يعمل للحصول عليه. كان ليرغب بمعرفة أبيه، لكنه لم تصله كلمة من تلك البلاد الفردوسية، حتى عندما توفيت أمه.

وهكذا انتهى الأمر.

عندما انتهى القداس، ذهب جولز إلى غرفة الإجتماعات ليقابل الكاهن، لكنه وجد نفسه محاطاً بـ فرسان كولومبا، رجال هرمون، أشداء، بسراويل تصل إلى صدرياتهم، كانوا يتكلمون عن مبيعاتهم النثرية، لعب

الورق، محاضرات التنوير. سألحق به فكر جولز بعد التبريكات. مشى سريعاً إلى البيت، وصعد إلى غرفته، وفتح الرسالة.

أخفق بفهمها لبعض الوقت. لم يميز أباه سيء السمعة المتخفي تحت اسم هيسان بريتاو، لأن أمه كانت قد غيرت اسمها فوراً لـ برايتون. وما كان منطقياً أن يكون أبوه هو الميت، بعد الطقوس المحترمة، دون ألم، مدفوناً في المقبرة الكاثوليكية في بوتي تورفيل، (فجع به أصدقاؤه من أبناء البلدة وزملاؤه أعضاء المجلس البلدي). خاب جولز قليلاً، بدت ناقصة بالمقارنة مع ما فكر به إلى وقت قريب جداً، إنه يسكر ويقامر ويمارس الجنس. مؤكد أنه كان يعد نقوده ـ حكى محاميه برسمية باردة، كم كان أبوه محترماً، كيف لم يساهم تاجر محلي أكثر منه خلال حياته بالأعمال الخيرية، كيف أنه كان سيصبح عمدة البلدة في السنة القادمة. لم تنقل له العبارات المجللة بالسواد صوراً عن الحياة في بلدة صغيرة، عن قداس الأحد، عن السياسة المحلية. هذا الرجل المحترم الذي كاد يصبح (عمدتنا المحترم)، قام بمحاولة أخيرة ليطوف حول برج إيفل، دافعاً نقود نابليون النحاسية في آلات السجائر راسماً إشارة الصليب أمام تماثيل مقدسة في مغاور زُيْنَت بقوقعات المحار، رانياً إلى النساء، قارصاً مؤخراتهن عندما يمرّ بهن، ليس دون كفاح اندس في جحرة ذي الستة أقدام فيما قدمت كتيبة إطفاء السلاح ومجلس المدينة وضع أكليلاً. هل استطاعت روحه أن تحجم عن الضحك لفكرة فواق وتأوهات زوجته المهجورة؟

«إرث بوصية عشرة آلاف وخمسمائة فرنك لابني جولز، واثقاً أنه سيستثمر هذا المبلغ في سندات حكومية مضمونة ولن يضيع أيّاً منها على ألعاب الحظ أو القمار أو المتع الحسية. تقسم بقية ممتلكاتي بالتساوي بين رئيس غرفة التجارة للمعوزين في بنيت تورفيل وقس كنيسة نوتردام في بنيت تورفيل أيضاً، وتستخدم الفائدة أخيراً لزيادة الدخل السنوي لجمعية المذبح».

عشرة آلاف وخمسمائة فرنك: كانت تساوي ما يقارب مائة وخمسين جنيهاً. «ياإلهي»، صاح جولز عالياً: بدأ يضحك، وهرج إلى الطابق

السفلي. لم يكن ثمة أحد في المقهى. يجب أن أحتفل، نادى تحت في المطبخ: مات أبي، وركض إلى الشارع. مات أبي، يحيا أبي. ركض عائداً إلى المقهى، ونادى إلى الأعلى على كوندر، لكن كوندر كان خارجاً. كاي، فكر، هناك كاي، ستحبني اليوم، لاأحد يمكنه ألا يحبني اليوم. أنا غني. لدي عشرة آلاف فرنك. أنا سعيد، كيف أجدها؟ سنحتفل، سنتزوج سأستأجر سيارة، سنستقلها إلى الريف، سنتناول غداء، شاياً، عشاءً معاً، سنحب بعضنا بعضاً، أنا سعيد للغاية. يجب ألا تذهب للعمل غداً. أنا سعيد جداً. كيف أستطيع أن أجدها؟ مات أبي، يحيا أبي.

حمل الرسالة معه في جولته، عرضها على الجميع ـ شعر أنّه قد حصل على كل شيء أراده في العالم. كانوا جميعهم لطفاء معه وضحكوا معه، أجل، قالوا في المرآب، يمكنك الحصول على سيارة ليوم كامل، لليلة كاملة إذا أردت قالوا إنه اليوم المناسب لنزهة في الريف، سيكون لغابات الزان، هناك، جانب بيكونسفيلد، ألوانها الخريفية، والخلنج سيكون قد ظهر في غابة أشداون. نعم، قالوا في الغرف في شارع وين، يمكنك الحصول عليها غداً إذا شئت، إنه الوقت المناسب من السنة للزواج، وقالوا: طفل الصيف معافى وحكيم. أجل، قالوا في بريسبتري، إذا كانت لديه رخصة فلن تكون هناك أية صعوبة. نعم، قالوا في المقهى، سيقدمون له إفطار عرس في الغرفة الخاصة. بدا له أنه كان وحيداً جداً لكنه الآن لن يكون وحيداً أبداً ثانية.

هي ذي كاي تفتر عن شفتين مشرقتين خارج محطة ساحة ليستر، وعندئذ حلت عقبته الوحيدة لتتويج اليوم الرائع. لم يستطع أن يصدق عينيه ـ كان الأمر كما لو أنه يدحرج حياته بجهد شديد إلى الأعلى، إلى أعلى تل شديد الانحدار، والآن علت القمة وتتدحرج أمامه بسرعة تتعاظم، فكان عليه أن يعدو ليبقى خلفها، يالهذه الحياة الفرحة المحظوظة. مات أبي، يحيا أبي، كانت تنتظر شخصاً ما، قالت، لكنه لم يأت. لقد انتظرت نصف ساعة. كانت تعبة من الانتظار. معي مائة وخمسين جنيهاً. سنأخذ سيارة ونذهب إلى الريف. كان قد دبر كل شيء ــ لقد عرف، بطريقة ما، أنه سيجدها.

ـ لكن عليّ أن أنتظر ـ خمس دقائق أخرى.

ـ «اسمعي. أين سنذهب، جنوباً، شرقاً، غرباً، شمالاً؟» تحرك قلقاً على حافة الرصيف، حدّق إليه الناس، ودفعوه جانباً فيما تزاحموا للحاق بباصاتهم كان تائقاً للخروج من لندن إلى مكان ما هادىء، بعيداً عن زحمة المواصلات، حيث يمكنه أن يخبرها بكل شيء خططه.

ـ أنت مجنون، ياجولز.

ـ سنذهب شمالاً. بهذه الطريقة سنخرج من لندن بسرعة أكبر. بلدة كامدن، غولدرز غرين، هيندن، وهذي أنت. عند ذلك سنكون قريبين من بيرك هامستد وحديقة آشريدج وإيفانهو.

كان قد ذهب إلى هناك منذ سنتين في عربة جانبية على درّاجة نارية في رحلة تجريبية. كان الوقت شتاء عليق أحمر في السياجات، وصقيع رقيق يتلألأ على المنحدرات، وفي المنتزه، تكسّرت الحشائش تحت الأقدام محدثة صوتاً.

ـ جولز، لكن علي أن أعود باكراً تماماً. العمل في الثامنة غداً».

كاد يقول لها آنذاك: لن تذهبي إلى العمل أبداً مرة أخرى. ستتزوجين مني، لدي الغرفة ، وطلبت الإفطار، ولديّ كل شيء إلا شراء الرخصة. شيء ما كبحه: حذر بسيط موروث ينتمي إلى فرنسا إلى بنيت تورفيل ـ (سندات حكومية ـ لايقنع أي شيء منه على ألعاب الحظ.. المتع الحسية). فكر أنه كان سينتظر حتى حلول الليل، كان ثمة أشياء يعبر عنها أفضل في الظلام، حيث (جولز، أنت مجنون) قد تبدو دعابة و(إني راغب بك جداً) هوى وشعراً.

لم يرث نصيباً كبيراً من الحذر، كانت قيادته طائشة. لم يستطع أن يحافظ على النظر إلى الطريق وكاي جانبه. لن أكون وحيداً ثانية أبداً، فكر مراراً ومراراً ثانية. في بلدة كامدن، رأى كوندر يمشي بسرعة أول الرصيف نحو مصنع كاريراس مطاطىء الرأس وقبعته في يده، صرخ إليه ولوّح بيده، لكن كوندر لم يره حانة (جاك سترو كاسل). كانت الكلاب تعوي حول

زوارق اللعب في بحيرة وايتسون، ورجل كبير استمر يقول أنه يمكنه رؤية القديس بولص ولم يصغِ إليه أحد.

ـ لكن أين نحن ذاهبان، ياجولز؟

ـ سترين.

نازلاً إلى غولدرز غرين وخارجاً إلى هيندن، تجاوزت السرعة السبعين ميلاً في الساعة على الطريق ذات المنعطفات الشديدة منحدرين إلى المنزل الريفي قرب هنتنبريدج. تناولا الغداء هناك، وكاد يقول لها كل شيء مرة أخرى. لكن النادل جلب الجبنة، والنادل جلب القهوة، وبطريقة ما لم يتوفر له وقت ليخبرها أنهما سيتزوجان ويعيشان في شارع دين ويتناولان إفطار عرس في الغرفة الخاصة في المقهى.

كانت نعسانة بعد الغداء فتقوقعت جانبه، وساق بذراع والأخرى تلفها. خطر له، وهو يقود ببطء الآن، ويراقب الأسيجة والأبقار (رسا مركب إلى الضفة قرب بوكسمور، وحصان عجوز تناول غذاءه)، أنه لم يحس بطعم السعادة هذا قبل أبداً. فكر بأبيه بتحنان، الذي وهبه كاي النائمة إلى جانبه وهذه النزهة الخريفية بالسيارة، والسنة العجوز تموت والحصان العجوز ينحني والأوراق الذابلة تسّاقطُ على الأرض تالفة. ارتفع دخان أزرق في أحد الحقول من محرقة أخشاب، كانت قد أشعلت البارحة ومازال تحترق بلطف في الهواء الجاف النقي. تجاوزتهما السيارات باستمرار، لكن متعة السرعة فارقته، تمهل على الطريق وترك المنطلقين بقوة وسرعة وهدف يختفون خلف المنعطف ـ لم يكن لديه هدف سوى الاحتفاظ بهذا السلام، سوى الاحتفاظ بهذا السلام بلطف مثل مزهرية ثمينة حتى المساء. ما خرج من لندن منذ نزهته إلى إيفانهو قبل سنتين، يتقلقل في عربة جانبية، تتفجر والصمت يتحطم بقرقعات العادم.

انطلق أصحاب الهدف في الشارع الرئيسي في بيرك هامستد متجاوزيه لأجل ترينغ والعشاء، بينما استدار جولز في بداية الشارع حول الكنيسة، فوق القناة، وتحت جسر السكة الحديدية، بمحاذاة الخندق وجدران القلعة

المتصدِّعة. وإذ تسلقا الطريق فوق البلدة، لفّ المساء الأرض المشاع ونباتات الجولق والطين الذي خدّدَته السواقي القديمة والأرومات المقطوعة، وغطى سراخس منحدر التل بالظل. نامت كاي وتحركت، ونامت ثانية، ثم استيقظت وقالت: الجو بارد.

كان جولز صامتاً، يقود بيد واحدة. تأوهت امرأة وشربت وتأوهت، كانت الأرض جافة وأُنزِل نعش وقدمت كتيبة المطافىء السلاح. جاءت السعادة من هذين المشهدين. وجاءت شمس هذا الأصيل بالذات تلتهب عبر المبرّد، وجاء هذا الإحساس أنّه لن يكون وحيداً أبداً ثانية.

كانت خارج مكانها في المنتزه لذيذة، مالّة قليلاً وحيرى قليلاً وتتزين تحت إحدى الأشجار. كان الظلام أشد من أن ترى نفسها. حدقت إلى مرآتها وأغلقت علبة المكياج المحكمة. «جولز، اسمع، يجب أن تكون منطقياً»، أخذ يسخر منها، صار العشب رمادياً وصاح عصفور بشدة، «لِمَ التحدث عن المنطق؟ أنت لاتريدين أن تكوني منطقية».

ـ «ذلك صحيح»، قالت متأملة. نظرت إليه باهتمام أكثر مما أظهرته غالباً لرجل. كان الرجال الذين صاحبتهم عادة لديهم مال ولايعملون أو كان عملهم شيئاً لم تستطع فهمه لأنه ذو أجر عال، أما جولز فكان مثلها في هذا، له معلِّم، يذهب إلى العمل باكراً ولساعات طويلة، قال السيد سوروغيت لها: (لاتدعينا نكون منطقيين)، لكنه لم يقصد ما قصده جولز. قصد: (نامي معي الآن ولاتزعجيني لاحقاً)، سحبها خارج أمنها بينما بقي هو نفسه بأمان تام في شقته الدافئة المضاءة. وقد امتعضت فوق كل شيء حتى وهي تستلقي معه، لأنه ليس مضطراً للذهاب إلى العمل صباحاً، لكن جولز مضطر، وليس أكثر استقلالاً منها.

«حسن»، قالت، «لن نكون منطقيين».

صفق بيديه وقال: لن نعود الليلة، كما لو أن الفكرة خطرت له فجأةً، لم يدعها تعرف ذلك، فبينما كانتِ تغتسل في الكوخ حيث شربا الشاي، استأجر غرفة لليلة، وقد أسعده أنها لم تعترض، احتجت أنها يجب أن

تكون في عملها باكراً جداً، «سأسوق بك إلى هناك»، ردّ ثانية. أمكنه أن يخبرها: ستتزوجين مني، لن تعودي إلى العمل، لكن حكمة التاجر العجوز المغلفة بالسواد كبحته.

هل ستحبينني؟ ضغط كل منهما الآخر، شكيا وضحكا ورويا قصصاً بذئية وكانا سعيدين. حفت الأوراق على الأرض، وومض ذنب أرنب كعود كبريت تحت كومة السرخس واختفى. عندما التقطا نفسيهما، بدا لهما كلاهما أنهما ما سمعا هدوءاً بهذا العمق أبداً. فكرا بلندن في الليل وكيف تهز الشاحنات الثقيلة الجدران. «هدوء تام» قالت، لكنها كانت قد أخذت تفكر: هذا جدي. أردته أن يفعل هذا لي بعد الاجتماع. لم أرغب بفتى مثلي هكذا قبل. ياإلهي، أنا مجنونة. يجب أن أكون حذرة، وإلا سيقع حادث.

«ليس هادئاً في الواقع»، قال مبعداً ساعده عنها، سامعاً نباح الكلاب في القرية والحفيف بين أوراق الشجر، وسقوط التربة الهادىء كلما مرّ حيوان، وهيجان الحشرات لكن المرء يدعو مثل هذا هدوءاً، مثلما يدعو الظلام سواداً - إنه الموقف الأقرب إلى الصمت. حتى عندما تكون الحشرات ساكنة فثمة دقات قلب المرء ذاته. لقد نسيها تماماً وهو يفكر: حتى عندما كنت أكثر وحدة كان لدي أشياء أخرى أصغي إليها دائماً غير قلبي، مالاحظته يخفق قط.

انزلقت إلى الأسفل أكثر مستندة إلى جذع الشجرة، وقالت: «كم الجو حار». لم يمض من الوقت ساعتان منذ قالت: «كم الجو بارد». لكنها كانت الآن راكعة في حمى الأغصان والأوراق اليابسة المنكسرة تحفظ الدفء قريباً من الأرض مثلما تحمي أيد لوّحها التراب شعلة. مصّت ظاهر يدها التي خدشتها سويقة، وترك أحمر شفتيها آثاره على البشرة، وراقبت جولز بجوع ما سمحت لنفسها أن تشعر به قبل أبداً. كان قد شرد ثانية، مطرقاً إلى أجمة السرخس بين أشجار الزان. ولم تنبس بكلمة تساعده أن يجد نفسه. كانت راغبة أن يكون شارداً لوقت طويل وقد اتسعت عيناه قليلاً واضطرب تنفسه ولامست يده يديها بلاحس كيد غريب في مترو مزدحم. استطاعت أن تشعر نفسها لبضع دقائق متروكة معه وإلحاحات ميلي عليها منسية.

ومع ذلك كانت أفكار جولز عملية عندما عادت إليه. ضحك فجأةً، ووضع يديه على كتفيها، وأكرهها على النزول أكثر في أجمة السرخس. ثقبت السويقات جاربيها، وبينما كانت تقاومه شعرت بالتراب في أظفارها. «جولز، لاتكن أحمق». كان على ركبتيه أيضاً، يجبرها على الاستلقاء ويضحك في الوقت نفسه. لم يكن قوياً لكنه كان رشيقاً ومرناً.

عض شحمة أذنيها ودفعها ورأسه بين نهديها. تذكرت أحمر الشفاه في يدها فلطخت وجهه من الأنف إلى الذقن وشرعت تضحك أيضاً ـ شمت السرخس والتراب وعطر كوتي ناتوريل وعسلوج الخلنج في زهرته خلفها. «توقف» قالت، «انتظر قليلاً. دعنا نذهب إلى الداخل».

رجع عنها وجلس القرفصاء. «هذا وعد».

ـ لم لاتستطيع الانتظار حتى الليل؟

كشر وأومأ إيماءة سوقية بإبهامه. «مستعد للمزيد الليلة». بدأ يصفر، وحاول أن يقوم بقلبة هوائية، لكنه وضع يده على نبتة شوكية وأطلق شتيمة. كان معجباً بنفسه، وواثقاً أكثر مما ينبغي. لقد نال فتاته. قال: «هل قابلت كوندر؟ أحمد الله لن أكون مثله أبداً. لا، لا أقبل أن أكون وحيداً مثله مقابل أي شيء. أريد صحبة ـ دائماً. سأكون خائفاً، وحيداً مثله. ستتهيأ لي أوهام». تباهى لها بأمل يدعو للسخرية. «لست كاثوليكية بالمناسبة، أليس كذلك؟» أسهل إذن، إجراءات الزواج القانونية، السد في مواجهة الوحدة أكثر حسماً، سد منيع حتى الموت، وإلا فسد البحر.

لا، قالت، لم؟ مدت ساقيها بأسى، متأملة: لماذا لا ألعب معه؟ سيكون منعشاً مثل هذه في الخلاء. ماهي بضعة عناكب لجائع؟ لِمَ؟ هل تريد أن تتزوجني؟»

تحرر من خجله سريعاً ووقف على قدميه: «كنت أتساءل فحسب، هذا كل ما في الأمر»، ألعاب الحظ، متع الأحاسيس... لكن الأمر سخيف. هو أرادها، ليس فقط في هذه اللحظة، بل إلى الأبد، فلم يكبحه شبح متلفع بالسواد ومحام وأصوات بعيدة من بنيت تورفيل؟ سندات حكومية. أربعة جنيهات فائدة سنوية. اسمعي قال.

ـ «لست واثقة أنني لن أقبل الزواج منك»، قالت كاي. «لقد سئمت السادة يجعلون المرء ينتظر نصف ساعة ثم لايأتون. لقد كان مغرماً بي كفاية ليلة البارحة، يمكنني أن أؤكد ذلك». وجدت أحاسيسها المخيبة بعض الراحة في فكرة اللحاف الوردي، والمرأة الجميلة الميتة تحسد متعتها من الجدار. أصغى جولز بإعجاب. كانت لقية، مؤكد حتى ذلك الفاسق المخيب للآمال، أبوه كان سيقر أنها لقية، كانت فتية وجميلة وذات خبرة، لم يستطع أن يتخيل زوجة يمكنها أن تثير أحاسيسه أكثر منها. لم يشعر بمراراة لأنه ليس الرجل الأول الذي عرفته، لايستطيع المرء أن يأمل ذلك إذا كانت الأجور متدنية جداً، والتوظيف متقلقل كثيراً وكل ما يجعل الحياة تستأهل العيش: السينما وقاعة الرقص والبودرة والعطر وأحمر الشفاه والجوارب غالية للغاية.

حثّها على المتابعة، أحبّ سماعها تتكلّم عن الزواج دون أن تدرك كم هو قريب منها، وكم هو في متناول اليد. «أنت لاترغبين بالزواج»، ضحك ورفس كومة نمل وأحس بحرية غريبة في الهواء الكئيب. سقطت ورقة في مهب الريح ولمست خده. وجد نفسه في حضرة شيء ما عجوز يموت وكان سعيداً.

ـ قد أجرّب ذلك، قالت.

ـ لديك كثرة من الأصدقاء.

ـ «لن أتخلى عنهم. سيلتزم زوجي الأصول ويهز الأيدي. سينال وطره ليلاً». كان الجواب الذي نشده ـ لم يك يرغب بأية وحدانية حميمية في الحب ـ أحبّ الصخب، والوجوه الجديدة والحفلات في الساوث اند.

ـ «تعرف على بيل. هذا هو غيرن. غريب أنك لاتعرف...» كان الزواج هو الطريق المتعرج والسباق الكبير وحفلات الشاي والكركند والضمانة أن المرء لن يكون وحيداً أبداً. كان ليرحب بأبويها لو كان لها أي منهما، لكنهما كلاهما توفيا. لن يكون الطرف الذي يقول: «ألا نستطيع أن نكون وحدنا معاً؟» أبداً. حتى أنه كان قد اشترى صحبة كوندر بقطع النقود المعدنية الأجنبية التي التقطتها من أرضية المقهى.

ـ لن تكتفي برجل واحد أبداً.

ـ هذا يتوقف على الرجل.

كانت الوحدة هي الشيء الوحيد السهل المنال للغاية، إنها في الهواء الذي يتنشقه المرء، افتح أي باب فسينفتح على الوحدة في الممر، اغلق الباب ليلاً، يغلق المرء على الوحدة في الداخل، فرشاة الأسنان والكرسي والكوز والسرير كلها نتوءات في الوحدة.

على المرء أن يتوقف ويحدق ويصغي ليصبح ضائعاً. ثم أمسك به الأسى لكل المعاناة العقيمة التي لايستطيع أن يفعل أي شيء لتخفيفها، فقد مزقه الذل وكان شديد الحاجة لشغل مكان في العالم، وأداء مهمة وقيام بواجب. إنما أعطه أصواتاً، رفقة، وسيكون سعيداً، وواثقاً بنفسه أكثر مما ينبغي وسوقياً ومتباهياً.

ـ سترين ما أستطيع عمله.

يجب أن أكون حذرة، قالت في سرها مرة تلو الأخرى. هكذا تحبل الفتاة، عندما ينالها فاسق مثل هذا، عندما لاتأخذ احتياطات، عندما لاتريد أن تأخذ احتياطات، عندما تكون عاشقة.

كانا عند بوابات المنتزه. لاقمر هناك، وقد لفهما الظلام، لكن أضواء السيارة صنعت وهجاً لطيفاً في الطريق، تكاد تصدق أنه كان ناراً تدفىء بها يديك. «هيا»، قال جولز، وأخذ يدها وركض نحو السيارة. «أنا مستعجل»، قال وهو يقحمها إلى مقعدها متسلقاً مقعده دون أن يفتح الباب، مشعلاً المحرك أنشد دفءٌ بينهما إذ ضغط بقدمه أسفل وحاولت هي أن تهدىء اهتياجها بأن تخبر نفسها أن هذا كله هو مجرد صدى ليلة البارحة. صدى الامتناع لثلاثة أشهر، ومع ذلك كان ثمة هذا الفارق. كانت الرغبة قبل شكلاً من الغنج دائماً ـ كان المرء حذراً حتى لو لم يكن المرء جيداً، لم تكن يوماً حانقة لأنها يجب أن تكون حذرة، ولم ترغب قط أن تؤخذ كما هي في أي مكان، كيفما اتفق، في السيارة، في أجمة سرخس، واللعنة على العواقب. لو تزوجنا، فكرت، لو كان معنا مال، لو تزوجنا.

كان قد ساق ببطء طول الطريق من بوكسمور، لكنه أخذ الآن يسوق بتهوّر في الطريق المعتم عائداً إلى ايفينهو. انبثقت الأشجار أمام الضوء، واختفت، كوخ منفرد عند منعطف إلى اليمين، امرأة منبسطة كالمقوى عند بوابة. وعندما أشرفت السيارة على حافة المنحدر هبت عليهما الريح، ودخلت ثيابهما وأقلقتهما مثل كلب. خلفاها وراءهما، ينحدران خلف رابية المنارة، قال: «بإمكان هذا الباص أن يتحرك»، وضع ذراعه حولها، وزاد تسارعه. ضحكت وضغطت نفسها قريباً منه، وقالت له أن يسرع، أسرع، أسرع. ارتج المؤشر الصغير وارتفع. «أنا مستعجلة». ليس باستطاعتك أن تري شيئاً غير بقعة طريق حوارية أمامك، كنت وحيدة في قفص صغير يهتز، وضوء أزرق فوق العداد، لم تركبي في هذه السيارة أبداً قبل اليوم. إنها مثل فرس تشعر بضعف فخذي خيالها، لقد امتلكت براعة القيادة، فهي تندفع إلى وسط الطريق. «تابع، أسرع، أكثر»، كلاهما كانا خائفين قليلاً - عرف، لم تكن السيارة تحت سيطرته تماماً، عرفت هي أنه كان خائفاً. لذا قالت: «أسرع، أسرع»، متحدية نفسها وإياه. اندفع التقاطع أسفل الرابية صوبهم بسرعة، رأت ضوءاً ينطلق بمحاذاة أعالي الأسيجة على يسارهما و: «انتبه، سيارة» وسمعته يتحسس الكابح. ارتفع دولابان، أغمضت عينيها، وإذ انطلقت السيارة منحرفة على الطريق، صلت: «وجهي، لاتدعه يكون وجهي».

«سياقة بارعة هذه»، قال جولز، وفتحت عينيها بينما كان مايزال يتباهى بصوت غير واثق أنه لايوجد سائقون كثيرون يمكنهم تجنب تصادم. «لقد أرعبت هؤلاء. لو فقدت أعصابي...» ارتعش السهم، سقط، اضطربت الأسيجة ببطء أعلى وأسفل. مزرعة، البيت الأول: «أظنك كنت خائفة»، قال جولز، أخذ سيجارة من جيبه ليظهر لها كم كان غير مبال، لكن عود الكبريت الذي أشعله اهتز وانطفأ. نسي أن يشعل آخر لأنهما وصلا.

استمر يتباهى كلّ الطريق إلى الطابق العلوي. وقف بين السرير والمغسلة وتباهى. ياله من سائق كان، ياله من محترف، لديه من الأعصاب مايكفي

لإثنين. جلست على السرير وزينت وجهها وأحست بدوار بسيط. مدّ يده ليثبت كلماته وابتسمت عندما لم تستطع كل القوّة في عضلاته أن تجنبها الإرتجاف.

- «لست قادراً على الإمساك بفنجان شاي». قالت.

- «يجدر بك أن تكوني ممتنة»، قال لها على طريقته النفجية الواثقة أكثر مما ينبغي. «تلك كانت قيادة». ظنته في البداية كآخرين يتكلم ليخفي خجله، وأنه فقد الثقة الآن أنه وحيد معها، لكنه كان يتباهى لأنه كان سعيداً، لأنه كان قد خاف، لأنه ظن أن السيارة ستتحطم وسيعود ثانية مع كوندر والمقهى. ماخطر له للحظة قط أن حياته كانت في خطر. كانت مفعمة جداً بالنشاط لتحتضر هكذا، شديدة التأكد مما أرادت.

«جولز»، قالت. «جولز، ألا تستطيع الانتظار؟» لكنها لم تكن ترغب بالانتظار، لقد رحبت به: أسفت لقوة العناق إذ انتهى بسرعة، ربما كان لا أكثر من إيماءة أومأها لها في المنتزه، أو تحية عبر الشارع. كان معها، كان داخلها، كان بعيداً عنها يسرح شعره أمام المرآة ويصفر لحناً.

«آه، توقف»، قالت. حدّق فيها دار في باله أنه غير مرض، وقد أهاجه ذلك، كان سيشعر بالذل لولا فكرة الشهور والسنين أمامها. سيتزوجان، وسيفعل أفضل في المرة القادمة. كانت النافذة مفتوحة وشم شرائح اللحمة تقلى في المطبخ أسفل. «بيض ولحم»، قال، «إني جائع». نسي للحظة ما الذي كانا يفعلانه للتو. كان ثمة القليل جداً ليذكره به، إذ هدأ جسده ثانية.

قالت: «لست جائعة»، بتجهم.

«لو»، قال. متذكِّراً كل شيء: الميراث، القيادة، كاي على السرير، كان هناك شيء ما أفعله. لاأعرف لماذا جئنا إلى هنا. كان يمكننا أن نذهب إلى السينما، أو نحتفل». دار حول المرآة ليشكل صورة سريعة لنفسه في سترة عشاء مستأجرة، يفتح زجاجة ويقترح نخباً ويصافح بعضهم: «تعرف على خطيبتي».

«كان يمكنك أن تدعي أصدقاءك»، قال، «وكنا لنعلن...» لكن الرأي المتفق عليه في بنيت تورفيل كبحه. «ميراثي».

استلقت كاي مصالبة ساقيها ومغمضة عينيهــا نصـف إغماضـة. أحبتـه ووجدت أنه أمتعها أقل من كثير من رفـاق الصدفـة. اللعنـة لقد توقعـت الكثير جداً من الحب، متعة فريدة، نوع مـن الاستمرار ــ ليس مـن قيمـة لاتهتز عندما يكون الحب هو هذا: جولز معك وفجأة كان جولز أكثر بعـداً منه في أي وقت، بارع منتفج وراض عن نفسه، يدرس وجهه في مرآة.

ـ تتكلم بمبالغة عن ذلك الميراث. مائة وخمسون جنيها ليسـت بالشـيء الكثير. سأريك كيف تنفقها خلال أسبوع. «عرفـت رجـالاً كـانوا يحصلـون على هذا المبلــغ كـل أسبوع»، قـالت. شـديدة الحاجـة إلى الفكـرة أنهـا لـو استطاعت تدمير فكرته عن الميراث، فسيعود جولز ثانية غـير راض، جولـز الذي له معلّم والمضطر للعمل في الصباح مثلها، جولز الضائع لا أمل لـهً، الـذي انتظر خارج السينما، فيما استقلت سيارة مع السيد سوروغيت، العـاجز عـن التعبير، غير المدرك أنها متيمة به، وأنها جائعـة لـه، والـتي ستحبّه في أي مكان، وكيفما يكن. «كل أسبوع، أقسم، لقد عرفت»، قالت.

رمش إليها. «ينفقها كل أسبوع؟»

أي فتاة يمكنهـا أن تريـك ذلـك، لم تستطع أن تنخـس فقاعـة غـروره بطريقة أكثر فعالية. ترك المرآة وجاء إلى مقدمـة السـرير ــ كـان هـذا جولـز المقهى، جولز الذي يقف بين السماور ودرج النقـود، جولـز الـذي أحبتـه. لابأس أنه لم يرضها الآن، لقد استلقت وتنهدت سعيدة، تحلم بهذه الليلـة والليالي الأخرى. وكان ممكناً أن تصدق أنه يمكنها أن تتخلى عن أصدقائها لأجله، لو طلب إليها أن تتزوج منه. ستغمرها السعادة لسنة أو سنتين، لن تذهب إلى العمل، وبعدئذٍ وعندما ينتهي هيامهمـا ببعـض يمكـن أن يفترقـا ولله الحمد. ـ أحد أصدقائها حصل على الطلاق مقـابل خمسـة جنيهـات. لكن جولز كان كاثوليكياً. «هل يطلّق الكاثوليك بعضهم بعضاً؟» لم تقصد أن تتكلم بصوت عالٍ. لا، بصرامة، لا، بدا له أنه قد ضخمّ كثيراً حبه لها ــ كان شعوراً ينتاب المرء حتى يمتلك الفتاة ثم يتلاشى. ما كان أسوأ أنه بالغ بقيمة ميراثه. كانت محقـة. يمكـن لفتـاة أن تبدده في أسـبوع: كـان أبـوه محقاً: «سندات حكومية» ـ خمسة جنيهات في السنة. كان ذلك أفضل مـن

صرفه. وأخذ يجمع ما أنفقه ذلك اليوم حتى اللحظة. لو أعـود الآن وألغـي حجز الغرفة، لكنه نفر من الوحدة الليلة القادمة. بالإضافة، قـال في سره، أنا لم أقرر. مازال بإمكاني أن أسألها الليلة وغداً صباحاً.

- «سأذهب إلى الطابق تحت، لأرى إن كـان العشاء جـاهزاً». فتـح الباب، كانت الوحدة في الممر المعتم، تعثر على الدرج غيّر المضـاء. الوحـدة حول قدميه. حتـى الغرفـة تحـت ذات الطاولـة الممدودة لعشـائهما كـانت خالية، لذا استدار ليناديها: «تعالي بسرعة»، لكنه غير فكره. كانت المدفأة مجهزة لكنها بحاجة إلى إشعال. لم يكن لديه كبريتة وتحسس جيبه بحثـاً عن قصاصة يشعلها من الغاز. لم يكن الأمر مثلما نوى: «تعرف على إيـرن. ألم تقابله، يابل؟ ألا تعرفه...» كاد يسمع وقـع خطواتهـا البطيئـة أعلـى، لكنه كان مشبعاً جسدياً وما اهتم. كان الإشباع حالة وحدانية جداً. قـال في سرّه ثانية، يمكنني أن أسـألها الليلـة في أي وقـت، لكنّـه عـرف في قـرارة نفسه أنه سيكون صامتاً حول هذا الموضوع مثل هذه الغرفة والدرج والممر.

صرّتْ ورقة الإسترحام لإخلاء سبيل دروفر في اللهـب. انحنـى وأمسـك بها قرب الموقد.

❄ ❄ ❄

احتاج الأمر كلّ شجاعة كونراد ليتابع القرار الـذي توصـل إليـه ليـلاً، عندما استلقى يقظـاً وأنصت إلى ميلـي تبكـي، حتـى مسـافة الشـارع، مـرّ شرطي، إنه لغريب كيـف يصبـح المـرء خائفـاً مـن القـانون، لكـن بعـد أن يحصل المرء على مايريده، لن يخشى أحداً.

- ماذا سأفعل به؟

- أي عذر سأقدِّم؟

- ما فائدته؟

لكنه لم ينل قسطاً كافياً مـن النـوم ليجيـب علـى أسـئلة. لمس أحدهـم ذراعه، دفعة جانباً، وتـابع إلى الرصيـف. أحـس بـالغضب الوحشـي مـرة أخرى، والحقد مثله عندما سمع أولئك الاثنين يمزحان خارج بيركلي. هما

لم يعرفاني، لم يلحظاني، لكني أعرف واحداً منهما على كلّ حال، لقد رأيته في المحكمة يوماً بعد يوم، أصفر الوجه، عجوز، رث الثياب، يراقب جيم في القفص، جيم الذي كان فتياً وغرّاً وقريباً جداً من الموت.

مدّ يده وشدّ الجرس وسمع الصوت المعدني خلف النوافذ المغلقة ذات القضبان، خلف شرائط الدهان القرمزي: أوكازيون، متجر خربه الحريق. لقد فعلتها الآن، فكر، أطلقت العنان لأمر ينبغي أن يستمر، وبعد لحظة فيما تلاشى الصدى، أخذ يفكر ثانيةً بمساعد المفوض وكيف أن كلمة من ذاك الرجل ربما كانت أنقذت جيم، لو قدمت أدلة الشرطة بطريقة الظن، لو أقروا أنهم ضربوا النساء بالهراوات، لأوصى المحلفون بالرأفة له. ثم عادت ميلي بين ذراعيه ثانية، كانا يتقلبان في السرير، كانت تبكي وقريبة منه، وجرب المتعة المثيرة للشفقة لاتحادهما.

ـ السيد بيرني؟

ـ ادخل.

كان مستغرقاً في شقاء ميلي، بفكرة كم بدت لها حياتها خاوية لتقبل بحبّه، فلم يلحظ لدقائق تكتم وحذر السيد بيرني، أدرك ذلك عندما جلس مقابل الوجه الطويل المصقول الفارغ وسأله السيد بيرني ماذا يمكن أن يخدمه دون اهتمام: «لا أظنني أعرف...» لبس بمسحة من الترجّل للشغل وأبدى ملاحظة: «لقد تهيأت لتوي للذهاب إلى الكنيسة».

قال كونراد: «أرى لديك أوكازيون لبيع أشيائك القديمة».

ـ «خرّبها الحريق»، صححه السيد بيرني.

ـ ألم تكن قد أمنّت عليها؟.

ـ «هذه نوعيتي. أنا اجتماعي جداً. أنسى الأشياء، وجهك الآن...»

ـ «أنت لاتعرفني. أنا أعمل لشركة ريغال للتأمين». لاحظ مسروراً القلق الذي انتاب الوجه الأبيض المليء، كخيال رجل في سينما يقطع الشاشة الفارغة.

قال السيد بيرني: «لاأعرف لماذا أتيت لتراني يوم أحد».

- «بصورة شخصية. فكرت بما أنك تتعامل مع شركتي، فربما تمّن عليّ. لقد أردت شراء بعض الأشياء الرخيصة».

راقبه السيد بيرني، وانتظر كونراد. عرف نوعية الأفكار التي كانت الآن تجول في رأس الآخر، وقد أعطته المعرفة إحساساً بالقوة. كان الآخر قد لبس بأناقة، كان حَسَنُ الأحوال، كان قد أَلِفَ كنيسة، كان يلبس أرداناً منشاة أيام الأحد، ومع ذلك بضع كلمات قد جعلته عاجزاً عن الكلام. أخذ السيد بيرني يقضم أظفاره.

- لقد أدهشنا، أنك لم تؤكد إدعاءك.

- لم أستطع الانتظار، كان الخراب ضئيلاً: وأنتم، شركات التأمين، بطيئون جداً. ماالذي تريده؟

- مسدّساً.

- طبعاً، يجب أن أرى رخصتك. ولا أظنني لدي واحد، على كل حال.

- ليس لدي رخصة.

- لِمَ تريد مسدساً؟

- إني وحيد للغاية.

- «آه،» قال السيد بيرني، مستنداً إلى الخلف وراء الطاولة، متشبثاً، كما بدا، بكلتا يديه بهذه الفرصة للتأكيد، «لاأفهم ذلك. كما ترى، لاأكون وحيداً البتة». أضاءت وجهه مؤقتاً مصابيح مناسبات اجتماعية لاتحصى. سمح لكونراد أن يلمح مشاهد من سجادة حمراء ويحدّق كمنبوذ عبر النوافذ المضاءة من ظلامه ووحدته. لأنه كان وحيداً، وأكثر منه وحدة في أي وقت على الإطلاق بالرغم من هواه وما اعتبره ذات يوم نجاحه. مرّت أوقات فكّر فيها أن كون الرجل عشيقاً لامرأة يجعله محصناً ضدّ الخجل. عندما كان هناك مابدا وعداً بثقة لامحدودة في حركة واحدة قصيرة. أدرك الآن أنه بحاجة إلى أكثر من فعل جسدي. احتاج لقضاء سنوات معاً.

«أحياناً»، قال السيد بيرني، «أودّ فقط لو أنسلّ مبتعداً. بعيداً عن الزحام الذي يبعث على الجنون». سحب أردانه. وقد ألقت عيناه

الواسعتان الوادعتان الخوانتان نظرة شاملة على كونراد مثل مصباحين كشافين، مظهرين بؤسه ووحدته. «ثمة شيء كهذا»، قال السيد بيرني، «كالعديد من الأصدقاء». تظاهر أنه يحسد كونراد على وضعه الانعزالي مثلما يصرف مليونير شديد البخل متشرداً بكلمات يحسده على لامسؤوليته.

«المسدّس»، قال كونراد. لكنّ السيد بيرني كان قد استعاد ثقته بنفسه تماماً، عاد الشخصية الإجتماعية ثانية، كان مستحيلاً أن تظنّ أن تلك الواجهة المحترمة الخالية من التعبيز والإنفعال وجدت يوماً مرابياً خائفاً من الأسئلة.

- «يجب أن تحصل على رخصة. كيف لي أن أعرف ما تنويه؟ عنف. أي شيء. انظر إلى الطريقة التي جئتني بها، يوم أحد، والمصاريع مرفوعة، ويدك انظر كيف ترتجف. أعصابك كلّها مضطربة. يجب أن تتناول مقوياً، لست مؤهلاً للخروج أو البقاء وحيداً مع مسدس. دع عنك فكرة المسدس».

بدأت عدة ساعات تدقّ في المحل. «انظر»، قال السيد بيرني. «لقد تأخرت جدّاً على الكنيسة».

- «لم تنتابك الشكوك؟ أعرف كل شيء عنك. لقد درست كلّ الأوراق عن حريقك». بدا له خلال الليل أمراً سهلاً للغاية أن يحصل على ما يريده من المرابي. إنّه نوع من ابتزاز أمين. لقد تصوّر تاجراً خائفاً للغاية، وليس السيد بيرني بأردانه وزبائنه ووجهه المكتنز المصقول ولطفه.

قال السيد بيرني بلطف: «سأبلغ عنك شركتك. إنك تجبرني على ذلك. لا أحب أن أؤذي أحداً. إني مسيحي طيب لآخر درجة».

- لست أطالبك أن تفعل ذلك دون مقابل.

- «إنها لهجتك هي التي لا أحبها. سأذهب أكثر مما هو متوقع لأجل صديق. وأقول لك ليس هناك كثيرون لهم معارف أكبر من معارفي. في الوقت الذي لا أرفع فيه أصبعاً ضئيلاً في وجه عدو. ولا إصبعاً ضئيلاً». بدت العينان الوديعتان تدفعان كونراد بعيداً جداً، حتى صار شخصاً ضئيلاً جداً معلقاً في أفق وعي السيد بيرني ذاته يمكن للمرء أن يفعل ما يشاء بمثل هذا الشخص الضئيل جداً - رفع يد سيكون توبيخاً كافياً - ابتسامة ستكون

غفراناً كافياً، أو إذا كان المرء، بعد كلّ شيء قاصداً عقد صفقة فليس لشخص غير معتبر إلى هذا الحد أن يتذمّر من الصفقة الأصعب.

ـ «لم أقصد أية أذية»، قال كونراد. بدا له أنه يريد السلاح الآن أكثر من أي شيء آخر في الدنيا. أراد الحب، لكنّه حصل عليه، لقد انتهى.

ـ لماذا تريده؟.

ـ «ضد حالة طارئة». كان ذلك صحيحاً، ليس لديه فكرة واضحة عن استعماله. كان ثمة أناس كرههم: زملاءه الكتبة، ابن أخت المدير، المدير التنفيذي، مفوّض الشرطة، الرجل الذي دفعه على الرصيف، لكنه لم يرد أن يقتل هؤلاء الناس أكثر مما أراد قتل نفسه في الحقيقة. بل أقل، لأنه كان لديه سبب أكبر ليكره نفسه ـ لقد أحبّ أخاه ارتكب بحقه ما اعتبره الناس أشد الأخطاء قسوة. كان صعباً أن يقر بالخطأ أثناء ارتكابه. كان سهلاً للغاية، قصيراً جداً، عذباً جداً، ليس مرضياً تماماً، لكنه بعد ذلك، مستيقظاً وصامتاً في السرير. ألصق الصفات المناسبة على ذكراه، خطيئة إنسانية، الخطأ الأجسم، وصية منتهكة. لكنها لم تكن صفاته، لقد أخذها عن الآخرين ـ آخرون صنعوا القواعد التي حكمته. ليس عدلاً أن يتركوه في أقصى حالات الوحدة، وبعد ذلك يضعون القواعد التي تحكمه. إنها مثل بحّار رُمي في جزيرة مهجورة وعليه مع ذلك أن ينظم حياته وفقاً لأنظمة باخرته.

تضرع للمرابي، مادّاً يداً عبر الطاولة: «كمعروف. ربما أمكنني أن أساعدك في المكتب».

«هذا أفضل»، قال السيد بيرني، «هذه لهجة أفضل. لقد تعلّم الناس أنهم لا يستطيعون تهديدي. أنا مسيحي طيب كالآخرين، لكنني لا أقبل التهديد».

ـ «أرجوك...»

ـ مشكلتك هي الأعصاب. يجب أن تأخذ مهدئاً، عاشر الناس، تجول هنا وهناك. أنا في الخامسة والستين، أعرف لن تصدّق ذلك. أعزو صحتي

للحياة الإجتماعية أكثر من أي شيء آخر. ليس لدي الوقت لأفكر. هنا للغداء وهناك للعشاء. اتصال هاتفي.

- «أرجوك...»

فتح السيد بيرني خزانة دون أن ينهض عن مقعده، مديراً كرسيّه، وضع علبة كرتونية أمامه، وبدأ يرفع دبابيس ذات أحجار كريمة، وأزرار أكمام، ومهمازين، وكأس بيضة، ومسدساً مغبراً، «عليك أن تدفع لي للمجازفة»، وابتسم وتحقّق من الابتسامة ونفخ أنفه. «خمسة جنيهات مع علبة بعشر طلقات».

- شيكاً.

- أربعة جنيهات وعشر شلنات نقداً.

- هل يعمل؟ سأله كونراد، وبدأ السيد بيرني يتراجع بسرعة كبيرة وحاجباه مرفوعان في استفهام. «يعمل»، قال بصوت مطاط: «طبعاً، يعمل»، كان مهتاجاً جداً، ثم متراخياً جداً، عندئذٍ أسرع السيد بيرني عائداً إليه، كأنّه دُفِع من الخلف مثل مهرّج في عربة أطفال. «شكراً لك»، قال، ودفع واندفع عائداً بأسرع ما يستطيع إلى الهواء الطلق وسمع السلاسل تعود على الباب والأجراس تقرع لصلاة الصبح.

والآن ماذا؟ فكر كونراد. ماالغاية منه؟ مزحة أرويها لميلي، شيء لإخافة الناس الذين يدفعوني على الرصيف، الذين يرومون وظيفتي، الذين ينادون كونراد، كونراد عبر الساحة الإسفلتية، الذين يهددوني، الذين يشنقون أخي، الذين ــ تلك الجريمة الأسوأ ــ لايأخذوني على محمل الجد، كرجل، كرئيس كتبة، كعاشق. لايمكنكم إخافتي باسم القاتل، القاتل هو جيم فحسب، القاتل قوة حماية، حب.

عندما يلتهم آكل لحوم البشر عدوه فإنه يكتسب صفات خصمه: شجاعة أو مهارة. عندما تضاجع زوجة أخيك وتتلقى نفس حقوقه، ألا تصبح نفس الرجل إلى حد ما؟ فإذا كنت ضعيفاً تصبح قوياً وإذا كنت ذكياً تصبح غبياً؟ لقد كان أخاه للحظة الليلة الماضية، وصار قادراً على قتل رجل.

عاد إليه زخم ذاك الإيمان وحمله إلى شارع شافتسبوري، عبر ساحة ترافلفار، ونصف الطريق إلى شارع نورثمبرلاند قبل أن يغادره دون أدنى فكرة عمّا نوى أن يفعله، رفع شرطي تحية، انصفق باب، ومن شارع فرعي مقابله جاء مساعد المفوض ماشياً، على ذارعه مظلة وفي يده ملف أوراق.

جاء، وجه متغضن أصفر، جاء، جسد نحيل بيروقراطي، جاء متمهلاً، العدالة في ملف أوراق. جاء، الاحترام في القبعة المستديرة السوداء والمظلة، عينان على الرصيف، آمناً في لندن، آمناً في حاضرة الإمبراطوية، آمناً في قلب المدينة (لاأرى سبباً لنقض قرار القاضي. الهراوة المرفوعة، الاجتماع الممنوع، سنسمح لهم بالعناق بعد سنة واحدة، تقليص عدد الموظفين، البطالة، الصداع المستمر مع صديقك لتبقى وحيداً قدراً على الطوف، لتدع الآخر يغرق، رغبة، زنا، هوى دون حنان أو تواصل) نصير الحضارة نازل إلى الشارع، عينان على الرصيف، ملف مرتب تحت ذراعه.

كلمة منه، فكر كونراد، وجيم يبقى حياً، كلمة منه لوزير الداخلية أن شرطته خرجت عن السيطرة في الإجتماع، وبدا له أنه يمكنه أن يتوسل شخصياً، هنا في الشارع، إلى مساعد المفوض الذي كان يمشي الهوينا، لكنه خلال نصف دقيقة سيكون ضمن مجال اللمس به، ارتجف كونراد لاقتراب السلطة، كان دائماً في غرف المدراء يضطر لإخفاء رجفان يديه خلفه إذ يترقب تأنيباً أو صرفاً من العمل، إنما الرجفان لم يتوقف لكلمات غير متوقعة من إطراء أو لترقية.

لا أجرؤ على التحدث إليه.

وضع يديه في جيبه ليخفيهما وأحس بالحجرة الخشنة الصدئة للمسدس. ينبغي ألا أخاف وهذا في يدي ثانية أبداً ـ عليّ أن أوجهه فحسب وسيخافني الآخرون، حتى ذاك الوجه الهرم المكتنز سيخاف. صار مساعد المفوض جانبه، كان يتجاوزه، يتعثر قليلاً في جزمته القديمة الموضة وثياب الأحد المنشاة مثل جندب أصفر. أخرج كونراد يداً. سيدي... لحظة واحدة.

❄ ❄ ❄

تردد مساعد المفوض، تابع سيره، تغيرت مشيته كلها، صار ضابطاً يفتش ثكنات، فخوراً بغضبه لبعض الخرق للتقاليد التي سيسمع عنها بعضهم فيما بعد ـ لايستطيع المرء تأنيب ضابط أمام صفوف الجند ــ الذين كانوا هنا السائقين في سياراتهم، وباصات السائحين المليئة المنتظرة. إنه فخر، فكر مساعد المفوض، أن يتسول رجل بلباس محترم مثل هذا. يمكنه أن يكون ممتناً أني لم أعتقله، لكنه لم يكد يدور إلى شارع نورثمبر لاند حتى تبدل موقفه. لم تكن العدالة عمله، كان شغله أن يقبض على الرجل الأكثر كمالاً. لايمكن للمرء، في حياته الخاصة، أن يترك العدالة لوزير الداخلية، للبرلمان، لقضاة صاحب الجلالة، وربما لله، ولكن مساعد المفوض لم يكن قانعاً تماماً بوجوده. مع ذلك نسي الآن مرة أخرى أن البطالة ليست علامة لرجل كسول، أنّ المتسول لم يتسول لأنه لايريد أن يعمل، أن حالة كهذه قد حصلت في انكلترا التي عرفها على أكمل وجه، أما الآن فالأمور مختلفة.

استدار مساعد المفوض وعاد. كان متلهفاً ليعتذر عن تصرفه، ليعطي الرجل الفقير نصف كراون، لكنه عندما وصل إلى الزاوية كان الرجل قد ذهب، تشوش مساعد المفوض ـ لم تكن ثمة حاجة للخشونة. ماالذي يجعل المرء يرتد عن متسول، يقطب ويهرع مبتعداً؟ إنها الشفقة جزئياً ــ إن المرء يزعجه النظر إلى رجل بهذا العسر، لكن صعب على المتسول أن يفهم أن ذلك الابتعاد شكل من الشفقة، وقف مساعد المفتش عند الزاوية كأنه نسي شيئاً. لقد تذكر في الواقع، جاءته رؤيا للوجوه الواجمة العديدة التي يراها المتسول. أتمنى لو كلمت ذاك الرجل، فكر، أتمنى لو سألته كيف أصبح عاطلاً عن العمل، ربما كان باستطاعتي أن أجد له عملاً، لكن مافائدة ذلك بعد كل شيء؟ إنه مجرد شخص واحد. مستحيل بالنسبة لي أن أساعد هؤلاء، الحكومة وحدها يمكنها أن تفعل ذلك، الحكومة التي تستخدمني لحفظ النظام لأتأكد أن العاطل عن العمل يتوسل ولايطالب.

قال مساعد المفوض في سره، أن تسلسل الأفكار هذا يؤذيه ـ أنا مأجور، علي أن أقوم بعملي، لايسأل المرء خلال الحرب لماذا يقاتل، إنما ينتظر إلى

نهاية الحرب ليفعل ذلك. يمكنني أن أفكر بهذه الأمور عندما أتقاعد ـ لكن فكرة التقاعد أرجفته، أدار ظهره لمصدر ارتباكه ومشي صاعداً نحو ساحة ترافلفار. تمنى لو ترسل هذه التقارير الجديدة بواسطة مراسل إلى شقته، لا أن يجلبها بنفسه كعذر للتنزه مشياً صباح يوم أحد رائع. لن يصدق المنابون في سكوتلاند يارد أبداً أن هذا هو سببه الوحيد، كبد يجب مداواته، ساقان احتاجتا التمرين، صباح خريفي وضاء والأجراس تقرع.

أدار ظهره إلى المكان حيث وقف الرجل، ومع ذلك تباطأت أفكاره كثيراً ليتخلص بسهولة وسرعة من أي منها، عندما أتقاعد، مرة، بعد ثلاثة أيام في الغابة، الحرارة خانقة وأحد رجاله مطعون ومؤونة الماء كادت تنضب، والرجال الذين طاردوهم بعيدين مثلهم كل مرة، انهاروا بارتياح خارج الأشجار في الأرض العراء حيث قامت محطة تجارية، هنا أمكنهم أن يحصلوا على الماء العذب ويرتاحوا ويأكلوا ويتحدثوا. كانت نهاية مطاردتهم في الغابة، حيث تمتد من المحطة، طريق مخددة، بجودة أية طريق ريفية انكليزية، إلى عدة أميال مباشرة. فوق المحطة (علية، مخزن ذو سقف صفيحي، كوخان محليان). تدلّى علم أصفر ـ لم تكن ثمة ريح، بدا المكان مهجوراً، تدلى العلم مثل نقانق من ساريته، لم يلاحظ لونه لأول وهلة. طبعاً، لقد عنى ذلك حمى، مسافة كبيرة عن الماء، الراحة، تبادل الحديث في تلك المحطة بالذات. لقد اضطروا أن يمشوا على أطراف الأرض العارية نزولاً إلى الطريق المخددة المستقيمة، وأحسوا أن ساعات عديدة مرت قبل أن يختفي العلم. الآن كان ذلك الرجل بيده ممدودة، يتسول، وفكرة، «عندما أتقاعد»، هما ما تدلى مثل علم أصفر خلفه لافائدة من غذّ السير، فهي باقية هناك.

تذكر مساعد المفوض أنه قبل أن تختفي المباني خلف سديم الحرارة، رأى رجلاً يخرج من العلية ويدور حول الكوخين. كان شديد الرغبة بالعودة، كان باستطاعته أن يدع الرجال يتابعون تحت قيادة الرقيب المحلي، كان يمكنه أن يستريح ويشرب شيئاً وإذا ما ألمت به الحمى كان قادراً أن يتخلص إلى الأبد من خوف التقاعد. كان موافقاً لطبيعته أن فكرة

إنقاذ حياة رجل لم تمثل أي أهمية لديه وإن فكرة اعتبار عودته أمر يستحق المكافأة لم تخطر له ببال. أخيراً صرف الرغبة كتساهل ـ لم تكن ما دُفِع له ليعمله، لم يْدفَع له ليخاطر بحياته بتلك الطريقة، بل ليعاقب ويحافظ. مؤكد أنه لم يُدفع له ليهرب من التقاعد. لكن المثير للجنون أنه كلما نظر خلفه رأى العلم الأصفر متدلياً.

لقد أُغوي مرة ثانية قبل أن يغادر الشرق، كان يوماً حاراً في العاصمة، وبينما كان هارباً من وهج ولمعان المعابد، من انعكاس الشمس على قطع الصفيح، وعلب النفط القديمة، ومربعات الزجاج الملوّن، أدرك في الشارع المسقوف المعتم أنه كان ملاحقاً. لم يكن صوتاً ما أنذره بالضبط، مع أنه ربما التقط على نحو غير واعٍ بين وقع قوائم الثيران، من صرخات الباعة، إيقاعاً متواتراً محدّداً لقدمين لطيفتين تواصل سيرهما على مسافة منه، تستمر عند المنعطفات، تستمر عند قطع الطريق، لكن مالاحظه، كان قلقاً جسدياً، رغبة بالإنحناء. لم يعلم سبباً خاصاً لماذا يريد شخص ما مهاجمته ـ كان ثمّة أسباب عامّة دائماً، أسباب سياسية، لأنّه كان الخادم المأجور لحكومة غير شعبية. شعر بإغراء جدي بمواصلة السير، والدخول في طريق أكثر ظلمة، لكنه لم يفعل شيئاً من هذا القبيل، عاد إلى الشارع الرئيسي وأوقف أول سيارة رآها.

انبثقت النافورة، مسرعة وتساقطت خلال أشعة الشمس. هرع الرجال كبار السن بقبعات متأخرين إلى كنيسة سانت مارتن إن ذي فيلدز، صبيّان عاريا الساقين غمسا أقدامهما في بركة النافورة، وتعثرا هاربين عندما عبر شرطي الساحة. أوقفه مساعد المفوض. «تسامح قليلاً ـــ أم ـــ اليوم أيها الشرطي، طنش، طنش عندما تستطيع».

صاعداً إلى المعرض الوطني، على طول شارع بول مول، لم يستطع أن يكبح افتخاره العابر بلندن، الوهج اللطيف للخريف على الأبنية، الحركة اللطيفة ليوم الأحد في الشوارع، حافلة واحدة في مدى النظر فحسب، لا أحد مستعجل. كلّ الأبنية في حدود الرؤية لها منزلتها ونسقها. كان الخادم يهز سجادة خارج فندق ثمارلان. كان شيئاً ليدرك أن الدفاع عن

هذه المدينة كان بين يديه، كان التصوّر سهلاً للحظة أن أعداءها كانوا كلّهم في الخارج، أن الشر لم ينتم طبيعياً إلى هذا السلام والطمأنينة والرضا، وأن الموت في ستريتهام كان مجرد غزوة ناجحة من الريف، لكنّه كان دائماً مضطراً لأن ينظر وراءه، وكان عليه أن يرى العلم الأصفر متدلياً على مؤخرته.

الحرب التي خاضها كانت حرباً أهلية ـ ما كان أعداؤه القساة والمنحرفين فقط، بل الرجال أنفسهم الذّين أشفق عليهم، وأراد مساعدتهم، لو نفذ واجبه لاعتقل العاطل عن العمل بتهمة التسول. بدت له الأبنية عندئذ وقد فقدت بعض أبهتها، والسلام يوم الأحد في شارع بول مول أشبه بالهدوء الذي يلي مذبحة، حرب إبادة. لقد جوبهت الفاقة بنجاح هنا مجبرة على الإنسحاب صوب نوتنغ هيل من جانب ونحو فوكسهول من جانب آخر.

لكن مساعد المفوّض، مثل بيلاطس، غسل يديه ـ العدالة ليست شغلي، السياسة ليست شغلي. كان الله في عون الرجال المسؤولين عن الطريقة التي نظمت وفقها الحياة ـ أنا مجرّد خادم مأجور، أفعل ما أُؤمر به، لست مسؤولاً أكثر مما يكون كاتب مسؤولاً عن أساليب المؤسسة التي يخدمها، كان يكسب مرتبه الذي يوفر له أسباب العيش ليس إلا، كان من الصعب على المرء أن يدّخر في الشرق ـ ما وفّر شيئاً غير القرع والأسلحة المحلية، والأنقاض العاطفية لمهنة شاقة. لقد خطر له مراراً أنه أقلّ سيطرة كقائد من جندي منعزل يقاتل دون دراية، مثل الرجال في انكرمان، في حمى الحفاظ على الذات.

إلى ناصية الهاي ماركيت، وعلى طول شارع جيرمن، مروراً بالحمامات التركية ودكاكين الخردة المغلقة، ماشياً لأجل التمرين، لأجل كبده ـ يمكنه على الأقل أن يعرض ذاك الجرح كدليل حماسة لمستخدميه. بتلك السخرية، غير المشابهة له في مرارتها، وصلت أفكاره طرف الغابة التي كدّت وشقّت طريقها عبرها لسنوات. كان التقدم الذي حققه بطيئاً، لكنها لم تكن المرة الأولى التي أدرك فيها نقص الغطاء النباتي. سيكون الماء

والراحة والمحادثة في الأرض العراء، وستكون لمحة لنظام حياة لاحاجة له لأن يخدمها مقابل أجر، تحوز على إخلاصه بإنصافها وعقلانيتها وبعدالة توزيعها للمكافآت. لكنه عند الحافة عاد إلى الغابة بصورة لامفر منها، كان خائفاً من خيبة الأمل، والعلم الأصفر، ـ وكان خائفاً أيضاً من المتطلبات التي قد تقع عليه، وكان عجوزاً، ولديه عادة الحياة.

كاد يكون سعيداً لما أدرك أنه ملاحق. أن يلاحق، كان جزءاً من مهنته سابقاً، ولم يكن مرتاح البال في حياته الجديدة، عند درجة واحدة من المعركة التي خاضها. لم يكن خائفاً، مع أن المعرفة جاءته بشكل فيزيائي، انحناءة ظهر، فالأشياء التي خشيها كانت كلها فكرية، أسئلة، شكوك، اقتراحات. سرّه أيضاً أن المشي الذي كان يمارسه لمجرد فائدة صحته لابد أن يمنحه فائدة مهنية. استدار بحدة عند ناصية شارع سانت جيمس وسار بسرعة نحو الساحة، وانعطف جانب فورتم وماسون وانتظر. مرّ شرطي، عدّة نساء، ثم دفق من الناس خارجين من الصلاة الصباحية في كنيسة القديس جيمس. لم تكن ثمة فائدة من محاولة التعرف على ملاحقه.

سار ببطء إلى الساحة، نزل بتؤدة إلى الممر السفلي، سار متمهلاً، مراقباً الانعكاسات خلفه في نوافذ المحلات، إلى المنتزه الدائري. كان خالياً تقريباً، لم تميزه الشرطية. زاد من سرعته فجأةً وقام بدورة كاملة بسرعة كبيرة. سجل ملاحظة ذهنية لرجل في ثياب سوداء وقف في كشك هاتف مستديراً بظهره إليه. ثم صعد مفكراً حتى الرصيف بمحاذاة لندن بافيليون واشترى صحيفتين.

هذا غريب، فكر غريب جداً، لابد أنني مخطىء. لماذا لحق بي كل هذه المسافة؟ لابد أوهمتني ذاكرتي ـ لم أرَ وجهه، على أية حال. يجب أن أرى وجهه. لكنه الآن وقد استفاق وعيه خانته غريزته. ما استطاع أن يحزر فيما إذا كان ملاحقاً ـ مستحيل أن تميز على رصيف لندني بين كل الخطى زوجاً أكثر إصراراً وأكثر غاية وأكثر سرية من البقية، وبينما استدار داخلاً غرفة الكوكتيل في محل ليونز كورنر هاوس هزته متعة جافة، لكنه لم يسمح لنفسه أن يبتسم.

لقد انقدت إلى أماكن غريبة هذا الصباح، فكر، وتمعن لائحة الطعام والشراب بعدم رضا واشمئزاز، شرابات مغشوشة! قال بسخرية في سره. «أيمكنك أن تقدم لي كأس ويسكي ـ أم ـ مع الصودا؟» ودفع صحن شرائح البطاطا إلى الطرف البعيد من الطاولة. أكل بين الوجبات!

نظر حوله. كانت الغرفة الصغيرة مليئة تقريباً، لكن الرجل الذي كان في كشك الهاتف ليس هنا بالتأكيد. كان مساعد المفوض سيرحب بوجوده، فلديهما شيء مشترك ـ ومع ذلك لم يكن مرتاح البال هنا. أعطى محيطه هذا انطباعاً عن هرج ومرج وبهرجة، وبدا الجو مليئاً بتبجحات السائقين أصحاب السيارات. شعر أنه غير لائق لسنه ولوحدته، لو دخل ملاحقه لدعاه إلى طاولته.

وباعتبار أن عليه أن يزجي الوقت، فتح الملف وأخرج آخر تقارير قضية دروفر. كانت شديدة التناقض لتعني أي شيء على الاطلاق. عبس في كأسه، وفكّر: هذا ليس شغلي. بدا أن الرجال، وعلى نحو متزايد، غير راغبين بقبول مسؤولياتهم. كان لدى الوزير تقرير كامل عن المحاكمة، وملاحظات القاضي ـ لماذا يحاول أن ينقل مسؤولية شنق رجل أو تخفيف الحكم عليه إلى شخص آخر؟ كان يخشى أن يستمر الإضراب لأيام تالية، من ضرائب أكثر، من هزيمة الحكومة ـ كان السكرتير صريحاً تماماً. لكنها صراحة ذكرته برجل أعمال استجوبه في سكوتلا نديارد ذاك، أيضاً كان صريحاً ـ لقد اعترف باحتياله على ضريبة الدخل بمبلغ تجاوز عشرين ألف جنيه ـ لقد (قال ذلك هو نفسه) وضع كلّ أوراقه على الطاولة. أما الأمر الذي أخفاه فما عرفه مساعد المفوض أبداً.

ولن يعرف مطلقاً الدافع، حتى الأكثر رثة، من الذين سموه، الذي جعل الوزير متردداً. تذكر مساعد المفوض متجهماً الوثائق الطبية المقدمة في محاكمة المدير، كيف قبلت سلطات ضريبة الدخل اثني عشر شلناً للجنيه لإنقاذ المدير من الإفلاس، لإنقاذه من الإنهيار العصبي. عندما فكّر في الأحكام الكبيرة التي نفذت في الرجال الذين سرقوا جواهر قليلة من بيت رجل ثري، كان أكثر حمداً منه في أي وقت مضى أن العدالة ليست شأنه.

عرف جيداً سبب التناقض ـ لقد سُنّت القوانين من قبل أصحاب الأملاك لحماية الأملاك، لذلك كان باستطاعة فاشستي أن يفشي سرّ خيانة دون مقاضاة، لذلك لم يخسر الرجل الذي احتال على الدولة دفاعاً عن ثروته الشخصية: حتى الأموال التي كسبها، لذلك يذهب اللصّ إلى السجن خمسة أعوام، لذلك ما كان لدروفر أن يخفّف حكمه بهذه السهولة: كان شيوعياً. ومرة أخرى، ذلك ليس شغله، استاء لاضطراره أن يكتب تقريراً إلى الوزير يعلمه فيه أن رأيه هو لاتنفيذ الحكم ولاتخفيفه له أي تأثير على الرأي العام، لن أبعث بأي تقرير حتى الخميس، فكّر، يمكنهم أن ينتظروه. ليس واجبي أن أضع القبعة السوداء.

ما أراد قط أن يغادر الشرق، كان واجبه، هناك، واضحاً. أمسك قتلة وحرامية، لم يكن هناك تدخل في شؤون العدالة من قبل سياسيين، أو رجال أعمال. كانت مثل حرب على الطريقة القديمة ـ تقاتل فيها شخصياً، ولاتجلس في مقر القيادة العامة.

تنهد وشرب كأسه، ونهض، فكّر، قد يعيش الشبان ليخدموا شيئاً يؤمنون به. سيفكرون به بازدراء بسيط، كواحد لم يملك الشجاعة التي تتطلبها قناعاته. كان جوابه أن قبض على قاتل امرأة عجوز في بادينغتون، إنّه في يوم ما قريب سيقبض على قاتل ستريت هام ـ هذا ما ينبغي أنه يحكم عليه به، وليس بالمقياس العام للعدالة.

وقف عند الباب للحظة. ما استطاع أن يرى أحداً، وبدا يعتقد إمّا أنّ غريزته قد خدعته، أو أن الملاحقة قد انتهت. لم يستطع أن يتخيل أي دافع لها ـ هنا، الحمد لله، لم يكن متورطاً بالسياسة. ترك خلفه بارتياح الشرابات الملونة والمعاطف المخرمة والأفواه المصبوغة وشرائح البطاطا وسار إلى البيت. لم ينزعج عند أسفل طريق تشارنغ كروس بالسلام الميّت بعد مذبحة، اديث كافيل بشفتين بيضاوين وعينين كليلتين واستقامة متزمتة حدقت إلى فنان الرصيف، تحت تمثال هنري ارفينغ كان ثمّة رجل يبيع دواءً مرخصاً. تلاعبت النوافير وحرك الأطفال أرجلهم في أحواضها وأدار الشرطي ظهره. رفع مساعد المفوض قبعته للنصب التذكاري دون أن يذكر

حتى للخطّة كتيبته المقصوفة بالقنابل تعود عبر الطين في باسكيندايل. نـزل إلى الطريق ليتجنب سلماً ودقّ على الخشب عندما فكر: كنت مخطئاً، أكيد كنت مخطئاً. على المرء أن يختـار خرافات معينة يحيا بهـا. إنهـا المسامير في الأحذيـة الـتي يتشبث بواسطتها في الصخر. هـذا مـا خلقتـه الحرب عادة، خرافة، حيلة إضافية يزجي بها المرء يومه.

كـان مساعد المفوض يشتري جـراء، يـأخذ الجـانب الخـارجي مـن الرصيف، كان يصمت لدقيقتين في السنة، كان يدقّ على الخشب، يشـرب الحساء من طرف الملعقة، يرفع قبعتـه للنصب التذكـاري. كـان حسنـاً أن لديك تقاليد، فعندما تقاتل في حرب ضارية وغير حاسمة، يجـب أن تشق لأفكارك أقنية: ستريتهام، بادنفتون، اختراع اللاسلكي. ذلـك مـا يمسـك العقل بصورة رئيسية، لذلك يشتري المـرء جـرواً، ويوفـر الوقت الـذي قـد يضيع على ميت، ويرفع قبعته وينسى علاقته بالماضي، ويلبس ربطة عنقه المدرسـية ويسـتغني عـن التقدمـات ويـدقّ علـى الخشـب، ويوفـر الإنهـاك والأفكار عديمة الجدوى: ربما أكون مخطئاً.

على طول الامبا نكمنت، وفي شارع غريت كوليج، وبطريقة آليـة، قبـل وضع مفتاح المزلاج، أدار رأسه. ما رأى أحداً في مـدى نظـره، فلـم يسجّل الفكرة لأنه ماوجد أحداً غير مفهوم في ساحة مشـاهداته، لكنّـه لمـا صـار في الردهة المظلمة، بين المنقوشات المعدنية، لم يصعد الدرج إلى الشقة، بل قرّر تجربة أخيرة: فتح الباب الرئيسي ثانية وخطا خارجاً إلى الرصيف. هنـاك على الجهة المقابلة للشارع، وقف الرجل ذو ثياب الكـاتب الـذي مـدّ يـده ليتسوّل. لكن لايمكن أن يكون المال ما أراده، فكّر مساعد المفـوض، ووقـف بصمت أمام الباب ليسمح للرجل أن يقترب منه، لاح أبيض وتعبـاً ومريضـاً ولايمكنه إثارة حذر أحد، كان مستحيلاً أن يراقبه دون إشفاق. خطا مساعد المفوض خطوة نحوه واستدار الرجل وذهـب، تـوارى خلـف المنعطـف دون عجلة، بدا شديد التعب ليستعجل، شديد اليأس ليكون له هدف بالعجلة.

❄ ❄ ❄

اتهم كونراد نفسه بالجبن. كانت مجرد تهمة أخرى. فقد كان ألصق بنفسه تهمة الشهوة والعجز ونكران الجميل. الدور الذي وجب أن يكون درعه في مواجهة الحياة، الكبرياء الداخلية الخفية، (حتى أنا محبوب) قد خدعه وقاده في شوارع أكثر من أن يحصيها، لقد تجرجر مثل معطف وسخ خلف مساعد المفوض. ميلي أيضاً خدعته ـ أعطته الشيء الوحيد الذي أراده، شيئاً لم يكن لديه أدنى أمل في نيله، وقد أثبتت: شيء رائع يتلاشى بسرعة فائقة، بكاء في الليل، أرق، شجب، قنوط، شبك يديه بثورة كراهية لاجدوى فيها.

لم يستطع اكتشاف من كره. حدّق إليه أخوه عبر الزجاج وهمس عبر الخط: «اعتن بميلي». انحنى كونراد أكثر اقتراباً وتوسّل إليه ألا ييأس: الطعن، الاسترحام. هزّ أخوه رأسه مثل كلب عجوز تقرّح فمه، «إنها ميلي من أنا قلق بشأنه». لاح غير قادر على التفكير بموته. كان القلق أشد من الخوف. بدا مسكوناً بشبح المسؤولية إزاء ميلي. نقر مبشّر الشاشة بعصا طويلة في غرفة المدرسة المدفأة بموقد، وتوسل بانفعال: «انظروا إلى هؤلاء»، وحملق الأطفال بالمقابل بعيون حائرة وتعابير مملّة وحماقة مشاكسة، مستحيل أن تنقل إليهم، أن هؤلاء الأشخاص الغامضين الذين ظهروا واحداً بعد آخر على الستارة البيضاء: عراة، هزيلين، متعظمي الركب، كانوا أطفالاً هم أنفسهم، وحده كونراد عرف، وحده كونراد أحسّ بثقل المسؤولية لمجاعتهم، وحده لم ينسهم، مع أنهم سرعان ما أُتبعوا بأوراق النبات، مع زعماء يكشّرون ويدخنون غلايينهم، مع منظر لفيكتوريا نيانزا.

نزلت ميلي إلى الكنيسة بينما صرّت المثاقب الكهربائية في الهاي ستريت، واختلست النظر جانبيها خوفاً من عدو.

دفع كونراد أظفاره في راحتيه، وحاول أن يرى نفسه في نافذة محل في شارع البرلمان، الناس ينظرون إليه، فكر، ثمة خطأ في مظهري. أخرج منديله وفرك وجهه: قد يكون وسخاً. دار على الرصيف الخالي أمام واجهة المحل: ربما تملّص قميصي خارجاً، وبهلع مذهل، قد يكون بنطالي مفتوحاً. انحنى إلى الأمام وحدق عن كثب في خياله لدرجة لمست الزجاج

جبهته، كان ينبغي ألا ينظر إلى خياله مباشرة، سيكون ذلك غير لائق، سيكون كتفحص جسم عار، ولن يفكر بميلي مباشرة، ميلي المستلقية على ظهرها على السرير، جائعة وتعيسة وتنادي عليه. جال فكره بعيداً عن الواجهة إلى صور منعكسة نائية لميلي، إلى خف رث يصفع الأرضية، إلى رائحة الانتراسيت وصوت المثاقب، إلى الأطفال العراة المتضورين على الشاشة.

لكنّك على مايرام، بدت صورته تقول، قبعتك مضبوطة، ربطة عنقك مضبوطة، قميصك مضبوب. ليس ثمة وسخ على وجهك. ثيابك أنيقة وتناسب مركزك. لايوجد سبب أبداً لإستدارة الناس والنظر من فوق أكتافهم إليك دار أمام المرآة وضحك فتى صغير وحدقت إليه امرأة عبر الشارع.

يعرفون أني مليء بالحقد، فكّر بغموض وحزن مؤلم، كما لو كان قاضياً، عارفاً بخطيئته الخفيّة ذاتها، وعليه أن يدينْ وهو جالس. إنهم خائفون مني، إنهم يحاولون أن يجعلوني مجنوناً، كانت طريقة شيطانية خبيثة أن تحدّق وتحدّق وتشجّع الآخرين أن يحدّقوا ويحدّقوا، حتى تظن وجهك وسخاً، أو قميصك متملصاً، ثم تجد أن لاشيء من ذلك صحيح البتة، وعندئذ يكون التفسير الوحيد ربما تصرفت بغرابة ولم تدرك ذلك قط. ربما، فكر، كنت أتكلّم طوال هذا الوقت بصوت عال، وحاول أن يصغي إلى نفسه، لكنه ساكنتين تماماً، لكنّه لم يكن برهاناً نهائياً، لأنّه تذكر المتكلمين من بطونهم الذين ما تحركت شفاههم أبداً مع أن الصوت خرج. ربما كنت أصرخ من نوافذ طول الشارع، فكر، لذلك لاأستطيع أن أسمع شيئاً، فأنا خارج دائرة صوتي.

أخذ يسير بسرعة كبيرة نحو ساحة ترافلفار. لم يسبق له أن رأى المتكلمين من بطونهم يتجولون، جلسوا على كراسي غرف الطعام، وحملوا لعباً، وفكر الناس بأرقام أحياناً وكانت اللعب تحزر الأرقام. فكر ملياً بجدية، لابد أني جيد في ذلك، فأنا محاسب، ونسي خوفه آنئذٍ تماماً. كأنّ جنونه كان شيئاً من دخان تصاعد والآن تلاشى واحترق دون أثر في قاع عقله.

لكن إحساسه بالذنب ما بارحــه، وتهيـأ لـه أن الذنـب هـو مـا أدركـه الناس وليس الجنون. وقد ضايقه ذلك، وأراد التخلص منه. نما داخله كمـا ينمو القلق الجنسي أحياناً. فيضطر للذهاب إلى الشــارع يشـتري امـرأة بعـد برهة ويعود بسلامة ثانية. إلا القناعة الغامضة أن هذه ليست الطريقة الـتي على المرء أن يعيش وفقها، خطر له أن الكره قد تبدّد بنفس الطريقة تماماً، بإفساح طريق له، وحنين للبيت غريب تملكه في اللحظة الـتي خـرج فيهـا مساعد المفوض من بابه ليراقبه عبر الشارع. عندئذٍ كان عليه أن يضغط على الزناد فقط، كان تقريباً كأنه افتقد السعادة إلى الأبد في شارع غريت كوليج، وتذكر فرصة القتل بنفس الحزن المضـني مثلمـا قـد يتذكـر طفـل ترعـرع في المدينة حقل عشب أو ذرة.

خرج الناس من الكنائس بعد مواعظ طويلة، يلبسون قفـازات، يبحثـون عـن سـيّارات أجـرة، متلهفـين إلى تنـاول طعـام الغـداء. دقّــت السـاعات وتحركت ودقت مرة أخـرى. اندفعـت الباصـات المزحومـة بالركـاب نازلـة الشارع صوب كيو وريتشموند. لم يحس بـالجوع، علـى أيّـة حـال، ماكـان لديه مال يشتري به طعام، كل مرتبه الأسبوع إلا بنسات قليلة، ذهبت إلى جيب تاجر الخردة. لكنه لم يستطع أن يعود، لأنه إذا عاد فسيحدث كـل شيء ثانية لامفر من ذلك: انفعال، أرق، إدانه، يأس.

لن يمتلك حتى عذر أنه أحبها، لأنه ما عاد يحبها ـ لقد أحـبّ ميلـي تركب أعلى الباصات إلى كيو، في المعقد المجاور في السينما، تتكلم بشجاعة خائفة، بخبث غير مؤذٍ في المطبخ، لكنه الآن لايجرؤ على التفكير بها، إلا بالخف الرّث والأطفال السود، وهمهمــة الغـاز. حتـى هـذه الصـورة كـانت لديها القدرة على صدّه وجرّه إليها ـ تحدث الخف الرث عن عدم الأمان في حبه، كانت النار الهامسة في البيت والأمان وغياب التفكير. ملأت ذهنه لم ير شيئاً آخر: كان البيكاديللي خفاً والناتيسبريدج ناراً. وكان يمكـن تقديـر المسافة التي مشاها بعد الظهيرة بتعب قدميه فحسب، وما اسـتطاع أتعـاب كرهه، ووضح في ذهنـه أكـثر مـن أي وقـت آخـر أن هنـاك طريقـة وحيـدة للتخلص من ذلك.

ومع ذلك بقي هناك، حتى تحت الحقد، اعتقاد أنه إذا كان قادراً على أن يحب بصورة طبيعية ودون خجل، أو كـان محبوبـاً بحنـان واستمرار، فلـن يكـون ثمـة حاجـة إلى المسدس في الجيـب ولا للسير دون هـدف ولا للشعور بالذنب. كان ثمـة كرسـي خضـراء قريبـة منـه فجلس عليهـا، وفي الحال جاء شخص وطلب منه مالاً، أخرج يداً مـن جيـب بنطالـه بخمسـة بنسات في راحته، وأخذ الرجل اثنين وابتعـد، استطاع كونـراد أن يسـمع قدميه تدوس الحصى بجلبة، كل مرة توقفت رنّت الأجراس. كانت هنـاك أصوات ضجة أخرى، ربما كان عند طرف جيـش عرمـرم خبـأه الضبـاب، وللحظة لم يكن خفاً أو ناراً أو انزلاق فـانوس مـا تملّـك أفكـاره بـل ذكـرى باهتة لمدرسته الثانويـة، لـدرس اللغـة اللاتينيـة، عـن جيـش انتظـر علـى منحدر هضبة فوق بحيرة بينمـا سـار عـدو غـير مرئـي في الضبـاب تحـت. انقشع الضباب فجأة ـ رأى مربية تقود طفلاً عبر سهل معشوشب، حارسـاً ببذة رسمية يتكـئ علـى سـياج، فتـاة بأكمـام منفوخـة وسـاقين طويلتـين نحيلتين تلاحق برزياً(*) نازلة إلى الممر الرملي.

كانت الكلاب تنبح والأطفال يصرخون، واستلقى عاشقان وهمسـا علـى العشب خلفه. جلس وحيـداً والكـره متقوقـع بداخلـه، وحسـدهم جميعـاً، الأطفال الصارخين، الكلاب النابحة، والعاشقين يهمسان. دفع رجل عربـة أطفال على الرمل وتعلق أربعة أطفـال علـى الجوانـب يعوقـون العجـلات، تعثروا وصرخوا وتكلموا، بدا لكونراد أنّه كـان يراقـب نصراً عظيمـاً، هـذا الغريب لم يكن وحيداً، لن يكون وحيداً أبداً، ليس فقـط بمعنـى أنـه كـان مركز حشد، بل لأنه كان ضمن الحشد واعـترف الحشـد بوجـوده، سـألوه أسئلة، وشكوا إليه، وطلبوا موافقتـه، حتـى الوجـه الخشـن كـان، بعيـني كونراد، أمارة نصر: جنرال فاتح ليس حراً من الرعاية.

همس العاشقان، ورفعت الفتاة مع البزري يداً مقفزة ولوّحت لشخص ما لم يستطيع كونراد أن يراه، وسـقط ضوء الشمس منبسطاً على زجاج الشقة.

(*) البرزي: كلب روسي لمطاردة الذئاب.

كان الرمل مثل الذهب، وتدفق الضياء تحت أدنى قضيب في السياج. سيحلّ الغسق خلال عشر دقائق، وستقف المربية مع العربات تحت الأشجار وتنادي على الأطفال أن يأتوا إلى العشاء (كوب حليب وبسكوتتان صغيرتان) وسرير مع فانوس يشتعل وغرقت الشمس خارج مدى النظر تحت الحديقة والخيول ذاهبة إلى البيت والمصابيح مضاءة وانسحبت السيارات منتظرة جانب الحاجز، مثل قطط سود جثمت على سقف ضيق بلون الرصاص.

جلس كونراد ولم يحدِّق إليه أحد. لم ينظر أحد من فوق كتفه، لم يضحك أحد، كانت ملابسه مضبوطة بصورة لائقة ووجهه نظيف وصوته غير مسموع. لكنّه كان منغصاً الآن لأنه لم يكن معتبراً. كان كما لو أنه ميت وشبحه التعيس غير قادر على إيصال رغبة مبهمة تنتمي إلى الماضي.

نهض، ما نظر إليه أحد، كانت الفتاة مع البرزي قد اختفت، كان العاشقان هادئين لأن الظلال وصلت إليهما، ولأن الظلام سيكون كافياً ليستمتعا فيه، وكانت المربيات ذاهبات إلى بيز ووتر. ضرب السياج بقبضته، ومرّ بأظفاره على القضيب، ومع ذلك ما نظر إليه أحد، كانت لديه رغبة لاتقاوم لأن يمسك بردن أحدهم ويقول: «أنا حي مثلكم»، لأنه إذا ماكان المرء ميتاً وشديد التعاسة، فلن يبقى لديه صغير أمل، ولاقليل راحة - «سوف أموت يوماً ما». لكنها كانت تهيؤات، فقد عرف بنفس عمق كراهيته أنه كان حياً، والسبب أنه لو كان ميتاً لما حسد جيم — إنها الحياة التي يهرب منها جيم وهم، بكلّ إصرار، وبحب لايختلف بنتيجته عن الكره، يحاولون إعادته إليها.

إنما لا، كان مخطئاً مرة أخرى. كان مستهتراً، منحنياً فوق السياج، سامحاً للعشب أن يتحرك ويعود كوجه المرابي. يتراجع ويتقدم. ليست هذه هي الحياة التي قد يحشر فيها جيم، تلك الحياة لاتتضمن ميلي.

ظن أن لاشيء سيغويه بالعودة إلى باترسي. ليس ثمة ما يدفع المرء للعودة إلى شخص لايحبه. يعود المرء إلى البيت لأنه يعني الراحة والحنان والمعرفة والتفهم. إنها أمور يستحيل الاستغناء عنها بعد اختبارها مرة.

لكن يمكنه الاستغناء عن إشباع جوع بهيمي ويمكنه الإستغناء عن العار، لكن الكلب ، فكر، يعود إلى ما تقيأه، إذا لم أكن حذراً فسأعود إلى حيث كان أخي مراراً قبلي.

تلك كانت المسافة التي قطعها مبتعداً عنها في ليلة. كانا قد خبرا بعضهما بعضاً بألفة قبل أن يتعرف جسداهما كل على الآخر. حتى أنهما تقاسما شيئاً ما، قلقهما وشكهما، حيث لم يكن لجيم أي دور أبداً. لقد سخرت منه، كما سخرت من العالم كله عدا أخيه، لكن سخرياتها كانت دون حقد. صدق أنها أحبته بطريقة ما، وتلك الطريقة، مع أنها ماوعدت بأية متعة إلا أنها كانت أفضل من هذه الشهوة المشتركة، وهذا الجهل المشترك لأي شيء أبعد من لمسة، من حاسة القرب الجسدي، والحرارة والحركة.

أنتِ شرعت بذلك، اتهمها، فاركاً قبضته على طول السياج، لكن لن تتكرّر، لن تتكرّر، كان مصمماً على النوم خارجاً، لكن في الظلام وبرد الخريف طرده رجل دقّ جرساً من الحديقة العامة. خرخرت السيارات مبتعدة، تسير ببطء، مشى الحراس نازلين إلى نايتسبريدج وخيزرانتهم تحت أذرعهم، وكانت العاهرات الهاويات يشربن القهوة في الكشك.

صعد كونراد عائداً إلى البيكاديللي، حدّق إليه كل شرطي، وابتسمت له كل امرأة. بدأت اللعبة القديمة ـ لقد تآمروا ليجعلوه يجن. سيكون مشهداً سيئاً لهم، فكر، لو كنت مجنوناً حقاً، مع مسدس في جيبي، وفجأة عرف لماذا نظروا إليه جميعاً: أنبأ انتفاخ وتدلي جيبه بما حمل. استطاعوا أن يروا عبر الثياب ـ ربما كان ثمة ثقب ولمع المعدن عبره، أخذ يفكر الآن سيوقفوني وينتزعونه مني، وسأكون قادراً على أن لا أفعل أي شيء به بالنتيجة. لم يكن قد قرر ماذا سيفعل به، لكنه لو استطاع أن يجد مكاناً هادئاً ونام قليلاً، لكان قادراً على أن يقرر استخداماته بصورة أوضح. بدأت تمطر، مطر بارد لاذع قريب من البرد، حدق إليه الناس المستظلون تحت قنطرة الرتيز: نزل شرطي عن الرصيف وأخذ يراقبه. كان الحال كأنهم حسدوه جميعاً للقوة التي حملها. وما تجرأ على أن يبقى في مكان واحد كي لايسرقوها منه.

لكن المطر تواصل، وتبلل حتى أسفل ركبتيه، وبدا ظهره يتصلب بالروماتيزم. مشى ليحافظ على دفئه، لكنه صار أكثر بللاً فحسب. خطر له أنه يمكنه أن يذهب إلى شقته القديمة، إنما مالكة الشقة ستكون في سريرها، وليس لديه ما يكفي من المال ليدفع أجرة الطريق كله. ستكون النار قد خمدت، وسيعلق ثيابه المنقطة فوق كرسي وستسقط النقاط طوال الليل فوق مشمع الأرضية. وسيضطر للذهاب إلى العمل بثياب رطبة. سيتكلم ابن أخت المدير ويضحك بين الكتبة، ولو فتح باب غرفته الداخلية بحذر سيسمع صوته: (ليلة على القرميد) عندئذٍ سيمر المدير عبر غرفة الكتبة ويسمع ما قيل وسيدرك خفايا السخرية الجارية. سيقرع جرسه مثلما قرع الرجل في الحديقة العامة جرسه، ويكلمه أمام سكرتيرته الآنسة باتلو العجوز المنحنية الظهر ذات النظارات الأنفية التي ارتبكت بالملفات.

«الانضباط، يادروفر، الانضباط، يجب أن يكون لدينا من يستطيع حفظ الإنضباط». يد على الهاتف، أخرى تدق قلم رصاص، وفوراً، إذ ذاك، يأخذ ابن أخت المدير مكانه في الغرفة الداخلية.

يبقى الانتحار. ذلك سيحل مشكلة كيفية بقائه خارجاً وغير مبلل، مشكلة الروماتيزم الذي يعاني منه، مشكلة الحفاظ على بنطاله الأسود المقلم أنيقاً. «هناك شيء واحد نقدره عالياً للموظف: الأناقة».

اندفع خارجاً فجأة، إلى المطر، متهوراً، أناقة، سأريهم. تناثر الماء عالياً فوق حافة الطريق فيما سارت سيارات التاكسي جانبه قادمة من المسرح، وقد طن الرذاذ على المظلات ونثر ضوء المصباح مثل الزيت على السطح الأسود للشارع. سال الماء من حافة قبعته خلف ياقته وعندما استدارت قدمه على الرصيف الزلق، أسرعت وخزة داخل عموده الفقري. كان صعباً معرفة ما الذي أبقاه حياً ـ لم تكن لديه طموحات، كان العمل مجرد نضال شرس للبقاء على قيد الحياة، وكان الرجل الوحيد الذي أحبه سجيناً بعيداً عنه، وكانت المرأة الوحيدة التي أحبها قد أرته تماماً قيمة الحب بين رجل وامرأة. ومع ذلك فقد كانت تلك المتعة القصيرة هي التي

جعلته يتوقف، بدت لاشيء عندما انتهت لأول مرة، عندما ألّم به الخجل وبكت ميلي واهتزت الجدران وطلع النهار. ثم بدت خيانته لأخيه كلّ شيء، مرت ساعات ونشط الجسد ثانيةً، والمتعة مهما قصرت. بدت أكثر أهمية من الحيرة. لو كنت أحمق كفاية، فكّر بحسد، لعدتُ الآن. لكنت نسيت كل شيء إلا لقاءها ثانيةً، لو كانت حمقاء، لكانت تريدني الآن. ناسية كل شيء، حتى جيم، في جوعها. لو كنا أحمقين، مثل جيم، لما اهتممنا بأي شيء سوى اللحظة الحاضرة.

لسنا أبلهين كلانا.

انهمر المطر بغزارة بين مصباح وآخر وجعل الشارع مظلماً. جاء باص وتوقف عند الحافة جانبه مثل بيت صغير مضاء جلس فيه أهلوه وأخذوا يتحدثون وقد أفعِموا بالدفء أمام موقد، وتلألأت الأنوار على الرصيف المبتل مثل لهيب الغاز في أبراج الحرير الصخري.

«باترسي»، قال أحدهم، (ظنه أنه الجابي) «آخر باص». جلس فيه وحاول أن يرى خلال النوافذ التي غطتها الأبخرة حي شافتسبوري الممتد خلفهم.

أهذا آخر باص؟ سأل. رد الجابي: لاهناك الكثير بعد. إنها بالكاد الحادية عشرة بعد. لكن الوقت متأخر جداً، فكر كونراد لأن يفعل أي شيء الآن. كان عائداً ـ مثل كلب إلى قيئه، قال في سره ثانية، لأنني لست أحمق كفاية لأظن أنه عندما ينتهي هذا سيتبدل أي شيء: سيحدث كل شيء مجدداً، إدانة ذاتية ويأس. سأكون سعيداً لعشر دقائق. إذا كان لديها أي منطق فستقفل باب غرفتها ـ لايمكنها أن تقفل باب الردهة لأنه مكسور.

سار زورق شرطة متهادياً باتجاه تيار النهر، مضيئاً مصباحاً أحمر وقد أزعج نورساً نائماً خفق بجناحيه تحت المطر مرتفعاً إلى مستوى نوافذ الباص، ثم غاص ثانية بجناحين ثابتين إلى الظلام والصمت، فيما سقطت حبال المطر بينهما.

لو كان لديها منطق ـ ومع ذلك لم يكن ليتوقع منها منطقاً أكثر مما توقع من ذاته، وها هو عاد. دافعاً الباب المكسور، وتاركاً المطر يدخل خلفه

إلى الردهة، رآها فوراً، جالسة على سريرها وقد حلت جديلتها وحذاؤها يصفع الأرضية، ورأى ركبتيها العظميتين ووجهها الجائع.

قالت: «كنت أخشى ألا تعود. كاي لن ترجع. إنها مع رجل. ما كنت لأتحمل أن أبقى وحيدة». الكنفا غير المنتهية مكومة على طاولة زينتها، فاح العطر الشائع المألوف. فكر: «ما أكرمها، تتظاهر بأنه أسعدها مجيئي، لكن لايمكنها أن تكون كذلك، لايمكنها أن تكون بلهاء هكذا».

قال: «لقد ابتللت كثيراً»، لكنها قاطعته: «لاتتكلم، لاتقل أي شيء، تعال إلى السرير»، وللحظة كان قادراً على أن يفكر: كم كان أحمق ليتخيل أن البيت يعني الراحة والحنان والمعرفة والتفهم ـ البيت جوع إلى شيء يجب إشباعه، مرارة من شيء يجب نسيانه، ذلك كل شيء يريده المرء من البيت. قال: «مانويت أن آتي، لكنني ما استطعت البقاء بعيداً»، ورأى معالمها تقسو في اللحظة نفسها التي أخذته فيها بين ذراعيها. «لاتتكلم»، قالت ميلي. «إني أكرهك حينما تتكلم».

❄ ❄ ❄

- 5 -

- «كان هنالك رجل يتسكع بالجوار كل النهار تقريباً»، قالت السيدة سيمبسون. حركت منفضة بضعة إنشات ومسحت رماد السجائر عنها بممسحة.

تطلع مساعد المفوض إليها بحدة - عرف حسناً أن شيئاً ما أقلقها، لأنه منذ عاد من سكوتلا نديارد كانت تنق عليه بشأن أو آخر. لقد تذكر بصورة مفاجئة تماماً أنه سيتعشى مع كارولين بوري وقد تلفن أنه لن يعود إلى البيت للعشاء وأن ثيابه المسائية يجب تجهيزها. أحبت السيدة سيمبسون الإعلام المسبق كثيراً، فقد تقدمت في العمر بالنسبة لعملها، لكن نفس الشيء سيقال عنه قريباً جداً، ماكان له قلب ليصرفها ولا الرغبة بالعودة إلى الهيمنة الحريرية لنادل يصغره سناً.

- رجل في بنطال أسود مقلم؟ سألها.

- «لولم أظن أنك ستتلفن أوتأتي في أيّة لحظة لتطلب شيئاً ما»، أضافت بازدراء تعيس، «لكنت خرجت وقلت له، رأيي فيه، ينبغي أن يكون قد خجل من نفسه، يضيّع اليوم كلّه هكذا. كان هنا وقت الغداء، وكان هنا وقت الشاي. بينما بعض الناس مضطرون لأن يعملوا حتى الإجهاد».

نظر مساعد المفوض إلى ساعته. «يجب أن أغادر خلال عدة دقائق».

- ستأخذ تكسي؟

- لا، لا، سأمشي.

- «أشعر بالقشعريرة»، قالت السيدة سيمبسون، «تقضي النهار، طواله مع قتلة وحرامية. أحلم أحياناً أنك تنزف على عتبة الباب».

- على رسلك، سيدة سيمبسون، على رسلك، هذه لندن.

ـ من يعرف لندن على حقيقتها لن يستغرب إذا وجد أكثر المقربين إليه وأعزهم ينزف.

ـ حسن، يجب أن أذهب. يجب ألا تتملكك هذه الأوهام.

ـ «ربطة عنقك تحتاج إلى ضبط». أدارت حدّة لسانها عليه كما لو كان سكيناً، وقد بدت وهي تشد بإزعاج على ربطة عنقه السوداء كأنها تضعه في مكانه المناسب توبخه لنصحه شخصاً أكبر منه سناً وأفضل منه معرفةً بلندن، لقد دافعت عن نفسها بهذه الطريقة دائماً ضد أدنى تلميح عن الفوقية. أعطتها السنون العشرة الإضافية من العمر الإمتياز للنصح. «ينبغي أن تأخذ تكسي. كنت أفضل أن آخذ تاكسي»، ومع ذلك لم تكن نصيحتها مقنعة، إنها بحاجة إلى أكثر من (المخاوف) لتحطيم روتين حياة كاملة: التناسب في قبعة القش، التثبيت الأمين لدبوس الزينة في البلوزة ذات الياقة العالية، وفي الوقت الحاضر الطقطقة، طقطقة القدمين العجوزين وهما تنزلان الشارع صوب الامبانكمنت والحافلات الكهربائية.

ـ يجب أن أمارس التمارين عندما أستطيع ذلك، ياسيدة سيمبسون.

ـ «سأسايرك. عندما يبلغ المرء مثل سنك، يحتاج إلى راحة». أسرعت قلقة إلى النافذة، مرت بالمسحة فوق الزجاج البراق الذي لاغبار عليه، وحدقت إلى الشارع المعتم. «سأطلب تاكسي».

«لا،» قال مساعد المفوض، وأطبق غطاء ساعته.

ـ «لاأفهم لِمَ عليّ أن أذهب إلى البيت قلقة، لمجرد أنك لاتريد أن تستقل تاكسي». لم يكن فيها ما يلفت النظر في ردائها الرمادي ومريلتها التي كانت بيضاء ذات مرة. كان شعرها الرمادي مشدوداً بقوة إلى أعلى رأسها على شكل كعكة ليست أكبر من كأس بيضة. كانت مثل حزمة من دخان عند النافذة من نار هامدة تقريباً. «لدي ما يكفيني لأقلق عليه».

ـ غير ضروري البتة.

ـ لاأريد أن أبحث عن وظيفة جديدة في سني.

ـ لكن ماذا كان شأن الرجل...؟

ـ لم يعجبني وجهه.

ـ يجب ألا تثقي كثيراً...

ضحكت السيدة سيمبسون ـ كانت المرة الأولى، على ما يذكر، يسمعها تضحك، علقت الضحكة في الحبال المرتخية لحنجرتها، وكان الصوت كسعال. «تعلمني»، قالت. «الوجوه، يمكنني معرفة الوجه عندما أراه. ستون سنة بالخدمة. مربية، ممرضة، طاهية، مدبرة منزل، أف، وكنت مسؤولة عن التموين ذات مرة أيضاً،؟ أبداً لم تكشف نفسها هكذا، لقد حفظت الماضي بصورة عامة مخبئاً بأمان مثل مدخراتها التي، صادف أن عرف، ملقاة مكشوفة قليلاً في أطواق مطاطية، أسفل صندوق ملابس، لم يعجبني وجهه، قالت، وزمت شفتيها قليلاً كما لو أنها تذكر الوجوه التي لاتحصى التي كرهتها خلال ستين سنة من الخدمة كانت الوجوه الناعمة التي لم تتشكل بعد لأطفال أغبياء، لأرباب عمل لم يعرفوا أفكارهم، لنساء مبتذلات ثرن لأن طعامهن قد احترق قليلاً. كم قاسيت، بدت كأنها تقول، بسبب الابتذال والعناد والغباء، أكيد لم ترغب بوظيفة أخرى في سنها. «أنا راضية تماماً هنا»، اعترفت بغرابة.

ـ سيدة سيمبسون، أعدك، سآخذ تاكسي إذا صار الرجل ــ أم ــ صار مزعجاً.

كان عليها أن ترضى بذلك ـ لايمكن للمرء أن يتوقع تجاوباً أكثر كرماً من رب عمل. «كان الكاستارد أفضل قليلاً اليوم، ياآمي»، كان هذا نوع الإطراء الذي اعتادت عليه. وفي الحقيقة، قابلت كل إطراء صريح بريبة، كمقدمة لإزعاج ما، لطلب طبق آخر من اللحم انتهى لتوه في غرفة الخدمة.

«حسن، أظن أنك كبير كفاية كي تهتم بنفسك»، فاجأت مساعد المفوض ثانية بجلب معطفه ومساعدته على ارتدائه ــ ماقامت بذلك أبداً قبل. مسحت بعض الغبار على الحاشية بقطعة قماشها وتركت مكانها بعض الزغب الذي أزالته من تحت الخوان. «أظنك ستبقى مستيقظاً طوال الليل، لاأعرف لماذا تريد الذهاب إلى العشاء وعليك قراءة كل هذه الأوراق».

ـ «إنها صديقة قديمة». عطست وهي تتبعه نازلة الدرج، وعيناها الصغيرتان السوداوان مليئتان بالشك. فتحت الباب الرئيسي واختلست نظرة إلى الخارج قبل أن تدعه يمر، وأبقت عينيها عليه إذ خطا بحذر فوق مصرف مليء بالماء، وفيما عبر الطريق الملتمع الزلق المبلل بالمطر إلى الرصيف المقابل. صرخت وراءه: «على أية حال، ستضطر إلى أخذ تاكسي في العودة. سيهطل مزيد من المطر قبل حلول الليل».

غطت سحب بنية كل ما كان تبقى من القمر، وبدا الهواء كأنه يمسك بالمطر الذي لما يبدأ بالهطول بعد. شق طريقه كما لو عبر غسيل مبلول يتدلى من حبل. لاشيء، فكر مساعد المفوض، سيغريني بأخذ تاكسي الليلة، لأن السيارات كانت تنزلق على الطريق المسفلتة المبللة. كان الجو مشبعاً بصليل المكابح وعويل المطاط المنزلق، وبالقطرات المنفردة الثقيلة من المطر المتجمعة على أوراق شجر الدلب، والمنزلقة إلى الأرصفة والممرات الرملية، هرول الجميع للوصول إلى مكان ما قبل مجيء العاصفة، كلهم إلا مساعد المفوض، الذي أحس كبده بالبلل، والذي سبح رأسه بدوار المستنقع والغابة والشرق اليائس، ماكان ثمة أحد يلعب حول النوافير ـ كان الماء ينقذف وينقذف بصورة خرقاء بين السماء المكفهرة والبركة المظلمة.

لِمَ يلاحقني؟ تساءل مساعد المفوض بلا مبالاة ـ إنه الرجل نفسه. عندما وصل الرصيف جانب المعرض الوطني، تطلع خلفه ورأى عند النهاية البعيدة للساحة الشخص الضئيل ذا الثياب السوداء يتسكع إلى جوار أسد. كان بينهما الأعمدة الكهربائية والأرصفة المدخنة والسور الواقي، دون وجود أي إنسان يمكنه أن يأتي ويكلمني الآن. لكن الرجل تحرك بقلق حول قاعدة الأسد.

استدار مساعد المفوض ثانية وتابع طريقه، صاعداً تشارينغ كروس، نازلاً إلى طريق فرعية، وصاعداً طريق توتنهام كورت، يستدير إلى هذه الطريق، وتلك شاعراً طوال الوقت بوجود الشخص البعيد خلفه. لايمكن أن يستمر هذا إلى لانهاية، فكر ـ لديه الفرصة ليكلمني الليلة، سأضطر غداً لأن أحجزه وأحقق معه. ثم باب القرن الثامن عشر والإحساس بالستائر

الثقيلة والأثاث المزدحم، والجدران المصورة وتوقع الشخص الذي مات وهو خارج الوطن ـ خلق التفكير بـ جوستين فراغاً بين كرسي وآخر فيما انتظر، حتى أحس نفسه حبة فاصولياء يابسة تقعقع في علبة فارغة.

كان ذلك ما صدمه أيضاً عند رؤية كارولين. لم يكن تقدمها عشر سنوات بالعمر، لايمكن للسنين أن تخلق تأثيراً على ذاك الوجه المهزول المصبوغ بصورة مشرقة، الذي يستطيع تمييز جماله بسهولة أكثر من أي رجل آخر لأنه كثيراً ماكشر إليه بصورة يرثى لها من داخل المزارات الشرقية ــ كان ذلك لأنها لم تعد حية بالطريقة نفسها. لقد فقدت خلفيتها ـ مات جوستين البطيء البسيط المحمر الوجه، لم يعد بريقها يلمع على خلفية ستارة بنية خشنة من التويد، بل صار يتوهج ويرتجف ويضيع في فضاء خال. تساءل فيما إذا كان إحسانها وحماسها لتقديم المساعدة قد تراجع قليلاً الآن. بعد موت جوستين.

ـ «كيف حالك، ياكارولين؟» كشرت إليه ويدها على حلقها: «يقول الأطباء علي الذهاب إلى الجنوب، هذا سخف طبعاً. الأسبوع القادم...» إذاً فقد كان صحيحاً، فكر، بعد كل ذلك، مشت متثاقلة في ثياب غريبة غير عصرية ـ كانت دائماً تعطي الإنطباع أنها تلبس بوعي لمناسبة كأثر باق وبطريقة لن تبدو سخيفة عندما تتبدل الموضة. «لاتخبر الآخرين»، نقت عليه. «بعضهم قادر على اللحق بي».

قال مساعد المفوض بإخلاص تام: «كان لديك دائماً، القدرة على الهام ـ ام ـ التعاطف». وفوجيء عندما ضحكت منه، «تعاطف؟ لاتكن سخيفاً. إنهم يحصلون على ما يمكنهم مني. تعبت قليلاً منهم. أريد أن أكون وحدي».

ومع ذلك كانت وحيدة الآن ــ مساعد المفوض، الآخرون (شعراء، رسامون، كتاب، ساسة) ليسوا قادرين على إشغال فكرها أكثر من مجموعة أشباح، والشبح الوحيد الذي كانت لترحب به لم يظهر: جوستين، «عائداً لتوّه من الوطن» جامعاً الذكاء والإدعاء عبر ملاحظاته العادية كأنها قطعة قماش قديمة قوية في معطف مليء بالرقع.

ـ أردتك أن تأتي مبكراً، لأسألك بشأن دروفر، يقول الناس أنه سيشنق. هذا سخف.

ـ هل عرفته؟ سألها باندهاش.

ـ أتمنى لو عرفته، أعرفهم كلهم بعد فوات الأوان.

ـ آه، هيا، كارولين، أنت تعرفين ـ أم ــ ماالعبارة (لفظها بشيءٍ من سخرية) كل فرد.

ـ «بعد فوات الأوان، أعرفهم عندما يذيع صيتهم». ماتجشمت قط أن توضح نفسها يوماً، صراحة جملها تتناقض مع تعقيد خط يدها ــ تقدم فرصاً لا تُحصى لأعدائها. فالآن كان يمكن لشخص خبيث أن يفترض أنها كانت تشكو من عدم قدرتها على إكتشاف وإعلان موهبة. لم يكن مساعد المفوض خبيثاً ووجد سهلاً عليه أن يكشف أفكارها ــ عرف أنها كانت تأسف أنها تقدم مساعدتها حين يبدأ من تقدمها لهم لايحتاجون أية مساعدة. قالت: «تستطيع أن تساعد دروفر».

ـ خرج الأمر من يدي.

ـ هراء. طلب منك بيل تقريراً.

أجفل مساعد المفوص. «كيف عرفت ذلك؟»

ـ أخبرني سكرتيره.

ـ «ذاك الفتى»، قال بسخط «إنه قادر على فعل، النقل، أنه ــ لايعجبني».

ـ ماذا تقول في تقريرك؟

ـ كارولين، تعرفين أنه خاص.

ـ لاتكن سخيفاً. تعرف أنك تستطيع أن تثق بي.

لكنه ماستطاع أن يثق بها ــ كان يستحيل الوثوق بشخص في غاية الحماس وغاية التوق للمساعدة. كان إحسانها بطولياً، وقد كلفها دخول مخافر الشرطة وتقديم شهادات في محاكم لاتحصى، لقد خرقت مواثيق وكشفت أسرار وشهرت واقسمت أيماناً كاذبة لأنها رغبت بتقديم المساعدة.

ـ كارولين، لقد جئت لأراك، لا لأتكلم عن دروفر. قضيته انتهت ـ رفض الطعن، عليك أن تكلمي ـ أن تكلمي بيل.

ـ «إنه تافه. لا أكلم التافهين». حتى التحف المتفرقة دعمت تباهيها ـ الصورة الموقعة لجيمس، ملامح ضخمة منتفخة تطفو فوق يدين مقفزتين، علبة السجائر المهداة من القائد الليبرالي العظيم المتوفي، اللوحات التي رسمتها مارغريت سوروغيت المعلقة على الحائط.

ـ «إذاً صار سوروغيت شيوعياً». قال مساعد المفوض متملصاً من موضوع دروفر.

ـ إنها موضة. لكن مارغريت كانت عبقرية. تلك الرسوم...

تظاهر بدراستها. «آسف، لا أفهمها. ألا تبدو مصطنعة؟»

ضحكت ويدها على حنجرتها الرقيقة، «أنت وهي أكثر من عرفت طبيعية». أجفل للملاحظة الشخصية. لم يحب أن يقارن مع المرأة التي رسمت تلك اللوحات ـ كان ثمة شيء هستيري غير صحي فيها، فاحت رائحة الجنس منها بقوة مثل أيكة مزهرة في نوار. «لن أحبها أبداً».

ـ هل هي مغتلمة جداً بالنسبة لك؟ زوجها، ترى، لم يكن يشبعها.

لم يعرف مساعد المفوض أين ينبغي أن ينظر ـ لاح العناد على وجهه الأصفر الهرم، كان رافعاً للكلفة كفاية مع كارولين ليميز أن خشونتها محسوبة كانت غاضبة منه، وهذه طريقتها لإصطياده. «طبعاً، عدم إشباعها جعلها فنانة. لكن ماذا سيحدث لزوجات كل الرجال الذين تسجنونهم؟ يحترفن الغسيل، أليس كذلك؟ إنهن لايرسمن. أظنهن جميعاً يجدن رجلاً في مكان ما».

ـ كارولين، لك رأي مبتذل عن الطبيعة البشرية.

ـ هاأناذا أحاول أن أعمل شيئاً لدروفر، وأنسى زوجته طوال الوقت. لديه زوجة، أليس كذلك، ماذا ستفعل إذا خفض حكمه؟ ألا ينبغي أن أحثك على أن تقترح شنقه؟

ـ هذا شأن بيل.

ـ لاتكن سخيفاً. إنه ينتظر نصيحتك.

ـ «حسن، كارولين، إذا كان يهمك أن تعرفي، فسأقول لك، سأكتب أنه لن يكون هناك أي تأثير سواء شنقوا دروفر أم خفضوا عقوبته. بيل يتصور أن البلاد على حافة ثورة دائماً، الحقيقة هي، لا أحد مهتم بأي شيء سوى بمشكلاته الخاصة، كل مشغول جداً بخوض معركته الصغيرة الخاصة، ولاوقت لديه للآخر. إلا أنت، ياكارولين». ماقال لها كثيراً في مرة واحدة قط مثلما فعل الليلة.

ـ العشاء جاهز.

ـ كارولين، هل نحن وحدنا؟ سألها بدهشة.

«أجل»، قالت له بصوت يشبه النقيق، «وحدنا»، وسحبت أذيالها أمامه إلى الباب في ثوبها السخيف الغالي الذي لاتعتق موضته. وكان ممكناً أن تضيف أنهما الوحيدان حسب علمها اللذان لاتجعلهما مشاكلهما الشخصية وحربهما الشخصية يتجاهلان الحرب العامة.

«حقاً»، قال مساعد المفوض، جالساً مقابلها. وقف وبلع ريقه ـ لقد نسي الرأس المحني وغمغمة صلاة المائدة، مستحيل فهم الكلمات التي ما كانت انكليزية ولا لاتينية. «حقاً»، بدأ ثانية عندما ارتفع رأسها البائس النحيل.

ـ تعلمين، قد شرفني.

ـ «أنت مشغول، وأنا متعبة. إذا كنت لاتريد أن تساعدني بشأن دروفر، فليس ثمة مزيد ليقال». لكنه شك بذلك. «أردت أن أراك على أية حال قبل هذه العملية السخيفة».

ـ عملية؟ ما قلت لي بتاتاً، أن هناك عملية؟

ـ كنت ستظن أني قادرة على اختراعها للحصول على ما أردت.

ـ «أنت بالتأكيد الأكثر ـ ام ـ كرماً»، استغرب كيف أثارت سحنتها الساخرة عاطفته الأكثر نبلاً». همهم وفأفأ بحثاً عن الكلمات ــ أراد فجأة، وعلى نحو خطير، أن يقدم لها أي شيء طلبته منه. فقد كان واثقاً أنها لم تتلق أي شيء من أي شخص إلا من جوستين، لقد أعطت وأعطت، وقتاً وحالاً وأعصاباً. «إنك في غاية الشجاعة»، ختم كلامه.

«لا،» قالت، «إني أخاف الألم. لم أكن قادرة يوماً على احتماله. هذا سبب أني نزقة وقلقة وغير راغبة في لقاء الناس. كنت أحاول أن أكتب وصية. لكن ليس هناك شخص بعينه أريد ترك المال له، ولن أتركه للدولة كما تدار بشكلها الحالي ـ سوف يساعدها في شراء بضع طائرات أو دبابات».

ـ المشافي؟

ـ هذا مبتذل، لكنني أظنني سأضطر لذلك، حالياً أود أن أساعد دروفر، لكن بيل سيخاف قبول رشوة، تخمين؟ كانت واحدة من خططها الرائعة غير اللبقة.

ـ كارولين، كارولين، لسنا في أمريكا الجنوبية.

ـ لقد قيل لي هذا من قبل، لكني غير مقتنعة، هل تؤمن بطريقة تنظيم البلاد؟ هل تؤمن أن الأجور يجب أن تتراوح بين ثلاثين شلناً في الأسبوع وخمسين ألفا في السنة، أن عاملاً يدوياً يجب أن يدفع له أقل من آخر يعمل بعقله؟ كلاهما لاغنى عنه، كلاهما يعمل الساعات نفسها، كلاهما ينهك كالكلب في نهاية نهارهما، هل تظن لي الحق أن أترك مئتي ألف جنيه لأي شخص أحبه؟

ـ لا.

ـ لكنك تدعم الدولة، تدعمها أكثر من أي فرد آخر ـ لولا قوة الشرطة ما استمرت حال سيئة كهذه سنة واحدة.

ـ من سيحل محل بيل و ـ ام ـ الآخرين؟ سوروغيت؟

ـ أنه سخيف طبعاً، ومع ذلك ليس أمراً صعباً إدارة وزارة. ليست بمثل صعوبة إدارة مزرعة أو قيادة محرك. ثمة كثير من الزيف في هذه الأمور. استبدل بيل بأحد كتبته ولن تلاحظ الفرق.

ـ لم يسبق أن جرب مثل هذا. إنه شديد الخطورة.

ـ لقد جرب.

ـ «روسيا»، قال مساعد المفوض بانزعاج، «لانريد مجاعة هنا».

ـ لدينا مجاعة هنا، فقط أنا وأنت لانعاني منها.

همد مساعد المفوض صامتاً، تحركت شوكته وتحركت آلياً ــ لم تكن لديه فكرة عما كان يأكله. قالت كارولين بوري: «سيكون الموت مثيراً للجنون الآن، والعالم على ما هو عليه، إذا لم يكن لدى المرء إيمان».

ـ إيمان؟

ـ إيمان.

ـ المسيحية تعنين؟

«لا، لا، ليس المسيحية». انتظر وشوكته مرفوعة وتساءل فيما إذا حلت مشكلة معتقد كارولين أخيراً. من غرفة الجلوس فاحت رائحة خفيفة لأكواز بخور تحترق ببطء.

ـ «تعنين ـ مجرد مبدأ»، حثها.

ـ حسن، أليس لديك مبدأ؟

ـ «طيب»، قال، «يأمل المرء ـ ام ـ طبعاً»، وقعت كسرة من خبزه ووجد نفسه مرة أخرى مواجهاً بالسؤال ــ كيف لإمرأة بهذه السخرية وبهذه النظرة الواضحة أن تربلك نفسها ببخور، بأوثان هندية (كان هناك عدداً منها في غرف النوم الاحتياطية) بأيقونات (كان ثمة واحدة على الدرج)، بصور العذراء (كانت في كل مكان)؟

ـ لماذا تأمل؟

ـ «حسن، يحيا المرء، ثم لابد، يموت.» كان ذلك أقرب ما استطاع أن يصله لنقل إحساسه لخسارة فادحة وصرف لاجدوى فيه للحيوات: كارولين في غرفة العمليات، دروفر على خشبة المشنقة، الفتاة في ستريتهام كومون، جوستين في إسبانيا. كان الإيمان مستحيلاً بهدف عظيم موجه، لأن هؤلاء ماكانوا قطع غيار يمكن تقليدها ثانية. كان قد امتلأ، تحت ظل التقاعد، وتحت الدوار الذي ضبب رؤيته عندما نهض بسرعة كبيرة عن الطاولة، برغبة مشبوبة لحياة خالدة، إنما الحياة الخالدة على الأرض تشاهد العالم ينمو بصورة عقلانية، والقوميات تحتضر والفوضى الاقتصادية

تفسح طريقاً للنظام. لكن عندما يأتي ذاك الوقت، فكر، لن يتمتع به أولئك الأكثر غيرية: كانت جوستين قد ماتت، وكاورلين ستكون قد ماتت أيضاً، وعدة رجال من رفاقه القدماء الذين أعجب بهم... سوف يتمتع بـه بصـورة اعتباطية مجموعة مـن النـاس الذيـن صـادف أنهـم أحيـاء في زمـن معـين، مغامرون وساسة ومخادعون بين البقية. أما أولئـك الذيـن قـاتلوا بـأقصى مـا استطاعوا في سبيله فسيكونون في عداد الأموت على الأرجح. ذلك أنه هو ذاته سيكون ميتاً ليس عدلاً ـ لم يساعد، بل خدم أولئك الذين دفعوا له، ووقف جانباً. لكن كارولين التي أرادت أن ترشو وزير الداخليـة بمـيراث تسـتحق الحياة، وعندما لحق بأذيالها عائداً إلى البخور والغرفـة المظللـة المزدحمـة، شعر أنه صغير وخسيس ومخزي. كان عذره دائماً أنه يـؤدي عملـه، لكنـه متذكراً جوستين فكر: هي أدت عملها، ومع ذلك فعلت قدراً كبيراً أكثر.

ـ «يجب أن أذهب»، قال.

ـ ولاتستطيع المساعدة بقضية دروفر؟

ـ أنا آسف، ياكارولين.

ـ «طاب مساؤك إذاً». مدّتْ يداً عظمية بيضاء بلون الحوار. «اعتـدت أن تجد طريقك بنفسك».

ـ «نعـم، نعـم». وأدرك فجـأة كـم كانـا عجوزيـن معمريـن لايسـتطيعان الافتراق بأية حرارة، لكن كان يجب أن يفترقا براحة أكبر».

«آسف»، قـال ثانيـة، وفكـر: محظوظـة أن لديهـا إيمانـاً، مهمـا كـان ماتعنيه به، ليس لديها أي شيء آخر: امرأة عجوز منهكة في غرفة مظلمـة مليئة بآثار الذوق الذي كان حماسياً، وليس معصوماً.

بحث طويلاً في المدخل غير المضاء عن مـزلاج اليـال. كـانت امـرأة غـير تقليدية ـ ما اهتمت أن تغلق خادم الباب خلـف صديـق كمـا لـو أنـه غريـب، أرادت أن تعطي انطباعاً عن باب مفتوح دائماً. لكن الأمر سيكون مناسباً أكثر لو ترك النور مضاء. وبّخ نفسه وكاد يشارك كل أصدقائها الآخرين في انتقادهـا عندما وجدت يده المـزلاج ودفـع البـاب فصـار مفتوحـاً. لقـد نسـي حينمـا

كان معها الرجل الذي لاحقه بإصرار شديد. وفي أعلى الدرجات الثلاث المهترئة، تذكر. وقف الرجل وسط الشارع وحمل شيئاً ما موجهاً إلى الأمام بيده. وقد فشل مساعد المفوض للحظة بمعرفة ماهيته.

وإذا رأى أنه كان مسدساً، أغلق باب الشقة - ١٥ - بهدوء. لم يرد أن تُروِّع كارولين فجأة إذا حصل شيء. لم يكن خائفاً، بل واثقاً إلى أقصى حد، ارتفعت معنوياته مثل سهم ناري عبر ضباب التردد، وعدم الرضى، والندم - أسقطت جسده المعمر إلى الأرض مثل عصا السهم الناري، فيما ارتفعت هي إلى أعلى. لكنه رغم أن معنوياته حومت عالياً، لم يكن متهوراً، عرف بالضبط ما عليه أن يفعله. يجب أن يبقى ساكنا، لايقوم بحركة مفاجئة، فقد تظهر تاكسي للتو بضربة حظ، أو قد تمر سيارة بينهما وتمنحه فرصة عبور الرصيف. لقد مسك بتحديقة الرجل واقفاً هناك فوقه مسافة ثلاث درجات...

❄ ❄ ❄

أصفر كالضوء خلف الكتف، عجوز، هادىء، العدو، المهرج خارج البيركلي. (عربة أطفال على تاكسي) وارتفع دخان الحقد المدفون تحت قاعدة العقل ودوّم وارتفع، وشدت الأصابع وفكر المرء: الآن، هل أطلق النار؟ أين يجب أن أوجه؟ إلى أعلى زر الزينة في سترة السهرة؟ لكن يدي تهتز. يجب أن أكون هادئاً. إذا تحرك إنشاً واحداً فسأطلق. لكن العجوز الهادىء ذا الوجه الأصفر والشفتين الرقيقتين والجفنين الأرستقراطيين، انتظر، وفكر المرء: يعرفني سأخطىء. هل أتيت كل هذا الطريق، وتعقبته كل تلك الأرصفة، وانتظرت وانتظرت دون طعام، لأخطىء في النهاية، بسبب ارتجاف يدي ليس إلا؟ وفكر مجدداً: إذا جاءت سيارة فيجب أن أطلق فوراً. يجب ألا أنتظر. ليس ثمة أحد في العالم لن يساعده ضدي. أنا وحيد.

لقد عزله حقده عن كل من أحبه. لكن عندما تنطلق الرصاصة ويموت الرجل فسيغادره كرهه. سيكون قد تركه يأخذ مجراه وسوف يغادره. وفكر بالأدراج المعتمة المنحدرة التي داسها متعقباً العاهرات وبعدها عاد إلى هدوئه

ثانيــة، إلا شعور مبهــم أن هــذه ليسـت الحيـاة الـتي يجـب أن يعيشـــها الإنسان. ارتفعت يده، لم ينظر إلى وجه الآخــر بـل إلى زر الزينـة في سـترة السهرة، هدرت سيارة في مكان ما، لاحــظ بطـرف عينـه اليسـرى، الأنـوار الأماميةِ تمزق الظلام عند ناصية شارع بلومزبري الطويل...

عندئذٍ قلت لميلي، أطلقت. قلت لي أنّه لايمكنني حمل بندقية يوماً ومع ذلك بقيت يدي ساكنة لفترة طويلة كافية. سـقط أسـفل الدرجـات الثـلاث واستلقى على الطريق. حاولت السيارة أن تقف، إنمـا الطريـق كـانت زلقـة بعد المطر ـ فانزلقت خمسين قدماً. وضعت المسدس في جيبي وهرعت قادماً. لقد كرهتك البارحة، لكنني الآن لا أكره أحداً وأشعر براحة تامة ثانية. لن يقتفوا أثري، لأنه لايعرفني، وليس لدي دافع قوي للغضـب ضـده. أحبـك الآن دون كره أو غيرة أو شهوة، الأمر كأني دفعت بكابوسي إلى جسده عبر الفتحة التي صنعتها الرصاصة.

كان يقص على نفسه حكاية خرافيــة، لكــنّ ذلـك كـان صحيحـاً، فقـد تقلص كرهه إلى زر زينة في قميص رجل، وكشفت الأنـوار الأماميـة لسـيارة ضخمة الطريق والرصيف بينهما، الفكرة: سيهرب حين تكون بينهما. ثبّت يده ـ صرخ أحدهم عليه وسمع المكابح تسحن والعجلات تعول بينما فشلت في البقاء على قارعة الطريق، لقد صوب أخيراً على الرجـل خـارج البـاب، على الشرطي في قفص الشهود، على المازح خارج بيركلي، على ابن أخـت المدير، على المدير، على الأصوات المنادية (كونراد، كونراد)، عبر السـاحة المسلفتة. لايمكنكم إخافتي بإسم القاتل: جيم قـاتل. لقـد شـدّ وشـدّ ولكـنّ الزناد الصـدىء لم يتحـرك. عندئـذٍ صـدم جسـمه ورُمـي علـى بعـد دزينـة ياردات ولمٍ يستطع أن يفكر: ما الذي فعــل ذلـك؟ ولم يتساءل: لمـاذا أنـا هنا؟ ممدداً ووجهه فوق حافة الرصيف، يراقـب المـاء الأسـود يقطر أسفل مصرف ويسقط في بالوعة، واعيـاً الألم والأصـوات، والألم، الألم في الظهـر، والألم الأشد سوءاً في الفك (صرّتْ حفارة طبيب الأسنان، وصرّت، وذهبـت ميلي إلى الكنيسة ورائحة الانتراسيت صدمته).

ـ أتعرفه، ياسيدي؟

- ليس لدي أدنى فكرة من يكون.

- سيارة الإسعاف قادمة.

- ماكان ليسبب أي أذى - المسدس معبأ برصاصات خلبية.

قال السيد بيرني: «يجب أن تدفع لي للمخاطرة»، وابتسم ولملم الإبتسامة ونفّ. فكر: سرعان ما سأفقد الوعي، لا أحد يتحمل هذا الألم لوقت طويل، وفيما انقحمت الحفارة الضخمة بين أسنانه ثانية، حاول أن يتحرك، أن يصرخ. لكنه لم يستطع سماع شيء سوى أصوات تتكلم: «حقاً، تعرف أنها لم تكن غلطتنا. هو الذي خطا إلى الأمام، والطريق زلق جداً». حاول أن يصرخ مجدداً، لأن الألم الآن أخذ يخدش مثل ظفر حاد صغير في عموده الفقري، وسمع هذه المرة: كان الصوت نخيراً خفيضاً. لم يمنحه الرضا. الألم مثل طائر شديد الهيجان للحرية، يندفع من حائط إلى حائط في غرفة الحبس، وقد كدم عقله خفقان جناحيه. مرة وأخرى اندفع إلى عرض النافذة فيما طار صوب الزجاج، لكنّه عائداً طار إلى الجدار الأبعد: مضروباً ومكدوماً ولايتعب أبداً. لو أستطيع أن أفقد الوعي، فكر، لو أستطيع أن أصرخ.

- «أفضّل عدم تحريكه - ربما كسر ظهره». لمست يده الماء الأسود يقصر من المصرف واستطاع أن يرى دمه يمتزج بالماء متدفقاً بكثافة من حافة الرصيف - توقف الطائر عن التخبط جيئة وذهاباً في عقله، لقد أذعن، وقبع في زاوية منهكاً، عرف أنّه لن يخرج أبداً. تساقطت الكلمات التي قالها الناس بطيئة عبر الهواء: «اسمع... أستطيع... سماعها... آتية». استطاع سماع كل كلمة تسقط من الشفاه وانكمش عقله من الخوف، منتظراً أن يصله الصوت ويطعنه كسهم هوائي مريش على قاعدة الجمجمة. حتى الضوء تعوق - كنست الأضواء الأمامية الشارع ببطء مثل مكنسة صفراء. ركع أحدهم على الرصيف جانبه، واللمسة الخفيفة للمعطف على جنب كونراد لذعته كاليود على قرح مفتوح.

لكنهم عندما رفعوه نهض الطائر ثانية — اضطربت جدران العقل واهتزت بانقضاضاته، لو أستطيع الصراخ، لو أفقد الوعي.

بقي واعياً، وحملوه إلى سيارة الإسعاف، وجلس شرطي وممرض إلى جانبه وسارت السيارة عائدة من الطريق التي مشاها. استطاع أن يعرف متى وصلوا إلى ساحة ترافلفار، لأنهم داروا وداروا مابدا زمناً طويلاً في دائرة. ثم أُخرِج إلى الشارع وحمل إلى الأعلى فوق درجات، وحاول أن يصرخ، ودقت بيغ بن تشير إلى نصف الساعة. كان على سرير نقال عابراً ممرات طويلة، مشت ممرضات باتجاه معاكس وحدقن إليه، وحاول أن يصرخ - كان في غرفة صغيرة، وحملوا علبة صغيرة أمام وجهه، وحاول أن يصرخ، ثم أصبح الألم لايحتمل فأغلق عينيه وفتحهما وجلست ميلي إلى جانبه وقارورة معدنية معلقة فوق رأسه وقطر أنبوب لعاباً في فمه ولم يشعر بألم. الألم، عرف، كان مايزال هناك، لكنه كان مجهداً، فقبع دون حراك وتقوقع في ركن متيبساً بالضمادات التي قيدته أيضاً، تظاهروا أنهم لم يروا الألم، وساروا جميعاً على رؤوس أصابعهم بلطف لئلا يوقظوه.

لقد وضعوا ستائر حول سريره، ومع ذلك استطاع أن يرى عبر فجوة فيها الحراس وصفوفاً من الرجال ينامون بقلق، وممرضة جالسة تقرأ على طاولة حيث اشتعل مصباح وحيد. انحنت ميلي فوق السرير. «وجدوا رسالة في جيبك». حاول أن يرد عليها لكنه لم يستطع أن يحرك فكه المضمد قطر اللعاب الصناعي، قطر على لسانه.

- ماالفائدة، ياكونراد، ماالفائدة؟

لم يستطع أن يرد عليها، حاول أن ينقل عبر عينيه مسحة ما من الألم الذي يتسبب به استجوابه وعدم قدرته على الرد.

لِمَ لم تسألني أولاً، ياكونراد؟

حنت وجهها قرب وجهه وهمست: «ماالنفع؟ لِمَ لم تستطع الانتظار؟» عاد يحدق إلى الجلد المشدود بقوة على العظم وحاول رفع يده. لكنه كان مربوطاً ومجبصناً فلم يستطع حراكاً.

- «لايمكن أن تكون قد فكرت أن يكون له أي نفع؟» جاهد ليجيبها. دارت الممرضة حول الستارة قادمة وهمست: « يجب ألا تتحدثي إليه. لو تذهبي أفضل».

وضعت ميلي يديهـا علـى طـرف السـرير وهمست بيـأس: «يجـب أن أخبره ـ لابد أن أخبره ـ بشأن جيـم». لكـن المرضـة شـدت علـى ذراعهـا وقالت: «غداً. سوف تثيرينه. يجـب أن يبقـى هادئـاً». استطاع أن يحـزر فوراً كم كانت الأنباء التي وصلتها سيئة، وجاهد ليفهم. كان كما لو أن كل انطباعات الغرفة، الرؤيـا الـتي تبـددت علـى الستارة، والممرضـة والأسـرة المصفوفة، يمكن أن تُساق عائدة إلى عقله لتقوي الحيوية التي يحتاجهـا لـو كـان لـه أن يفهـم: أغمـض عينيـه. وأصم أذنيـه دون أي نأمـة، السـاعة المتكتكة المعلقة على صدر الممرضة، تنفس الرجـال النـائمون. نقـط اللعـاب نازلاً من الأنبوب المطاطي، ليسمع فقط ما همست به ميلي والممرضـة. دفـع قدميه إلى نهاية السرير شاعراً ببرودة الحديد عبر الملاءة والبطانيات، شـاداً قواه المتبقية كلها إلى مركز، كـي يمتلـك القـوة قبـل رحيلهـا رغـم الضمـاد والجص فيجلس ويحرك فكه ويتكلـم، ليسـألها مـاالأمر الـذي سمعتـه عـن جيم.

فتح عينيه ورأى ميلي بوضوحٍ تام، خيال مقابل مصباح القراءة يكتنـف الظلام كل ما حولها، وكان عارفاً أنها محتارة ويائسة وبحاجة إليه، وأنـه يحتضر ـ بدا لـه، كـانت تراقبـه بهلـع كأنـه أول الرجـال الذيـن لابـد أن تتعـرف عليهـم عـاجلاً أم آجـلاً، فتـح أذنيـه وسمـع التنفس عاليـاً عـبر حنجرتها. وضع قدمه على الحافة الحديدية وحث فكه أن ينفتح وعضلاته أن تستجيب ـ ثم جاء ألم وإحساسٌ بشيء مـا يتكسـر وطعـم دم وحنجرتـه تمتلىء وصراع للتنفس.

ما عرف أبداً أنه صرخ بالرغم من فكه المكسور ـ ولكـن بعـد أن غـادروه وتوقف نبضه ومات، وبدون أي معنى مفيد، عاد الوعي لجزء من الثانيـة، كما لو أن عقله مرآة محطمة تماماً، التقط أحد أجزائهـا ضـوءاً عـابراً. رأى عقله وسجل المشهد: إثنا عشر رجلاً مستلقون يقظى بقلق في الجنـاح العـام بأجهزة لاسلكية على آذانهم، وممرضة تقرأ تحت مصباح، ولاأحد جـانب سريره.

❄ ❄ ❄

غير مفهوم، فكر مساعد المفوض، غير مفهوم. ارتقى الدرج على مهله، درجة درجة، توقف على البسطة: طبعة معدنية من لوحة فريت «محطة القطار» (الحرامي بالأصفاد، الزوجة المهجورة)، على طاولة عادية طفل برونزي عارٍ يخرج شوكة من قدمه.

فتح باب شقته، ولمع الضوء على حبات القرع المنقوشة وانعكس على الرماح المحلية. نهض رجل في منتصف العمر عن الكرسي ذي الذراع الوحيدة. «مدبرة منزلك أدخلتني». تردد. «أنت لاتذكرني».

«طبعاً، أذكرك»، قال مساعد المفوض. «كنت قساً في سجن ليدز وقد نقلت .. ام.. إلى هنا».

«أردت أن أراك»، تردد: رجل شاحب في بزة من الجوخ ثقيلة ذات ياقة عادية وربطة عنق.

«أمهلني لحظة واحدة. أُطلقت النار عليّ للتو ـ بعبوات خلبية». كانت العبوات الخلبية هي التي أقلقته. ذهب إلى غرفة نومه وسفنج وجهه. «اعذرني لإبقائك منتظراً»، نادى عبر الباب. لكن القس كان سعيداً للتأخير ـ لم يستسهل قط أن يتكلم مباشرة. مذ دخل السجن، خمسة عشرة عاماً مضت، انقضت حياته في إبلاغ الأخبار بلطف، وفيات الأقارب، خيانة الزوجات. أثرّ ذلك على أسلوبه، فلم يعد يستطيع أن يتحدث مباشرة في أي موضوع ــ قدم آراءه بالخمر والمسرح، وأعاد النظر في كتب الصلاة بموارية تدعو إلى السأم. راقبه مساعد المفوض في مرآة طاولة الزينة، بينما وقف قلقاً جانب درع جلدية وحاول أن يجد الكلمات المناسبة.

ـ تعرف سكرتيربل؟

تقدّما ببطء بالغ نحو التفاهم: أحدهما، عجوز وعاجز عن التعبير ويفكر طوال الوقت بالعبوات الخلبية، والآخر متوسط العمر وخجول، وكما ظهر بسرعة، غاضب وغير سعيد.

ـ هل ثرثر ذاك الشاب مرة أخرى؟

ـ أخبرني أنك تنصح الوزير بشأن دروفر.

ـ «يبدو أنه أخبر الجميع. إني ـــ ام ـــ أجحفت بحق ذاك الشاب»، عصر إسفنجة. «هلا جلست؟» لكنه رأى القس في المرآة قد فضل أن يطوف إذ رفع حبة قرع وتفحصها ولمس نهاية رمح.

ـ سوف أستقيل.

تفحص مساعد المفوض يديه ـــ كانت ثمة بقعة دم على كمه. «هلا عذرتني لحظة، يعني، ريثما أبدل قميصي؟» جمع الروابط ببطء: عبوات خلبية، لم يره قبل ـ غير مفهوم.

ـ «سوف أستقيل» كرر القس.

آسف، قال مساعد المفوض. «طالما سمعت ـ كم أحبك الرجال».

قال القس: «لاأستطيع تحمل العدالة الإنسانية مدة أطول. اعتباطيتها، وغموضها».

ـ لا أقصد، طبعاً، أن أكون مجدفاً، لكن أليست كبيرة الشبه، أعني، أليست العدالة الإلهية الشيء عينه؟

ـ ربما. لكن ليس بمستطاع المرء أن يسلم استقالة للرب.

خلع مساعد المفوض قميصه، وبحث في درج، ورأى القس عبر الباب المفتوح يحرك مرطبان التبغ بعصبية.

«وليس لدي أي شكوى ضد رحمته». كان مشرفاً على نهاية الطريق الطويل والملتوي ـ كان هدف زيارته مفهوماً. قال بغضب مفاجىء: «طبعاً، أنا أحمق لأني هنا، خط أحمر، بيروقراطية. ماجرى قد جرى ولايمكن إعادته». وضع مساعد المفوض أزراره. «لافائدة ترجى، أعتقد، أن أطلب منك رفع الظلم بعد أن فعلته؟»

ـ «حقاً»، قال مساعد المفوض، «لا، لا أفهم...»

ـ لقد عملوا بنصيحتك.

شد مساعد المفوض ربطة عنقه. «تقصد الإعدام...»

ـ ألغي، خفضوه.

عـاد مسـاعد المفـوض إلى غرفـة جلوسـه وجلـس. «لم أرسـل لهـم تقريري، حتى إني لم أكتبه، كان عليهـم أن يعلمونـي. كـان ذلـك سـيوفر عليّ كثيراً من الوقت، من المشكلات. فكمـا تـرى، لـدي كثـير مـن العمـل لأقوم به».

ـ وصلت الحاكم رسالة من مكتب وزير الداخليـة هـذا المسـاء. وكالعـادة طبعاً، أنا من يجب أن ينقل الخبر.

ـ الخبر الحسن.

ـ لم يكُ لدي أية أوهام إزاء ذلك. لم يكن دروفـر يخشـى المـوت. لكنـه مغرم جداً بزوجته. ستكون امرأة في منتصف العمر عندما يخرج من السـجن
ـ هل تظن أن ثمة امرأة تخلص ثمانية عشرة عاماً لرجل تراه مرة في الشهر؟ وقد أحب كل منهما الآخر.

ـ ماذا قال؟

ـ لم يقل شيئاً. ليس ثرثاراً. لكنه عندمـا كـانوا ينقلونـه إلى واحـدة مـن الزنزانات العليا في الجناح ـ أ ـ حاول أن ينتحر. دفع نفسه من فوق. طبعاً أصابته بعض الرضوض والكدمات ليس إلا. أمسكته شبكة الأسلاك. ألديـك شراب؟

فتح مساعد المفوض خزانة. «آسف، الزجاجة فارغة».

ـ «سيان. أنا مسرور أنك لم تتورط بذلك. ثمة عزاء واحد لاغير: له أخ. كلاهما كرس نفسه للآخر. سيعتني بزوجته. هذا حسن». نظر حوله بعجز. «إذا لم تكن قد أرسلت تقريرك. أظن ليـس هنـاك مـايمكنك عملـه. الرجـل يجـب أن يعيـش»، قـال بسـخرية كـانت قـد ضلـت طريقهـا إلى مسـاعد المفوض: «لقد قرّر بيل».

ـ «كان ينبغي أن يقرر منذ البداية»، قال مسـاعد المفـوض. «كـان لديـه ملاحظات القاضي». وجد القس قبعته. لم يفعل شيئاً محدداً، كأن يصافح، رجل عجوز قبل أوانه، رازح تحت بؤسَ وفيات كثيرة، لـوّح عنـد البـاب. «ثمانيـة عشـرة عامـاً»، قـال، أخرسـه تقريبـاً بـؤس حيـاة ممطوطـة جداً.

«ما كنت لأستقيل»، قال مساعد المفوض، «لو كنت مكانك»، لكن نصيحته رفضت بمواربة أقل مما أظهره القس طويلاً. «لقد كتبتها». وبعد أن ذهب وأوقف الهاتف يد مساعد المفوض على الصفحة الأخيرة من التقرير، وجد نفسه يرتاب بقوله هو ذاته. «لو كنت مكانك» قال. كان الصوت من المشفى يخبره آنئذٍ: «لقد مات. حصلنا على اسمه. إنه كونراد دروفر. إنه أخو...» وفكر المفوض: أستقيل؟ إنه محق، إنني ميال لأن أستقيل أنا نفسي إلى حد ما.

اهتز الصوت في السلك: كانت العاصفة المهددة تنفجر: همهمة وصفير عبر السماعة، «كانت العملية ناجحة. الموت نتيجة صدمة. الشيء الوحيد الذي لانستطيع كشفه هو لماذا عبأ بخلبيات...» تلاشى الصوت، كان صعباً أن يميزه مثلما كان موعوداً بتقرير شامل. تمنى لمساعد المفوض ليلة هانئة، وأول طشة مطر كنست الزجاج، اندفعت من نافذة مفتوحة، بللت الأوراق على الطاولة.

أستقيل؟ نهض، أغلق النافذة، سحب الستائر. بدا أن الكلمة تقوده إلى غرفة خالية، باردة، لانار فيها، غرفة ربما توقع أن يجد فيها صحبةُ، لكن الإشارة الوحيدة لوجودهم السابق كانت القداحة التي خلفوها وراءهم: رماد سيجارة، فناجين قهوة فارغة، أظهرت أنهم كانوا هنا ذات مرة، لكنهم رحلوا.

جلس إلى مكتبة ثانية. أنا جبان، قال في سره. ليس لدي شجاعة قناعاتي؛ إنّ سكوتلا نديارد تستطيع أن تستغني عني، ولكنني لا أستطيع الاستغناء عنها. بدأ يقرأ الأوراق أمامه. لم يكن عقله الواعي هو الذي استوعب معانيها، لو كان لديّ إيمان، فكّر بمرارة وسخرية، لو كان لدي أية قناعة بأني في الجانب الصح، لقد امتلكت كارولين ذلك، عندما تفقده، عليها فقط أن تبدل موقعها.

ثم دون تحذير، من عدم رضاه وعدم الثقة بالنفس والعار، ارتفعت معنوياته، وتلاشى كل ماكان يقلقه كشخوص ضئيلة تعود راكضة من مهبط فيما تقلع سفينة فضاء. كان وحيداً في الجو الفوسفوري الرحب لتفكيره.

نسي القس، نسي دروفر، نسي العبوات الخلبية. وشرع يكتب بخط يده الصغير الموسوس عبر أعلى تقرير ستريت هام: «الذي لم يدركه الضابط المسؤول عن هذه القضية هو أهمية دليل العاهرة، إذ رأت فلوس ماتيوز تنتظر على كرسي في الحديقة العامة، باكراً، في السادسة صباحاً، مقترنا بالدليل الآخر...» لأجل لحظات الإلهام الخفية هذه، عاش مساعد المفوض.

صدر عن
دار الطليعة الجديدة

ـ غريب في المقبرة	تأليف: وليم فوكنر ترجمة: د.محمد علي حرفوش
ـ قاعة الرقص الرومانسية	تأليف: وليم تريفور ترجمة: فاضل السلطاني
ـ ذاكرة النار	تأليف: إدواردو كاليانو ترجمة: أسامة اسبر
ـ حوارات سجين	تأليف: فكتور أنبيلوف ترجمة: عدنان جاموس
ـ الحضارة البشرية أمام مفترق طرق	تأليف: د. قدري جميل
ـ الكتاب الأبيض لأبخازيا	ترجمة: د. تيسير كم نقش تدقيق: د. أحمد باكير
ـ مولوتوف.. مائة وأربعون حديثاً	تأليف: فيليكس تشويف ترجمة: زياد الملاّ فايز البرشة
ـ العمل الشيوعي الفلسطيني في سوريا	تأليف: حمد موعد
ـ الدراما التلفزيونية	إعداد: عماد ندّاف محمد ندّاف
ـ ميثاق الموج	شعر: أسامة اسبر

- آكان، أحرث صوتك بناي — شعر: أكرم قطريب
- ثلاث ليالٍ لقمر أريحا — شعر: وليد عيسى الزوكاني
- علم السلوك (بحث) — بإشراف: أ.د. زياد درويش
د.منال المختار
- محاولة في رصد ما حدث — تأليف: أمين الحسن
- ماالذي حصل ياإلهي — تأليف: عماد نداف
- خالد بكداش (كلمات - أحاديث - مقالات)
- حول الصراع الإيديولوجي — تأليف: ديمتري تسيحوف
ترجمة: زياد الملاّ
- آه منا نحن معشر الحمير — تأليف: عزيز نيسن
ترجمة: جمال دورمش
- حكايات من الشام — تأليف: محمد خالد رمضان
- وردة غان — تأليف: عماد ندّاف
- نقد أفكار زعماء الردة في الفكر الماركسي اللينيني المعاصر — تأليف: صالح بوزان
- خالد بكداش يتحدث — إعداد وحوار: عماد نداف
- على المبدأ — تأليف:ن.ك.نيفيوديفا
ترجمة: زياد الملاّ
- جلجامش والبحث عن الخلود — ترجمة: سهام شاهين
- سامبو، الطاحونة السحرية — ترجمة: سهام شاهين
- إبرة الساحر — ترجمة: عمار مصطفى